

فنون التحرير الصحفي  
بين الأصالة والمعاصرة



الصحافة

أدب

د. محمود زرقع





فنون التحرير الصحفي  
بين الأصالة والمعاصرة

١

# أدب البحث في من زاوية صحفية

دكتور محمود أدهم



**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**

**« ... ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ**

**ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »**

**« صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ »**



## بسم الله الرحمن الرحيم

### تقديم

بسم الله ويعونه تعالى ، نبدأ هذه السلسلة الجديدة وهي الثالثة من سلاسل مؤلفاتنا ، تلك التي رأينا أن تكون تحت عنوان : « فنسوان التحرير الصحفى » بين الأصالة والمعاصرة » . بعد أن أخذت الأولى اسم : « فنون التحرير الصحفى بين النظرية والتطبيق » . وأخذت الثانية اسم : دراسات فى صحافة المجلة » .

وهذه السلسلة الجديدة ، تقوم على فكرة تقول : اذا كانت كثرة من مؤرخى الأدب والصحافة ومن المؤلفين عامة فى الميدانين يعودون بهما الى الأصول والجذور الأوربية ، ويغضون الفكر والنظر عن غيرها فى أحوال كثيرة ، فان باستطاعة التراث الفكرى العربى الأصيل والثرى الذى لا ينضب معينه أن يقدم هو الآخر ، ما يثبت أن كثيراً من فنون وأنماط وأطر الحاضر الاتصالى الصحفى كانت لها جذورها ، بل ومقدماتها وطلائعها - الأكثر تقدماً فى أحيان كثيرة - تلك التى رصدتها وتابعتها وحررتها وسجلتها ونشرتها منذ مئات السنين ، أقلام عدد غير قليل من رواد الفكر والأدب والثقافة العربية . . . وظهرت بين سطور إبداعهم .

إننا - كعرب ومسلمين - أصحاب حضارات عظيمة أخلاقية وأدبية وفنية وعلمية وإنشائية كبرى ، فلماذا لا نستلهم هذه الألوان كلها ؟ نعم لماذا لا نستلهم هذا التراث العظيم الزاخر ، مايمنا نحن أصحابه ؟

ومن هنا ، فقد توكلت على الله ورجحت أغوص فى محيط هذا التراث ، أنظر هنا وهناك ، وأقرأ وانتقى وأدقق وأقارن وأحلل ، فيزداد يقينى بقيمته من زاوية اتصالية وأدبية معا ، وتأخذ بى كتابات كثيرة أشرت الى بعضها إشارات عديدة ، فى مؤلفات سابقة لى ، ترى . . . هل كان باستطاعتى تجاهلها ؟

لكن . . . وحتى قبل هذه السنوات ، فان اسما من الاسماء لم يشدنى الى إبداعه ، من منظور اعلامى صحفى ، ولم يقطع الطريق على إثناء دراستى

لفنون التحرير الصحفي .. كلها ، فتقوم كتاباته بعمل « اختراق » قوى ، لما أفكر فيه ، وما اتناوله من مادة اخبارية ، أو موضوعات أو قصص أو تقارير أو مقالات صحفية .. مثل هذا الرجل الموسوعي المكون من عدة رجال ، والذي كان وراء الكثير من الجديد المتطور الذي دخل الى لغتنا العربية وإلى أدبنا العربي فكرا وموضوعا ، مفردات وأسلوبا ، ومن ثم فقد رأيت أن أقف عنده ، بغية تقديم ما يتصل بهذا الجانب ، وأصبح ذلك الاحساس يصاحبني كثيرا ، ويدفعني إلى المزيد من التعرف على هذا الرجل ، والتوغل في عالمه الموسوعي ، من أجل الهدف نفسه .

ثم عاد « الطارق الجاحظي » يلح على بعث ، ويطلق باب فكري بشدة وأنا أقوم بجمع مادة رسالتي للماجستير وكان موضوعها : « فن التحقيق الصحفي المصور » .. حيث تأكد لي أن بعض كتابات الرجل ، يمكن اعتبارها من بين جنود هذه المادة القياسية ومقدماتها في أدبنا العربي .. بل أن دراساتي التحريرية التالية لهذه الدراسة والتي تناولت عسدا من الفنون الأخرى .. جميعها راحت تؤكد هذه الرؤية ، بشكل أو بآخر ، وإن اختلفت المسافات بين الكتابات الجاحظية ، وبين هذه الفنون ، فهي حين تقف بالقرب الشديد منها ، وفي حين آخر تقترب منها فقط ، وفي حين ثالث تبدو بعيدة عنها ، لكن هذا البعد ليس تاما ، ولا كاملا ، وإنما يمكن أيضا رؤية عسدا من وجوه الشبه أو العوامل المشتركة .. بالعين المجردة ، فضلا عن أن هذا الاختلاف ، هو من طابع الجذور والمقدمات ذاتها ، وذلك بصرف النظر عن عنصر « الطباعة » واستخدام بعض التعبيرات الصحفية الحديثة ، وما يتصل بالعصرين ، عصر الرجل وعصرنا من فروق عديدة ، وما إلى ذلك كله ..

ولم يكن لي ، ولا كان باستطاعتي أن أنتظر أكثر من ذلك كله ، لا سيما وأنا أرى بعض ما قدمت من مادة علمية صحفية ومن أفكار جديدة تماما ، أو ما تناولت من أفكار معروفة ، من أكثر من زاوية جديدة ، ومن خلال أكثر من رؤية جديدة .. والحمد لله وحده .. أرى بعضهم وقد راح يختلسها أو يبتزها ، ويستحلها لنفسه دون إشارة ، أو بإشارة باهتة عقيمة إلى قلة قليلة مما يأخذ ، أو بثبت نفس مصادري أو بغير ذلك من أساليب ملتوية وغير صحيحة .. نبهت إليها في كتب سابقة ، وثبه « الجاحظ » إليها منذ أكثر من عشرة قرون !! ..

ومن هنا فقد رأيت أن تخرج هذه الصفحات الى النور ، تلك التي أريد  
أن أقول بشأنها :

● أننى أعرف تماما ، وربما أكثر من عديدين ، أن الأدب أدب ،  
وأن الصحافة صحافة، لكننى أيضا، ومن خلال دراسات عديدة ولقاءات متصلة  
مع أصحاب التجربة الصحفية الحية والثرية ٠٠ أعرف كذلك أن للاعلام  
بلاغته ، وأن هناك ما يمكن أن نطلق عليه اليوم ، وما سوف نطلق عليه غدا :  
« الأدب الصحفى » ، وهما « بلاغة الاعلام » من جانب ، و « الأدب الصحفى »  
من جانب آخر لابد وأن تقوم صلات النسب والقرباة ، بينهما وبين البلاغة  
بمعناها الأدبى ، لأنها المعين الأساسى لهما .

● ثم ٠٠ هل هناك ما يمنع — حتى اليوم — من أن يكون بين أعضاء  
الأسرة الصحفية ذلك الرجل الواحد الذى يجتمع فى شخصه الواحد ، بين  
الأديب وبين الصحفى ؟ على الرغم مما فى ذلك من صعوبة يبررها هنا أنه  
لا يكون شخصا عاديا ، أو محررا عاديا ، وإنما من هذه القلة ، أو القلة  
النادرة من الموهوبين والمبدعين ؟!

● أنه لا يمكننى ولا أستطيع ولا أقدر ٠٠ أن أنزع عن الجاحظ  
صفته الأدبية ، أو حتى أقوم بالمحاولة ، لأضفى عليه الصفة الصحفية ٠٠  
إنما أنا أقول فقط أن أديب العربية الأكبر ، كان له جانبى الذى يمكن أن نطلق  
عليه أنه « جانبى صحفى » ، وكانت له أفكاره وتوجهاته واهتماماته التى يمكن  
أن نقول عنها أنها كانت « صحفية » وفق التعبير الحديث ، والتى سبق بها  
غيره .

● أننى أقول ، أن هذه النتيجة التى توصلت اليها ، والتى رحلت  
أعدد مقدماتها وشواهداها خلال صفحات الكتاب ، يمكن أن يتوصل اليها  
أيضا كل دارس ومهتم بأدبه ، إذا كان على قدر كاف من المعرفة بالصحافة  
عامة ، وفنون التحرير الصحفى وتاريخها وأسسها وقواعدها خاصة ، وبالمثل  
يمكن أن يتوصل اليها كل دارس ومهتم بهذه الفنون الأخيرة ، إذا مد بصره  
نحو التراث الجاحظى ، وحاول ونجحت محاولته فى الاغتراف من معين فكره  
وعلمه .

● لكننى بنفس القدر ، استبعد ان يوافقنى حتى على قليل مما جاء خلال الصفحات القادمة .. ولا اطمح فى ذلك ، رجل لم يعرف الجاحظ حق المعرفة ، ورجل لم يعرف الصحافة. على نفس القدر .. او اقل منه قليلا .

● ومن هنا فانتى وان كنت اقدم الدعوة الى كليات ومعاهد واقسام الاعلام وعلوم الاتصال والصحافة بالعالم العربى ، من اجل العناية بدراسة امثال هذه الموضوعات وتدريسها أيضا لربط الماضى بالحاضر ومن اجل استلهم تجارب السلف وتتبع آثارهم ووضعها فى مكانها الصحيح ، فانتى أوجه كذلك الدعوة نفسها الى رجال اللغة العربية وأديها ، هؤلاء الذين اطمح فى عونهم و اضافاتهم من اجل تاصيل عربى لقنون التحرير الصحفى ، ولاشك انهم أكثر منى قدرة على ذلك ، وأصبر عليه ، وأجدر به .. وكلانا هنا يكمل الآخر ، ولا يعارضه أو يسلبه حقه ..

على اننى أقول أن هذا الكتاب ليس منتهى الأمل بالنفسية للتراث الجاحظى ، فهو ككل كتاب آخر لابد وأن تعتوره جوانب نقص هى من طابع البشر والكمال لله وحده سبحانه وتعالى ، ومن ثم فلنا عودة الى هذا التراث، من أكثر من زاوية أخرى ، بل لنا باذن الله عودة الى آخرين ، ننظر اليهم من نفس الزاوية أيضا ، حتى أن راح البعض يقول أننا جذبنا الأدب من شعره لنجعل صحافة ، ولويتنا عنق الصحافة لنجعلها أدبا .. ولهؤلاء أقول .. طالعوا أولا ، ابحثوا وادرسوا الأدب والصحافة معا بفكر جديد ، محايد وموضوعى تعرقوا أننا نملك أيضا أدبا صحفيا جديرا بالبحث والدرس .. والتكريم .. والله من وراء القصد .

المؤلف

د. محمود أسهم

## **الفصل الأول**

**عن الصحافة  
والصحافيين ..  
والأدب الصحفي**



إن المدخل الطبيعي الى هذا الموضوع يمكن تحديده من خلال طرح أكثر من سؤال تتصل ببعضها في مجموعها ، وتشابك وتعود فتلتقي في النهاية ، حول الغرض المحدد نفسه ، وهو اثبات أن لنا في الجاحظ - نحن أرباب مهنة الصحافة بعضا مما لرجال الأديب وأضيف ، ومثل مجموع ما لرجال الدراسات الإسلامية واللغوية ، والفلسفية والعلمية في تراث هذا الرجل أيضا .. بل ربما تفوق ما لنا فيه ، على ما لهؤلاء ، حتى يمكننا أن نتقاسمه نحن والأديب سواء بسواء ..

ذلك كله قبل أن ندل على مثلها ، بالأقوال والأفعال ، لعاصريه ، أو لعاصرينا ، أو من خلال مؤلفاته ومؤلفاتهم ، المعروف منها ، وغير المعروف ..

فهل كان ما قدمه الجاحظ للمكتبة العربية هو من جنس مادة الأديب فقط ؟ أو كان أديبا فقط ؟ حتى يقال عنه ، كما عرف دائما ، أنه أديب العربية الكبير ، أو الأكبر ، أو أنه يعتبر واحدا من أديبائها الأقداد .. وأقول : من أديبائها فقط ؟

أم أن هذه الصفة الأدبية قد طغت عليه طغيانا ، والتصقت به التصاقا ، حتى كادت تذوب معها ، أو تنصهر في بوتقتها أو تختفي في ظلالها صفاته الأخرى العديدة وخصائصه الفريدة ، واتجاهاته الشمولية الواضحة ؟

مع أن هذه الصفات الأخرى ، وتلك الخصائص التي لازمتها وعرف بها ، وكانت علما عليه ، معروفة تماما ، وواضحة للعيان ، ولا تستطيع أن تتجاهلها عين الخبير بمجرد القاء النظر وأعمال الفكر في هذا التراث الجاحظي نفسه ، المطبوع وغير المطبوع ، لا سيما عندما تنظر إليها هذه العين ، نظرة حياد كاملة ، بعد أن تضعها في ضوء معطيات العلم ، التي تقرر ما لهذا العلم ، وما لغيره ، وبمراعاة الظروف السائدة ..

أقول .. كان الجاحظ - بنتاجه وإثاره - أديبا وصحفييا وباحثا وعالما ، بل وأقول أنه كان فيلسوفا أيضا ، كان كل هؤلاء معا ، وكان أكثر من كل هؤلاء ، اجتمعوا جميعا في شخصه ، واتفق اجتماعهم عليه ، وكانوا من مكوناته ، أو من معالم شموليته ..

لكننا — بالطبع — لن نتناول على نفس القدر والمستوى الجوانب الأخيرة . من هذه المكونات ، بل سيكون تركيزنا أولا ، وبإحدى ذى بدء على تناول هذا الرجل ، من تلك الزاوية التي اجتمعت له على المستويين الأدبي والصحفي ، أو الصحفي والأدبي ، وإن كنا نقول مقدما ونحاول أن نثبت ذلك خلال السطور القادمة ، أن هذه الجوانب الأخيرة نخبها ، جوانب التعدد في العلوم والمعارف بالقدر الذي جاءت عليه ، أو كان عليه صاحبها ، مما يثبت دعوى الجانب الصحفي عند الجاحظ .

بل اننى — فى هذا المجال — أذهب الى أبعد من ذلك فأقول اننى أزعـم هنا أن أحدا من الأنبياء أو المفكرين ، أو الفلاسفة ، أو الكاتبيين ممن سبق الجاحظ بقليل من الحقب ، أو بكثير منها ، على المستوى العربى ، أو غيره ، عند المصريين القدماء ، أو أهل الساحل الفينيقي ، أو الإغريق أو الرومان أو الصين ، أو غيرها ، أزعـم أن أحدا من مفكرى هؤلاء الأقوام وفى حدود علمى . لم يسبق الجاحظ الى هذا القدر من « الشمولية » وإلى هذه الدرجة من « الموسوعية » . . . وإلى طريقته وتعدد جوانبه . . .

فالبعض فى مصر القديمة . كان قصاصا ، يؤلف القصص الأسطورية أولا ، الذى انتقل من جيل الى جيل ، والبعض كان كاتب حكم ومواعظ ، يكتب ذلك اللون الذى يحدث على عمل الخير ، ويحض على مراعاة القيم واللبادى ، والبعض الثالث كان شاعرا — بنتثور وأتباعه — والبعض الرابع كان اعلاميا اخباريا عمل على أن تكون الأهرامات وجدران المعابد والهياكل والمسلسلات والمقابر ثم الأحجار والجلود صحفه التى تلاثم عصره والبعض الخامس كان رحالة يكتب مذكرات رحلاته ، هذا كله فى مصر القديمة ، أما فى بلاد فينيقيا فقد ساد أدب البحر وسادت أساطيره وأغانيه وألوان « فولكلوره » . . مع بعض القصص البحرية ، حقيقية أو خرافية ، وأما فى أمم الغرب القديمة ، فقد ساد الشعر ، خاصة شعر الملاحم ، والشعر التمثيلى ، والغنائى ، وسادت الخطابة ، وساد فن المسرح . وكان لكل رجاله الأقداد ، كانوا شعراء ، أو خطباء ، أو رجال أخبار فقط . . ومثلهم كان عرب الجاهلية وصدر الاسلام . والا . فليدلى أحدكم على رجل آخر سبقه ، يكون من طرازه .

لا أعرف أن أحدا منهم قد اجتمعت له كل هذه الصنوف والقطوف ،

وقد دانت له كل هاتيك الثمار مثل رجلنا ، لماذا إذن لا نقول أنه أول الشموليين .  
وأول « الموسوعيين » ؟

لكن الطابع الخاص الذي كان عليه ، وكتب به ، وأسلوبه في التناول والأداء والكتابة وعلى الرغم من هذه الشمولية نفسها ، يجعل منه الأقرب مكانا الى اللون الصحفي ، بل جعلنا نزعج بأن هذا الرجل قد سبق جميع أدباء عصره الى ذلك ، بل والسابقين عليه أيضا ومن ثم قاته يجوز اعتباره - استنادا الى ذلك - ومن زاوية زمنية تاريخية ، على أنه صحفي العربية الأول . وإن كنت قد قدمت لذلك بهذه الكلمات التي تعنى عدم معرفتي بأحد ممن سبقه الى تلك المنزلة ، على مستوى الحضارات الأخرى ، فإني أحدد هنا ذلك ، تحديدا زمنيا وفنيا وتكفييني هذه الإشارة الى هذا السبق الزمني على المستوى العربي لأن حدود علمي قد لا تمتد الى أماكن العمق في الآداب الأجنبية ، التي قد يكون هناك ممن كتبوا بلغات أخرى ، من هو سابق عليه في هذه الخصائص كلها .

لكنه ، وهو من أزعج بريادته الصحفية على المستوى العربي ، لم يكن - بالطبع - صحفيا من هؤلاء الذين يقنعون من حصاد يومهم بخبر أو بخبرين أو بعشرة أخبار عادية أو روتينية أو رقيقة ، أو بزيارة الى موقع عمله وقضاء لبعض الوقت ثم نقل لبعض الأخبار السهلة ، أو ما أطلقت عليه وأنا أعتقد بعضها « أخبار اليد الأولى » أو « الأخبار الجبروتية » التي يراها الجميع عند مدخل المكان ، أو « معلقة » على لوحة الاعلانات ، أو تلك التي لا يبدل من ورائها جهد ما في سبيل الحصول عليها ، كذلك فلم يكن هو ذلك الذي يتبع الطريق السهل ، أو يعيش حياته على خبطة أو أكثر أو يكتفى ببضعة مقالات هنا أو هناك ، أو ينتظر حتى تصل اليه المصائر ، أو تصله النشرة الصحفية حتى باب مكتبه ، أو يتوقف عند حد تقديم ما حصل عليه دون تفكير أو تعليق أو شرح أو تقديم لما وراء الأخبار وكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد ، في الزمن الماضي والحاضر والمستقبل . . . وغيرها وغيرها .

كان الجاحظ صحفيا ، بمفهوم عصره ، وبما نعنيه الآن عندما نقول « الكاتب الصحفي » بكل ما تمتد اليه الكلمة من أبعاد وأطراف ، وما يتصل بها من جوانب وما توحيه من ظلال أيضا ، كان من طبقة المحررين الشموليين الموسوعيين الذين نعنيهم عندما نقول أن فلانا هو محرر صحيفة « كذا » أو مجلة « كيت » . . . إنه هنا ليس المحرر العادي ، وإنما كبير المحررين ، وربما

رئيس التحرير نفسه ، وربما يكون أكبر من رئيس التحرير نفسه ، بمصادره وثقافته واتصالاته ونفوذه ، وقبلها جميعا ، بقلمه ومستوى كتابته هكذا كان ، ولم يكن مثل من ذكرت من المخبزين أو المنويين ، أو العسائين من الكاتبين ، لكن من هم هؤلاء ؟ وما هي « مواصفاتهم » أو « خصائصهم » ؟ ..

## عن الأدب

### وعن الصحافة

ان كنا نحاول في هذه السطور أن نقول بأن الرجل كان للأدب والصحافة معا أو كما قلنا في كتاب سابق لنا من أنه كان ممثلا صادقا لطلائع هؤلاء الرجال الذين كان « تصفهم للأدب ، وتصفهم للصحافة » .. أكثر مما كانوا لغيرهما ، أو للمعارف الأخرى ، فإن الاتجاه الطبيعي لمسيرة هذه الكلمات أن نعرف أولا بهذين ، الأدب والصحافة معا ، لكننا بطبيعة الحال ، لن نتوقف كثيرا عند التعريف بالأدب ، أو بفنونه ، فذلك ليس هدفنا ، إلا ما يتصل منها بما نريد بيانه وجلاء ما يقترب منه أو يقربه من موضوعنا ، تماما كما أن الغاية ليست هي إثبات أن « الجاحظ » كان أدبيا ، أو كان أكبر أدباء العربية ، وإنما هي إثبات أن للرجل جوانبه الصحفية ، وإنتاجه المتصل بصاحبة الجلالة وأشكال قفه المتميزة بفنون تحريرها ، وحتى أكثرها « معاصرة » أو « حديثة » بل وأسلوبه ، الذي كان أقرب أساليب عصره ، وأساليب عصر آخرى بعده إلى « الأسلوب الصحفي » نفسه .

ومن ثم يكون توقفنا الأسامي عند الفن الآخر ، الفن الصحفي ، مع تركيز شديد على هذين الجانبين معا ، جانب الصحافة ، وجانب الصحفي ..

لكن ، لأن الصحافة ضرب من الفن ، ولها « أبداعها » أو جوانب الإبداع فيها ، فكرا وبحثا وتنفيذا وتحريراً وتصويراً وإخراجها ، فهي من هذه الزاوية الأخيرة « الفنية » التي نتحدث بالفكر الصحفي الملهم وعنه ، تأخذ كثيرا من « معالم الأدب » ، ويشتركان معا في هذا الجانب الفني ، فكما أن الأدب فن ، فالصحافة فن أيضا ، ومن ثم يكون توقفنا - مرة رابعة - وبعد تعريف الأدب والصحافة والصحفي ، عند رؤيتنا الخاصة لهذا المزيج الإبداعي المركبة ألوانه ، المختلفة حدوده والذي كنا من أوائل من أطلق عليه تعبير « الأدب الصحفي » .. والذي نرى أن الرجل كان قارسه الأول ، وبلا جدال ..

وهكذا نرى صفة جديدة أخرى ، تضاف الى صفاته ، لكنها ليست جميعها بالطبع وإنما هي بعض ما أطلق عليه فقط . ما أطلقه غيرنا ، وما أطلقناه ، أو ربطنا بين الرجل وبينه .

لكن لنترك هذه الصفات والخصائص الجاهلية ، الى بيان هذه التعريفات ، نفسها . تعريفات الأدب أولا ، ثم تعريفات الأديب ثانيا بما يتصل بهما من معالم وخصائص .

● عن ماهية الأدب تقوم بالقاء نظرة الطائر ، على عدة تعريفات ، لنرى ما الذى يمكن أن نستخلصه فى نهايتها مما يتصل بموضوعنا ؟ . وذلك على الرغم من كثرة وتعارض المفسرين للأدب ، الكلمة والمطلوب معا .

— فمن بين التعريفات قول بعض المؤلفين : « كلمة أدب هي اللغة العربية مأخوذة من أدب العقل والخلق اذا هذبها وثقفها ، ومن تعاريف الأدب أنه من الفنون الرفيعة التى تصاغ فيه المعانى فى قوالب من اللغة ، وفيه متعة وله سحر قوى فى النفوس » (١) .

— ويقول باحث مجتهد : « الأدب — فى رأى — هو التأثير وكل تأثير يحدث عن طريق اللغة هو أدب ، وهناك صلة بين الأديب والقارئ ، فالأديب مؤثر والقارئ متأثر والأدب هو ذلك التأثير الذى ينتقل من الأديب الى القارئ » (٢) .

— وتتداخل بعض مفاهيم « البلاغة » مع مفاهيم الأدب ، عند عدد من المفكرين والمؤلفين ، مما يفيد قضيتنا ، نذكر من بينهم على سبيل المثال قول القائل : . . . « ولعل خير تعريف يفصح عن معنى البلاغة وأهدافها قول أبى الهلال العسكري : البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع ، فتتمكنه فى نفسه كتتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن . . . فهذا التعريف الواضح المفهوم هو لب البلاغة ، ولب البيان ، وهو يتفق تمام الاتساق مع مفهوم الأدب ، وهو فى الوقت نفسه يشير اشارة صريحة الى عنصرى الأدب : الفكرة والصورة ، واطارة صريحة كذلك الى هدف الأدب وغايته ، وهو التأثير فى نفس القارئ أو السامع أو نقل مشاعر الأديب واحساساته

وعواطفه وانفعالاته الى مستقبل عمله الأدبي لتتمكن في نفسه تمكنها في نفس الأديب » (٣) .

— ويقول استاذ في النقد والأدب المقارن بعد أن يشير الى اختلاف الباحثين في تحديد تعريف النموذجي للأدب ، وطويل جدالهم حول هذه النقطة : « ولكنّهما يكن بينهما من اختلاف فهم لا يمارون في توافق عنصرين في كل ما يصح أن نطلق عليه أدبا ، هما : الفكرة وقالبها الفني ، أو المسادة والصيغة التي تصاغ فيها ، وهذان العنصران يتمثلان في جميع صور الانتاج الأدبي : سواء أكان تصويرا لاجساسات الشاعر وخلقيات نفسه تجاه عظمة الكون وما فيه من جمال وامرار ، وحيال الام الانسانية وآمالها ، أم كان تعبيراً عن افكار الكاتب في الانسان والمجتمع وسواء كان ذلك الانتاج الأدبي رسالة أو مقالة أم مسرحية أو قصة ... » (٤) .

● وهناك تعريفات عديدة أخرى للأدب ، الفن والعلم معا ، تجرى على الألسنة ، وتتداولها الأقلام ومن بينها :

— الأدب هو الشعر والنثر باتواعهما .

— جيد الكلام ، كثير المعاني ، منظوماً أو منثوراً .

— ما يكتبه القصاص أو الشاعر أو الكاتب المسرحي أو مؤلف الأغنية أو كاتب المقال متوجهاً به الى القراء والمستمعين والمشاهدين ليحقق أثراً ما في ذواتهم أو قلوبهم أو عقولهم أو هذه كلها معا وبدرجات متفاوتة من التأثير تتناسب وقيمة العمل الأدبي ذاته .

— الكتابة الفنية على أية صورة من صورها أو شكل من أشكالها .

— ما يعبر به الأديب بواسطة الكلمات المنتقاة ، عن أفكاره وأحاسيسه ومشاعره ، خطماً أو نثراً .

.. ومن متكرر القول إن نفكر أن الكلمة — كلمة الأسب — في اللغات الأوربية والتي تعنى « Literature » مشتقة من الكلمة اللاتينية القديمة Literatus حيث نقرب من معنى الحرف الطباعي ، أو حروف جمع المادة أو كما نقول في علم الاخراج أو الطباعة « الطباعة البارزة »

« Letter press » ونحو ذلك كله .. نون أن تفكر احتمالات ما ذهب إليه تفكيرنا مما يتصل بالصلة التي يمكن أن تقوم بين التعبير Letter وبين أدب الرسائل ، أو الرسائل الأدبية العربية ..

● ● ان هذه التعريفات كلها تعنى - فى رأينا - ومن زاوية هذا الكتاب نفسه :

— ان الرجل - بداهة - كان أدبيا كبيرا ، بل كان أدبيا فائزاً ، بل لعلنا لا نبعد عن الواقع كثيراً عندما نقول أنه كان أديب العربية الأكبر ، وذلك بصفة عامة وإذا تفاضينا عن بعض من يقول أن الأدب هو شعر ونثر فقط ، وأن الأديب - قياساً على ذلك - هو الشاعر أو الناثر وحدهما ، الرجل هنا أديب بالمعنى الشمولي الذي تؤكد كتاباته المتعددة التي تجتمع بين طابع البحث والاصطفاء والفكر المتميز وحسن التناول والتعبير وتقديم الصور والمشاهد المتعددة فى تلك القوالب من الصياغة التي يعرفها له النقد ومؤرخو الأدب ، تماماً كما أن ما تحدث عنه الرجل ، ومن تحدث عنهم ، ثم هذه الأفكار والمعاني العديدة التي عبر عنها فى أسلوب جميل ، سهل ، واضح ، له حلوته وله طلاوته وإن لم يعهده الناس فى عهده ، الى غير ذلك كله مما نعود اليه فى حينه بأن الله .. فذلك هو ما نستطيع أن نقوله فى هذه العجالة ، عن الرجل الأديب ، وهل مثله فى حاجة الى اثبات ذلك ؟ .. وإن كانت عودتنا اليه قائمة ، لنصل بين هذا الوجه الأول للصورة ، وبين وجهها الآخر ، الصورة الجاحظية نفسها .

● لنتقل الآن الى الوجه الآخر من الورقة ، أقصد الى تعريفات الصحافة نفسها ، لكننا قبل هذه التعريفات نشير الى اللفظ نفسه كما جاء فى : القرآن الكريم أولاً ، والمعاجم اللغوية وبعض كتب الأسماء ثانياً .

#### ● الصحف فى القرآن الكريم :

أما عن ورود الكلمة فى كتاب الله تعالى ، فقد وردت على صفحات الطاهرة ثمانى مرات جمعا ، وكان ورودها على هذا النحو وحسب ترتيب الآيات والسور :

( الجاحظ )

١ - « وقالوا لولا يأتينا بأية من ربه .. أو لم تأتكم بينة ما فى الصحف الأولى » سورة طه ١٣٢ .

- ٢ - « أولم ينبا بما فى صحف موسى » سورة النجم ٢٢ .  
 ٣ - « بل يريد كل منهم أن يؤتى صحفاً متشرة » الميثر ٥٢ .  
 ٤ - « .. فى صحف مكرمة » عبس ١٣ .  
 ٥ - « .. وإذا الصحف نشرت » التكويز ١٠ .  
 ٦ - « أن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى »  
 الأعلى ١٨ ، ١٩ .

٧ - « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » البيئة ٢ .

### ● الصحف فى المعاجم والقواميس والمؤلفات العربية :

ونكتفى هنا بالإشارة إلى عدد من هذه المصادر ، لأن ذكر الصحف والصحافة فى واقع الأمر ، يجعل عن الحصر .. أن من بينها مثلاً :

— أن من بين الذين أشاروا إليها على سبيل المثال لا الحصر العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور فى موسوعته اللغوية : لسان العرب فالصحيفة عنده « الورقة التى يكتب فيها » .

— وعند الفيروزىادى صاحب « القاموس المحيط » .. « الصحيفة هى الكتاب وجمعها صحائف وصحف » .

— وقد فصل ذلك أبو الحسن على بن اسماعيل النحوى المشهور بـ « ابن سيده » فى المجلد الرابع من « المخصص » .. فنقل عن صاحب العين — الفراهيدى — قوله : « الصحيفة : التى يكتب فيها ، والجمع صحائف وصحف ، وقى التنزيل : صحف إبراهيم وموسى ، يعنى الكتب المنزلة عليهما ، والمصحف : الجامع للصحف المكتوبة بين اليفتين كأنه أصحف أى جمعت فيه الصحف ، والصحف والصحفى الذى يروى الخطأ على قراءة الصحف باشتباه الحروف » (٥) .

— .. وأما عن المؤلفات العربية ، فذلك طرف من رؤيتها للصحافة :

— ان أحد الباحثين ينقل قول شويتهاور الطريف : « الصحافة عقرب الثوان للاحداث العالمية » (٦) .

— وان أحد أساتذة الصحافة يقول : « الصحيفة هي مطبوع نوري ينشر الأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والتقنية ... الخ ، ويشرحها ويعلق عليها » (٧) .

— وينقل المؤلف نفسه في كتاب سابق له ، عن « الفيكونت فيليب دي طرازى » صاحب : « تاريخ الصحافة العربية » قوله الذى اشتهر بعد ذلك « أول من استعمل كلمة الصحافة بمعناها الحالى — أى الاصطلاحى — كان الشيخ نجيب الحداد منشئ جريدة لسان العرب بالاسم — كندرية ، ويعرف الصحافة بأنها صناعة الصحف والصحف جمع صحيفة وهى قرطاس مكتوب والصحافيون القوم الذين ينتسبون اليها ويعملون بها » (٨) .

— ويقول مؤلف آخر : « الصحافة مهنة البحث عن الحقائق ونشرها بطريقة رشيدة تنفع المجتمع وتنميته » (٩) .

— وبعد اشارات عديدة الى الدور الصحفى القديم والحالى تقول مؤلفة مجتهدة : « ... ويمكن ان نعرف الصحافة فى هذا الوضع بأنها صوت الشعب للشعب ، وهو تعريف فى بساطته يرادف معنى الديمقراطية فى حكم الشعب — الصوت الذى تتمثل فيه ارادة الشعب ورغبته وطموحه وآماله ، الصوت الذى تلتقى به ارادة الحاكم وارادة المحكومين على طريق العمل والحياة والصوت الذى يعلن الحقائق صريحة — يشمل الشعب بجميع طوائفه وهيئاته ويربط الشعب بمصالحه ومواقع عمله وطريق حياته » (١٠)

● تلك هى — باختصار شديد — طائفة من اشهر تعريفات هذه المصادر كلها للصحافة ، قيل ان نتوقف عندها لنرى « مصداقية » انتساب « الجاحظ » اليها ، وجدارته بهذا الانتساب ، وسخوله بفكره وكتاباتة الى عالمها الفسيح ، ومن أكثر أبوابه اتساعا ، وحتى من خلال هذه التعريفات الحديثة ، وجميعها معاصرة ، نقول ان هذه التعريفات كلها تتجه وتركز على :

— الصحف بنوعها « جرائد ومجلات » ،

— الجرائد اليومية أولا —

وصحيح أن « رجلنا » ينتسب إلى الصحافة وفق بعض أساسيات ومعالم  
وذوايا هذه التعريفات مجتمعة ، وليس تعريفا واحدا منها دون غيره ، ينتسب  
إليها بمعنيها ، أو باتجاهها إلى جانبي الصحف والمجلات معا .

لكننا من خلال تجربتنا الصحفية ، ودراساتنا التي سبق القيام بها ،  
ما طبع منها وما لم يطبع ، نعود فنستدرك ، ونقول ، أن « القرائ الجاحظي »  
بكل عرويته وأصنائه وأبداعه وفنه ، يكاد يكون أقرب إلى طابع المجلة ، وإلى  
طابع الصحيفة الأسبوعية ، منه إلى طابع الصحيفة اليومية ، تماما كما أن  
الرجل نفسه ، بفكره وتوجهاته ، وغزواته لأكثر من موقع ، يكاد يكون أقرب  
إلى طابع « محرري وكتاب المجلات » . قبل محرري وكتاب الجرائد اليومية .

إلا يعني ذلك ، ونحن نتحدث عن الجاحظ ، أنه يجب التوقف مرة أخرى ،  
عند تعريفات « المجلة » . تلك التي كان ارتباطه بها فكرا وكتابة ، شديدا ،  
وأكثر بروزا من ارتباطه بالصحف في أشكالها اليومية ؟

ولن نجهد أنفسنا كثيرا هذه المرة ، بل سنكتفى بنقل عدد من التعريفات  
التي وردت بدراساتنا السابقة عن المجلة ، من تلك العربية أو غير العربية ،  
إن المجلة هي :

— « مطبوع دوري مصور أو غير مصور يحسوى موضوعات  
متنوعة » (١١) .

— « مطبوع دوري يتضمن كتابات لؤلفين مختلفين غالبا يصدر  
مصورا وبه عدد من الاعلانات » (١٢) .

— « المجلة كلمة اصطلاحية تعني دورية تتناول معارف ومعلومات متنوعة  
عن جانب أو جوانب من الحياة — إحدى الوسائل الهامة للاتصال بالجمهور —  
تأخذ من الكتاب حجمه ومن الصحيفة تنوع مايتها ومجاراة هذه المسادة  
لجوانب الحياة وسرعة حدوثها — وكلمة مجلة في اللغة العربية تعني قائمة  
بمجموعة من المعسارف وجمعها مجلات أو مجال ، ومعنى الكلمة باللغة

الانجليزية Review تعنى إعادة النظر فى شيء ما أو معاينة شيء ما واستعراضه « (١٣) » .

..... « مجموعة الصفحات العديدة المطبوعة بطريقة ما ، ذات الحجم الواحد ، الصغير أو المتوسط أو الكبير المثبتة ببعضها رأسيا ومن جانب واحد ، والتي تمثل وحدة من كل متتابع من مجموع له شخصيته ، يحيط بها غلاف فنى دال وملائم من ورق أكثر سمكا ، تصدر دوريا بثبات أسبوعية غالبا أو شهرية أو نصف شهرية أحيانا أو فصلية أو سنوية أو غير ذلك بمعرفة مالك أو جماعة أو هيئة أو شركة مساهمة أو مؤسسة ، مقدمة لجمهورها المتوقع العام و الخاص ، وفق امكانياتها وبما يتفق مع سياستها التحريرية وبأسلوبها الخاص ، الاخبار والموضوعات والقصص والاحاديث والدراسات والتقارير والمجريات والمقالات والمنكرات والحملات الصحفية ، أو مثيلاتها من فروع الفكر والعلم المتخصص ، مؤيدة بالصور والرسوم المختلفة وقطع الاعتاق ومواد الربط والاستكمال ، بهدف اعلام القراء وتوعيتهم وتنقيفهم وتعليمهم ومؤانستهم وتنمية مجتمعاتهم وتحقيق الربح للناشرين والعاملين ، وقد تكون فى أشكال ومضامين أخـــــرى ، تتوجه الى جمهور خاص ومحدود ، « (١٤) » .

● وإذا كانت التعريفات السابقة فى مجموعها تتجه الى « الوسائل أو « الأدوات » أو « الوسائط » ، وهى هنا الاعلامية الصحفية المطبوعة ، وإذا كان بعضها يتجه الى العمل الصحفى نفسه ، أو بعض جوانبه — بطريقة مباشرة ، فإن الصورة تكتمل — حتما — وتكون أكثر وضوحا ، وأقرب الى الفهم ، بتفاصيلها المختلفة — صورة الجاحظ الأديب الصحفى المجلاتى معا — . أو صورة الجاحظ الأديب المحرر ، أو صورة الجاحظ الكاتب الصحفى . . . جميعها تكون الى الجلاء أقرب ، عندما نتوقف مرة أخرى ، عند تعريفات أرباب هذه المهنة ، أو هذا الفن ، فما الذى يقال عن « الصحفى » . . . والذى هو مفتاح هذا العمل ، ولا صحافة بغير صحافيين ، تماما كما أنه لا أدب بغير أدباء ؟

إننا هنا نقدم تقسيما جديدا ، قد يكون الى طابع العمل أقرب ، ويتصوره أكثر جدارة ، فلن نلجأ هذه المرة الى المعاجم والمراجع وبوادر المعارف وحدها ، وإنما الى بعض « ما جرى » على الألسن ، وأصبح دليلا على العمل الصحفى ، كله أو بعضه .

● أما هذا النوع الأول من التعريفات التي تناولت الصحفي ،  
بأسلوب مباشر أو غير مباشر أيضا ، فهي تلك التي قالت ، أو قال أصحابها  
عنه :

فبعيدا عن المعاجم اللغوية التي تكاد تجمع على أن « الصحفي » بفتح  
الصاد والحاء ، هو من يخطئ قراءة الصحيفة — بمعنى الصفحة أو الورقة  
من كتاب — أي تلك الذي « يصحف » في قراءته .. بعيدا عن ذلك نجد  
تعريفات كثيرة من بينها :

— أن استاذة في الصحافة تعرفه بقولها باختصار شديد أنه « كل  
من يتخذ من الصحافة مهنة » (١٥) .

— وقد مر بنا قول المؤرخ دي طرازي : « والصحافيون القوم الذين  
ينتسبون إليها — أي إلى الصحافة — ويعملون فيها » .

— ويعرف القانون رقم ٧٦ لسنة ١٩٧٠ — والخاص بإنشاء نقابة  
الصحفيين — الصحفي بقوله :

« مادة ٦ — يعتبر صحفيا مشتقلا :

( ١ ) من يباشِر بصفة أساسية ومنتظمة مهنة الصحافة في صحيفة يومية  
أو يومية تطبع في الجمهورية العربية المتحدة أو وكالة أنباء مصرية أو أجنبية  
تعمل فيها ، وكان يتقاضى عن ذلك أجرا ثابتا بشرط ألا يباشِر مهنة أخرى » .

● لكن هناك بعض ما لم يقله هؤلاء في مجال التعريف ، وإنما  
جاءت كلماته عرضا ، بين سطورهم ، أو جاء بين سطور أخرى ، أو جرى  
على الألسن ، لكنه لا يبعد عن واقع الصحفي ، وعمله ، وفكره وأساليب  
وأنماط ذلك العمل ، وذلك الفكر كثيرا ، بل جاء بعضها أكثر صبرا ، ودلالة ،  
من تعريفات « مرجعية » كثيرة .. أي أن هناك — وما يرتبط بهذه الفئة  
الآخيرة من التعريفات نفسها — ما هو أكثر ارتباطا بموضوعنا ، وأكثر تعبيرا  
عن « صاحبنا » بشمولية فكره وتوجهاته ، نقصع عنها بعد قليل ، أو في

حينها .. ونكتفى الآن ببيان « قلة » من هذه الأقوال .. ان الصحفي أيضا هو :

- الرجل المكون من عدة رجال .
- الرجل الذي يجمع من كل بستان زهرة ، ومن كل بحر قطرة .
- رجل « التخصص العام » .
- نتاج عصره ومرآة بيئته .
- صورة عصره بكل صدق ونزاهة وتجرد .
- نبض أمته .
- كتاب عصره .
- شاهد على عصره بمن فيه وما فيه .

الى غير هذه كلها من تعريفات « اجرائية » او « معملية » غير مباشرة ، نتوقف لمناقشتها ، مع غيرها من تعريفات واقتوال سابقة ولاحقة ، بعد قليل ، لنقرر أين تقف من موضوعنا ؟ وأين يقف الرجل منها ؟

### عن الأدب الصحفي

● وتبقى بعد ذلك كلمة قصيرة عما أطلقنا عليه تعبير « الأدب الصحفي » .. ، فبالإضافة الى الكلمات القليلة التي وردت ضمن السطور السابقة عنه ، فأننا نحدد هنا بعضا مما يمكن ويجوز أيضا اعتباره من بين ملامح هذا النتاج الصحفي المتميز .

— فالبحث عن الأخبار يكون له طابعه ، وعملية البحث والانتقاء تكون مجالا لاستخدام المواهب المتميزة ، بطرقها وأساليبها التي لا تخلو عند بعضهم وليس عند الجميع - من الهام وابتكار .

● وإذا كان تحرير التوقيعات القصيرة ، أو « الرقع » أو « الوصايا » أو « الحكم والأمثال » يعتبر ضربا من الأدب ، فإن مثله هنا - على المستوى الصحفي - يعتبر تحرير العناوانات بأنواعها ( المفتاحية الاشارية والرئيسية والفرعية وعناوانات الفقرات ) .

● ثم ان بلاغة الأسلوب الأدبي ، تصدىق هذا أيضا ، في مجال كثير من وحدات « النص التحريري الصحفي » .

أو ليست البلاغة هي وكما قال نفر من علمائها — بالاضافة الى ما سبقت الإشارة اليه — .

« لمحة دالة — اختيار الكلام وتصحيح الأقسام — وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة — القوة على البيان مع حسن النظام — اهداء المعنى الى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، . . . الخ .

نحن أيضا نقول بذلك عندما نتناول « الأسلوب الصحفي » خاصة في مجال تحرير هذه « الوحدات الفنية السابقة » . العنوانات ، وكذا « المقدمات » و « النهايات » بأنواعها تماما كما أنه اذا كان لابد من الاختصار والتركيز عند كتابة بعض « النصوص الأدبية » ، أو « الاسهاب » عند كتابة البعض الآخر منها ، فاننا نتبع ذلك أيضا في بعض « النصوص التحريرية الصحفية » . « فالأخبار الصغيرة » قليلة العبارات ، قليلة عدد الكلمات « تلغرافية » الأسلوب ، موضوعية . . عملية . . وظيفية اللغة ، ومثلها تقريبا وإلى حد ما « الأخبار المتوسطة » . والأعمدة ، أو مقالات الأعمدة ( نتحدث هنا عن فنون وأنماط ولا نتحدث عن وحدات تحريرية فقط ) . ومثلها كذلك بعض الموضوعات الاخبارية وكلام الصور والتعليقات القصيرة وما يجرى تركيزه أو « ضغطه » . وذلك فن أيضا ، من تناولات ومترجمات وخطابات للقراء ومقالات مسببة لقراء لا يحتملها الحيز المتاح .

ذلك كله عن القليل الذي يدل على الكثير . . وأما الاسهاب في موضعه فهناك ضروب الاسهاب الصحفي العديدة ، لو كان الأمر يتطلب ذلك ، أو كانت المساحة المتاحة من فراغ الصفحات تتطلبه أو تسمح به ، أو كان الوقت المتاح يعين عليه . . ولا يقتصر الأمر هنا على التقارير والتحقيقات والحماسات والدراسات والمآجريات ، تلك التي تنشر أحيانا على أكثر من صفحة واحدة ، من الصحيفة اليومية العادية ، وعلى ملزمة كاملة — ١٦ صفحة — من المجلة ، أو تكون في حلقات يستمر نشرها يوميا أو اسبوعيا على صفحة أو أكثر ، لعدة أيام أو لعدة أسابيع ، بالنسبة للصحف اليومية أو الأسبوعية ، أو

صحافة المجلة ، أضف الى ذلك بعض المترجمات والمقالات التحليلية والخطب وما اليها . .

أقول ، لا يقتصر الأمر على ذلك كله ، وإنما يمتد أيضا ، حتى الى هذه الأخبار الصغيرة وربما الصغيرة جدا ، والمركزة ، فإن بعضها يمكن أن يكون مختصرا لخبر كبير تم « ضغطه » أو نشر على حالته في طبعة ما ، لأنه مما يهم قراء منطقة معينة ، بكل تفصيلاته وأركانه وزواياه ، ثم نشر « مضغوطا » في طبعة أخرى لا يهتم قراؤها بغير المعرفة السريعة به ، وهكذا .

وباستطاعة القارئ على أمر صحيفة تصدر في عشر صفحات مثلا ، أن يسهبوا وأن يضيفوا حتى تكون في أكثر من ضعف لهذا العدد .

— ومثلما يبدع الأديب في اختياره لفكرة مقالته الأدبية ، أو صورته القلمية ، أو انتقاء أشخاص قصته ، أو نماذج مسرحيته ، فإن ابداعا مماثلا يقوم به الصحفي الممارس والخبير — وليس أى صحفي — من أجل العثور على الفكرة المناسبة ، الجديدة ، الطازجة التي لم يسبق اليها أحد ، أو العثور على الزاوية الجديدة التي يتناول من خلالها الفكرة الثيمة أو المطروقة . . . وعندما يعثر المحرر على مثل هذه الفكرة ، فإنه يحق لنا أن نقول أنها تدخل ضمن باب « الأدب الصحفي » .

● وبعض الموضوعات والتقارير وكثرة من التحقيقات وأغلب المقالات ، وبعض جوانب القصص الصحفية ، والأحاديث ، هذه كلها يمكن أن يتدخل « الإبداع » فيها ، ويلعب « الإلهام » دوره في ممارستها من أول الاختيار ، حتى كتابة آخر حرف فيها ، بل وحتى اختيار الوقت الأمثل لنشرها ، أو أكثر الأوقات مناسبة لذلك العمل .

● ثم يبدو « الأدب الصحفي » بعد ذلك كله ، وربما أهم من ذلك كله وقبله ، في تلك الأمور المتصلة بجوانب التحرير نفسها ، ففضلا عما يتصل بالاختصار والتركيز في موضعها وهو أدب ، أو الإصهاب في موضعه ، وهو أدب أيضا ، فإن هذا اللون من الأدب الصحفي يتجلى هذه المرة في أكثر من صورة من بينها على سبيل المثال :

● الإبداع في اختيار أفكار العناوانات والمقدمات والنهايات .

● جانب « الحسن الصحفي الفني » في اختيار العنوان والمقدمة والنهاية التي تكون أكثر مناسبة لموضوعاتها من أنواع هذه الوحدات المختلفة .

● وبالمثل يكون « الأسب الصحفي » متمثلاً في حسن وثقة ونجاح اختيار القالب الفني الأكثر ملاءمة لصياغة مادة تحريرية أو أخرى ، أن كان لابد من استخدامها .

● ثم هو يتمثل أكثر فيما تقدمه المواهب من أنواع عناوانات ومقدمات ونصوص ونهايات جديدة ، ابتكارية ، غير مسبوقة ، أو قليلة أو نادرة الاستخدام ، أطلق عليها بعضهم - في مجال قوالب الصياغة فقط - تعبير : « القوالب غير الفنية » لأنها تخرج عن المألوف استخدام من جانب كثرة من المحررين ، وأقول أنها الأكثر فناً والأكثر إبداعاً .

● ثم هناك بعض « الفنون » و « الأنماط » الصحفية الكاملة ، التي تحتاج مع تتابعها أو مع تتابع تحريرها من أن لآخر ، ومن يوم إلى يوم ، تحتاج إلى قدر غير قليل من الذوق الأدبي ، والحسن الأدبي ، . . . وهكذا فإذا كنا قد أشرنا إلى أن ما نطلق عليه في مؤلفاتنا « الوحدات الفنية التحريرية » تحتاج إلى جانب من جوانب الإبداع - كوحداث فقط - بينما نشترط الفكرة الجديدة أو التناول الجديد للفكرة بالنسبة لبعض الفنون والأنماط لاسيما الموضوعات والتحقيقات والتقارير والمقالات الصحفية . . . فإن بعض الموضوعات والتحقيقات والصور القلمية الصحفية والتقارير المصورة تأخذ بقدر طيب ومعقول من هذه « اللمسة » الأدبية الفنية الصحفية معا ، كل ذلك بينما نجد - مع تتابع الأعمدة ومقالات الخواطر والتأملات ومقالات الفقرات أو اليوميات الصحفية - نجد بعضاً منها مما تزيد فيه الجرعة الأدبية ذاتها ، عن الجرعة الصحفية ذاتها ، ومن ثم تمثل - بذلك كله - هذا الأدب الصحفي الذي نتحدث عنه . . .

ولعله مما يثبت صحة ذلك، أن كاتب هذه النوعية الأخيرة ، أو محررها ، يكون في بعض الأحيان من هؤلاء الذين دخلوا الصحافة من باب الأدب ، أو دخلوا الأدب من باب الصحافة ، فهم من الصحفيين الأدباء ، أو هم من

الأدباء الصحفيين ، وحيث نجد أنفسنا أمام طائفة جاحظية جديدة ، تمت الى رجلنا ، أو تمت المادة التي تكتبها بصلات عديدة وعلى الرغم من « معاصرتها » .. الى المادة الجاحظية ، أو الى التراث الجاحظي ، بكل أصالته ، وتنوعه ، وتعدد مجالاته ، وأساليب بلاغته .

● حتى الصورة نفسها التي يمكن أن تصاحب كل ذلك ، وهي هنا الصورة الصحفية الملتقطة بواسطة الكاميرا - هي ، وكما أطلق عليها عدد من رجالها .. « أدب بصرى » .. نسبة الى البصر هنسا وليس الى مدينة البصرة ، التي سيرد ذكرها خلال الصفحات القادمة لكن ما يتبعها في أحيان كثيرة ، أو يشرحها أو يضيف إليها ، أو يتناولها أو يعلق عليها يمكن أيضا أن يقترب من هذا الأدب الصحفي ، عند بعض المحررين الحريصين على التفرد وعلى الامتياز وهكذا .

● وهكذا تجد صوراً ولسات من هذا الأدب الصحفي ، تلك التي تتجه الى معالم الابداع في جانبين أساسيين هما :

( ١ ) ما يتصل بالفن الصحفي في مجموعه عامة ، ويجوانب فن التحرير خاصة .

( ب ) ما يتصل بتلك الوحدات أو الأجزاء أو القوالب ، أو الأنماط الكاملة التي يضيف عليها محررها قدراً من الأدب والذوق الأدبي ، قل أو كثر ، ويقدمه ممزوجاً بالحس الصحفي والذوق الصحفي ..

من هذا المزيج المتكامل من المادة الصحفية ذات المضمون الموضوعي المرتبط بالواقع الصحفي ، أو المتصل به أو المنفرد عنه ، بطريقة من الطرق ، أو بشكل من الأشكال واللمسة أو الجرعة الأدبية التي تغلفها أو تصرى في جنباتها وبين سطورها وكلماتها .. يتكون هذا « الأدب الصحفي » .. الذي أطلق عليه بعضهم تعبير « الأدب الموضوعي » ونرى أنه يشمل ذلك الأدب الصحفي وغيره ، ومن ثم فانه عندنا ، أدب صحفي .. لأنه لا يركز على جوانب ذاتية ، قدر تركيزه على جوانب موضوعية وواقعية ومجتمعية .

● قبل أن نضع هذه الأفكار السابقة كلها في ضوء التناول الخاص

من زاوية صلتها بموضوع التراث الجاهلي ، نتوقف برهة لنقدم تبسيطا وتلخيصا لها ، لعله يكون أكثر مدعاة لتوضيح ما نريد ، وما نحرص على وضوحه .

ان باستطاعتنا ان نقول ، ان هذه التعريفات السابقة في مجموعها ، ما نكر منها عن الصحف ، وما قيل فيها عن المجلات ، وما اشار في كلماتها الى « العامل البشري » يمكن ان نوجزها ، وأن نستنتج منها أيضا ، هذه النقاط كلها :

( أ ) من حيث الصحيفة ومادتها ( المحتوى التحريري ) :

ان الصحيفة اليومية أو الأسبوعية ، هي تلك الأوراق المطبوعة التي تحمل الى الناس يوميا ، أو بصورها في أكثر من طبعة واحدة يومية ، أو أسبوعية ، وبمعرفة أعضاء أسرة تحريرها وبأقلامهم ، ويعرضات مصوريها ، ويجهد القننيين والعمال بها ، ما ينبغي أن تحمله الى هؤلاء من تسجيل للأحداث المهمة ونقل الوقائع والتفصيلات المرتبطة بها وتقديم المعلومات والبيانات المفيدة وثبت ظواهر الأنشطة والمشكلات وعرض وتفسير ومناقشة الأقوال والتصريحات والأفكار والآراء والاتجاهات والمواقف والقضايا والحلول ذات النفع ، وكذا البحوث والدراسات والمادة الأنبيية المختلفة ، والتعبير عن ذلك كله تعبيرا صحيحا مناسباً للقراء ، بواسطة لغة صحيحة ، تختلف أحيانا من مادة لأخرى ، لكنها تكون في شكل عمل فني صحفي ، يمثل رسالة موجهة الى القراء في الوقت المناسب .

( ب ) من زاوية المجلة ومادتها ( المحتوى التحريري وأهم مواده ) :

وأما المجلة ، أسبوعية أو نصف شهرية أو شهرية أو فصلية ... إلى غير ذلك كله فهي — من زاوية المحتوى — تختلف من واحدة لأخرى ، حسب نوعيتها وطابعها العام وطبيعة قرائها وسياساتها التحريرية والهدف من إصدارها ، لكن أهم موادها المشتركة ، التي تتفق عليها كثرة من المجلات هي :

— التحقيقات الصحفية المصورة ( عامة مشوقة — مشكلات — دراسة صحفية ) .

- التقارير المصورة •
- الأحاديث الصحفية •
- الأخبار البحثية من نوع أخبار المجلة •
- الموضوعات الاخبارية •
- القصص الصحفية •
- المقالات العامة •
- المقالات الفكاهية والكاريكاتورية •
- مقالات التخصص العام •
- افتتاحيات المجلة •
- مقالات النقد الأدبي •
- الماكرات الهامة •
- العمود الصحفي •
- اليوميات •
- القصص •
- مواد التسلية والامتناع الذهني •
- الأبواب والأركان والأجزاء الخاصة •

#### ( د ) عن الصحفي وطبيعة عمله ( أنواع من المحررين ) :

ان ذلك يعنى — بطبيعة الحال — أن العمل الصحفي ليس صورة واحدة فقط ، أو لا يأتى فى شكل واحد فقط •• خاصة اذا نظرنا الى الاختلاف القائم بين صحيفة وصحيفة وصحيفة ومجلة •

فصحيح أن العمل الاخبارى — جمع الأخبار وتحريرها — يأتى فى المقامة من هذه المهام ، وصحيح أيضا أن المندوبين هم من أبرز أعضاء أسرة التحرير ، انطلاقا من أهمية الأخبار نفسها لكن هناك أيضا من المحررين من يعتمد عليهم ويمثل كل منهم إحدى القواعد الهامة فى العمل وركيزة من ركائزه ، ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر ، وحيث تكاد أعمالهم تقترب — بشكل أو بآخر — من النشاط المتميز لرجلنا ••

١ — محرر التحقيق الصحفي ومن أهم أعماله جمع المادة من مختلف مصادرهما والمقارنة بينها واستخلاص النتائج واتخاذ المواقف •

٢ — محرر التقرير الصحفي الذى ينتقل الى المواقع ليكتب ما يرى وما يسمع مدعما بالصورة •

٣ — محرر الحملة الصحفية على وجه من وجوه السلب أو من يمثله ، أو بالدعوة الى جوانب الايجاب •

٤ — محرر الدراسة الصحفية فى جانب من جوانب الأهمية الاجتماعية أو الثقافية أو غيرها •

٥ — المحرر العلمى ، برصيده المتميز الذى يحصل عليه من هنا وهناك واضعاً له فى خدمة القارئ ، بكل ما يقدمه من معلومات عن موضوعه •

٦ — الناقد الأدبى والفنى برؤيته الدقيقة ، وحسه النقدى المتميز ومتابعته لموضوعه •

٧ — محرر المقال ، بأنواعه المختلفة ، بحسه النقدى الجماهيرى الأدبى الواقعى معاً •

٨ — المحرر المراجع ، بقدرته على تقديم الشكل الأمثل والمضمون المناسب وعلى الاختصار والتركيز •

● ● وأخيراً — وليس بآخر — نقول :

إن كانت هذه هى الصحافة فى أبرز جوانبها — ولا أقول كلها — وإن كان هؤلاء هم الصحفيون ، مع تركيز شديد على بعض نوعياتهم من المثاقين ، من الباحثين والدارسين والكاتبين ، وليس على أى صحافى منهم ، وإذا كانت هذه بعض طبائع العمل الصحفى الذى يقوم على البحث وجمع المادة والتأكد من صحتها ، ومن مختلف المصادر ، وإضافة الجديد المتتابع إليها ، مع تنوع كامل ، أو « تخصص عام » وإن صاحبه أحياناً بعض جوانب « الاهتمام الخاص » ، ومع أسلوب بليغ ، وإن كانت بلاغته تتجه إلى صور واقعية وعملية •• إلى غير ذلك ، فأتين يقف الجاحظ منها ؟ وما هو موقعه على خريطةها ؟ وماذا يعنى بخصائصه الفريدة ، بالنسبة لهذه النقاط ، وبغيرها ولأكثر منها ؟ ذلك ما تقرره السطور التالية ••

## ● ● هوامش هذا الفصل :

- (١) على فتحي يونس وآخرون : « أساسيات تعليم اللغة العربية » ص ٢٢٠
- (٢) طه ندا : « الانب المقارن » ص ١١ .
- (٣) بدوى طبانة : « علم البيان » ص ٦ .
- (٤) محمد غنيمي هلال : « الانب المقارن » ص ١١ .
- (٥) أبو الحسن على بن اسماعيل بن سيده : « الخصاص » مجلد ٤ ص ٦ .
- (٦) عبد العزيز الفنام : « متخل فى علم الصحافة » ص ١٢ .
- (٧) خليل صابات : « وسائل الاعلام نشأتها وتطورها » ص ٤٧ .
- (٨) خليل صابات : « الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم » ص ١٢ .
- (٩) محمد سيد محمد : « الصحافة بين التاريخ والانب » ص ٧ .
- (١٠) لجلال خليفة : « الصحافة » ص ٢ .
- (١١) حسين سعيد وآخرون : « الموسوعة الثقافية » ص ٨٨٦ .
- (١٢) تعريف La Roussee المصور طبعة ١٩٧٢ ص ٢٥٧ .
- (١٣) لجلال خليفة : « الصحافة » ص ٧٧ .
- (١٤) محمود أدهم : « التعريف بالمجلة » ص ٢٧ ، ٢٨ .
- (١٥) لجلال خليفة : « الصحافة » ص ١٧ .



## الفصل الثاني

### معالم جاذبية

( الجاذب )



وقبل أن نعد الراكب ، أو نقوم بتجهيز قاربنا ، تمهيدا لرحلة في بحر « أبي عثمان عمرو بن بحر » الملقب بالجاحظ - لبروز في حدقتي عينييه اجظهما ، أي خرج بحدقتيهما قليلا الى الأمام - مما جعل البعض يخافونه ، وبعض « الكبراء » لا يرحبون به في مجالسهم على الرغم من علمه وأدبه ، لأنه وإن كان يزينها بهذين ، إلا أنه لا يزينها بدمامته تلك التي « سخر » منها هو نفسه كثيرا ٠٠٠ قبل أن نقوم برحلة مع تراثه ، أو نقحم بمثل هذه الأفكار ساحتها ٠٠ فأننا نتوقف قليلا عند عدد من « المحطات » أو « معالم » الطريق الى هذا التراث ، أو هذه الساحة ، نحاول أن نلم فيها ببعض مكونات شخصه وإن تطوف بالأسس والقواعد التي يستند إليها ذلك البناء الشامخ المتمثل في هذا النتاج الغزير كله ، الذي قدمه الرجل ، والذي نزع أن بعضه كان نتاجا صحفيا ٠٠

لكننا - بالطبع - لن نقتصر على مجرد الوقوف عند هذه المعالم ٠٠ أو مجرد التعرف عليها واستجلاء أثرها في تكوين هذا التراث المتعدد الجوانب والمعارف والمؤلفات والرسائل والصفحات ، وإنما سنحاول قدر الطاقة - أن نقيم بينها وبين موضوعنا جسرا نعبه معا ، ليساعدنا على الاقتراب أكثر ، مما نتوجه به من أفكار خاصة ليس بالجاحظ الأنيب فقط ، وإنما من زاوية صحفية أيضا ، إن هذه العلامات ، وما يصل بينها من جسور ومعايير ، هي طريقنا الى ذلك كله ، ومن ثم نقول عنها ، أو - حتى نكون أكثر دقة - عن أهمها فقط ما يلي :

## « نتاج عصره »

هل هناك عصر يفضل عصرنا في صنع الرجال ؟

إننا لن ندخل في مناقشات فلسفية عديدة ، كتلك التي نقول - مثلا - أن الزعيم مطبوع أو مصنوع ، أو أن الجندي الماهر يصنعه - أو لا يصنعه - القائد الماهر وما الى ذلك كله ، ولكننا نتوقف قليلا عند بعض العصور التي ساهمت وساعدت بأحداثها على ظهور طائفة من قادة الفكر والرأي والأدب والعسكرية ٠٠

إن « الحروب » تطعم الرجال ، وإن الأحداث تعركهم ، وإن المواقف

تدعم من قوتهم وصلابتهم ، وإن التجارب العديدة ، بحلوها ومرها ، وخيرها  
وشرها تبرز هؤلاء ، وتفصح عن مكنوناتهم ، وتخطب مواهبهم ، بل إن هذه  
الأحداث الجسام نفسها ، والوقائع العظام ذاتها لتستحثهم على العمل ،  
وتدعوهم إلى ركوب الصعاب ، وتستغفر همهم ، وقد تستقزمهم أيضا ،  
فيعمدون إلى مواجهة التحديات ، وإلى العمل على تغيير الواقع ودمغه إلى  
الأمم عدة دفعات ٠٠ ومن هنا فإن هؤلاء تصبرهم الأحداث في بوتقتها ،  
وتعيد - في أوقات كثيرة - تشكيلهم و « ضخ » دماء جديدة في عروقهم ٠٠

لكنهم - وهو مهم أيضا - لا يكتفون بمثل هذا التأثير ، ويصـسـوره  
المختلفة ، وإنما يجعلون نتاجه بدوره مؤثرا ، وحصاده مغيرا ، لما حولهم  
من مواقع ومجتمعات وأفكار وخطط ومواقف واستراتيجيات ، تقدم صورا  
جديدة ، قد يدفع بعجلة الأحداث والتاريخ نفسها من حالة إلى حالة ٠٠

انتا تقدم هنا - وعلى سبيل المثال لا الحصر - هذه الصور كلها لزعماء  
وقادة ومفكرين وفنانين ، كانوا نتاج عصورهم ، ثم عادوا يؤثرون في مسيرة  
أمتهم ، ويفتحون أمامهم أبواب عصر جديد :

● قالبطل المصري « أحمدس » ١٥٩٠ - ١٥٤٥ ق م ، بطل معركة  
التحرير ضد الهكسوس أو « ملوك الرعاة » ٠٠ كان نتاجا للحالة السيئة التي  
وصل إليها الشعب المصري الذي كان يعاني من اضطهاد المحتل وجسوره  
فتار على ذلك وقاد مواطنيه إلى التحرير والنصر ، حتى طارد هؤلاء إلى  
موطنهم الأصلي ، ووضع حجر الأساس لامبراطورية مصرية قوامها جيش  
الشعب ٠

● والداهية السياسي الألماني « بسمارك » صهرته البوتقة السياسية  
الأوربية وصراعات الملوك والأمراء وعركته مشاكل السياسة ، حتى انتجت  
« الرجل الحديدي » الذي حير أوربا وأسقط عروشها وخلع قلوب برلمانيين  
وصنع معارك ، حتى وحد ألمانيا بالقوة ، وأنشأ أول امبراطورية ألمانية ، وكان  
ساسة أوربا وقادتها يرتعون لجرد ذكر اسمه ٠

● والرحالة البندقي « ماركو بولو » كانت تربيته البحرية ، ورحلاته  
منذ صغره ، وراء حبه للترحال ، الذي أسفر عن عدد من الكشوف الجغرافية  
التي أفادت منها البشرية كثيرا ٠

● بل أن الدماء التي جرت في ساحة الثورة الفرنسية لا يمكن فصلها عن بروز رجل مثل « رويسبير » دموى النزعة ، تخلص من منافسيه جميعا وزرع « عهد الارهاب في فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر .. »

● والظروف القاسية من سجن وعذاب وتشريد ، كانت وراء هذه الاتجاهات الانسانية والنفسية التي حفلت بها مؤلفات « ويستوفيسكي » التي عكست تماما أحداث عصره وتأثيرها عليه لاسيما في رواياته : « المساكين — منزل الأموات — الجريمة والعقاب ، وغيرها . »

● والقضية المصرية وحاجتها الى مصام قدير يدافع عن الحق والسيادة الوطنية كان لها دورها في اتجاه شعلة الوطنية « مصطفى كامل » نحو دراسة القانون ، فالتحق بمدرسة الحقوق ليكون هذا المدافع بالصوت والقلم ، في قضية الوطن الكبرى .

● والمؤلف الموسيقي الألماني الكبير « بيتهوفن ١٧٧٠ — ١٨٢٧ » كان المناخ العام الموجود حوله دافعا له الى تعلم الموسيقى ، ليصبح من أشهر الموسيقيين في التاريخ وليتم رسالته رغم أصابته بالصمم ، وليصبح « الأستاذ » كما يطلق عليه عن حق وجداره .

● والأحداث التي تعرض لها الوطن العربي في حربه مع الروم ، كانت ذات أثر بالغ على مسيرة وشعر رجل مثل « أبي فراس الحمداني » ، لا سيما أحداث أسره ، والمؤامرات التي كانت تحاك ضده وضد ابن عمه « سيف الدولة » ..

● وإذا كان رواد الصحافة العالمية ، مدينون أيضا لعصرهم بأحداثه ورجاله ومخترعاته وحروبه وفتنه ومؤامراته ، تلك التي كان لابد من تناولها ، وتقديمها للناس — عامة القراء — في شكل أخبار ومادة اخبارية وما يتفرع عنها .. وحيث تحضرنا هنا أمثلة لأسماء عديدة صنعتها الأحداث ، أو صنعت صحافتها نفسها بكل ما ظهر على صفحاتها من أفكار وقضايا ومواقف واتجاهات وآراء عبرت عنها الكلمات والصور .. ثم عادت هذه تؤثر في مسيرة مجتمعاتها ، وكان من بين هؤلاء ، على سبيل المثال لا الحصر .

« جون بيتر زينجر — دانيال دينو — رقاعة رافع الطهطاوى — الشيخ

محمد عيده - عبيد الرحمن الكواكبي - جيمس فراكليين - جيمس "ج" بنيت - أمين الرافعي - أحمد حلمي - المويلحي الكبير - جوزيف بوليتزر ،  
الى غير هؤلاء جميعا .

وحيث نقول هنا ، ان فترات الهدوء الكامل ، والواقع المستقر ، لا تصنع اخبارا ، ولا تقدم مادة اخبارية ، حيث تكون هذه وكما اطلقنا عليها من قبل ، فترات « الركود الاخباري » .

لكن ، ليس شرطاً تاماً ان تكون هذه الأحداث حروباً كبيرة على الحدود ، او بين اكثر من بلد واحد ، او تسيل فيها الدماء دائماً ، وانما يكفي ان تكون من نوع الأحداث المحركة لسطح المجتمع ، المثيرة لجنتاته ، المغيرة لاسماقه ، المؤرقة لأبنائه ، التحدية لهدوئه ، المقلقة لراحة افراده .. وحتى ان كان السطح نفسه هادئاً مستقراً ، يعيش بلا صخب ولا ضجيج ، فقد يخفى تحته بعض اسباب التوتر والتحرك القلق للأحداث نفسها .

● بل ان ذلك ليس وفقاً على الصحافة ، وصناعة الاخبار والموضوعات والقصص والتحقيقات والأحاديث والمجريات الصحفية وحدها هذه التي تكون الأحداث مايتها ومداد اقلام اصحابها ، وانما وينفس القدر ايضا ، وربما بأكثر منه أحيانا ، تكون صورة أدب فترة معينة .. او يكون أدبها من نفس جنس هذه الأحداث ومن نفس لونها ، ومن نفس طابعها كله .. بل وقد يكون دافعا الى تغيير الصورة تغييراً كاملاً .. ولن تجهدنا أسماء هؤلاء الأدباء يتتبعهم كثيراً .. فهم من مثل من ذكرنا ، وغيرهم كثير كانوا صوت عصرهم ، ومראה أحداثه ، ومسجله ، وكتابه وديوانه ايضا .. وخذ عندك هذه الأسماء فقط ، وما قدمت الأحداث المعاصرة لها ، وما انعكس في شعرها عنها ، في العصر الجاهلي وحده .. وحيث نجد عندنا أمثال هؤلاء :

« عمرو بن كلثوم ، علقمة العبيسي - زهير بن أبي سلمى - ثابت شرا »  
وعيرهم ..

وحيث نقول هنا أيضا ان فترات الهدوء والاستقرار قد تصنع أدبا ، وهي تصنع فعلا ، لكنه يكون في معظمه أدبا لتزجية الفراغ ، تنثر وروده على عنبات البعض ، وتغرد أطياره في مواكبهم ، ويكون بقدر المنع والعطايا ..

هكذا يكون في معظمه وقد يعيش بعضه ، وقد يخلد قليل منه لجوانب الجمال والابداع فيه ، لكنه مع ذلك لا يعبر كثيرا عن واقع شائك ومحتدم ، عن سخان معارك ومثار قضايا وصراع فكر .. بل انه ليغطي فيه الخيال والأسلوب على الواقع ومخاطبة العقل ، وما كان صاحبنا كذلك ..

أردت بهذه المقدمة الطويلة أن أقول أن الجاحظ كان نتاج عصره ، أديبا وصحافة وأنه كما يكون الأديب صورة ذلك العصر ، والصحفي محصولتها ، فقد كان « رجلا » أيضا وهو من هذه الزاوية يعتبر أديبا وصحفي معا ، بكل ما أكد انه نتاج عصره .. ولكن كيف ؟

● أما العصر المؤثر والمتأثر فهو « العصر العباسي » فإذا شئنا أن نحدد على طريقة مؤرخي الأدب ، فهو « العصر العباسي الأول » . ذلك الذي يبدأ منذ قيام الدولة العباسية ، بعد الحروب المستمرة بين الجماعات الشيعية والأمويين ، تلك التي انتهت بانتصار هذه الجماعات ، وفرار عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » إلى الأندلس ليؤسس هناك دولة أموية أندلسية جديدة استمرت قائمة نحو ثلاثة قرون .. فإذا شئنا أن نكون أكثر تحديدا لقلنا أن الرجل قد ولد عام ٧٧٥ م - ١٥٩ هـ أي بعد قيام هذه الدولة بحوالي ١٧ عاما فقط بمدينة البصرة .. تلك التي كانت « نافذة عربية » على العالم الشرقي المعروف في ذلك الوقت ، خاصة بلاد فارس والهند ، كما أنها التي تقع على طريق الكوفة ، التي لم تكن نار ثورتها قد خمدت تماما بعد بل كان وميضها يتأجج أحيانا من « خلل الرماد » ، فترفع بذلك راية العصيان ، وكما حدث أكثر من مرة ، مما دعا « أبو جعفر المنصور » إلى ترك « الهاشمية » عاصمة أبي العباس السفاح ، واتخاذ قرية صغيرة تقع على الضفة الغربية لنجلة ، لتكون عاصمة له ، وحاضرة لدار الخلافة هي « بغداد » .. تلك التي سرعان ما أصبحت ولقرون طويلة ، أهم مدينة في العالم الإسلامي .

وبينما كان « صاحبنا » يخطو خطواته الأولى على مدارج الصبيا ، منتقلا بين حدائق البصرة ، وقنواتها تلك التي تشبه قنوات « البندقية » ، وبينما كان يعدو من بستان إلى بستان ، ومن حي إلى حي ، وعتها بعد ذلك ذاكرته وصورتها بأكثر من طريقة .. كانت الأحداث حوله أكثر عنوا ، وأكثر سرعة ، كانت معالم حضارة جديدة كاملة ، قد بدأت في الوضوح ، كانت ملامح عصر جديد ، مخالف ، خصيب ، نام ، متطور مؤثر .. قد أخذت

نشق طريقها بصراحة وبقوة معا ، بينما كان الصبي يتيم الأب جاحظ العينين طموح العواد عزيز النفس يجمع بين بيع الخبز والسمك لطلب الرزق من جانب ، وبين التردد على « الكتاب » وبعض دكاكين الوراقين ، ثم بعض مساجد المدينة المتلاثة بنور الدين والعلم والأدب ، من جانب آخر ، كانت الصورة من حوله ، تتحدث بتلك الوقائع ، وتكلم بمشاهد التغيير ، بل كان ضجيجها يكاد يعلو على أى ضجيج آخر ، فى العالم المعروف وقتئذ - قرب منتصف القرن الثانى للهجرة - وكانت هذه لقطات سريعة من جوانب وزوايا هذه الصورة نفسها .

● فالانفتاح الفكرى الثقافى والتجارى يعضى على أشده خاصة على بلاد فارس ، وكان هناك حضرة أخرى تشترك مع بغداد المدينة الكبرى - ليست القرية المسيحية الصغيرة - فى سياق حول هذا الانفتاح ، لاسيما على الحضارة الفارسية ، أيهما ينهل ويغترف وينقل ويترجم أكثر ، ولو حاولنا أن نقوم بحصر لعشر معشار ما كان يجرى فى هذه الميادين كلها ، لما كفانا مثل هذا الكتاب ، ويكفى أن نقول أن نظاما بأكملها ولوائح فى معظمها ، ومكتبات فى مجملها ، ومئات الصور الحضارية الأخرى ، جميعها نقلت ، شكلا ومضمونا ، نواوين ووزارات وكتب ومعمار وفرش ورياش وزخارف وأطعمة ومشروبات وضروب جد ولهو ، وملابس وحجاب وعبيد وقيان وحفلات وتقاليد جديدة وفنون جديدة ، جميعها نقلت إليها ، ومرت بالبلاد العراقية الأخرى ، واستقرت فى معظمها أو انتقلت إليها العدوى البغدادية نفسها .

● وحتى هذه العاصمة الجديدة نفسها ، فقد تجمع من أجل إقامتها وتشبيدها ومن أجل عمارة أحيائها وقصورها وشاطئها وحدائقها ومنازلها مئات من المهندسين والوف من الصناع والحرفيين والفنيين من كل المسنن العراقية والفارسية معا بل وجمع لها كل غال ونفيس ونادر مما حوته قصور « الأكاسرة » وانقاضها ، من « المدائن » . تلك التى أصبحت انقاضا ، تنعى من بناها ، أو ينعى اليوم بها ، لتقوم بدلا منها ، وترتفع عوضا عنها قصور الخليفة والوزراء وأثرياء التجار وقادة الجند وما اتصل بها من حدائق وبرك مياه وناقورات مختلفة الألوان والأشكال .

● وكانت دولة متسعة الأطراف، أو كما يقول علماء «الجيوپولوتيك» دولة « عملاقة » بمقاييس هذه الأيام تمتد أطرافها من كشمير وبعض

مناطق الهند وفارس شرقا حتى أقصى بلاد الشام شمالا ، وإلى المحيط الأطلسي غربا ، أى أنها تكونت من حضارات عديدة وشعوب عديدة ولغات عديدة وتقاليدها عديدة أيضا ، وكان هذا الاتساع مصدر ثراء وترف ، لكنه أيضا كان مصدر صور ومشاهد وعادات جديدة ، كما كان كذلك مصدر كثير من القلق والفتن التى أزعجت الدولة والخلفاء كثيرا ، وحيث كان عليها من هذه الزاوية أن تدفع الثمن من أمنها واستقرارها ، لاسيما وقد استعانت فى القضاء على الثورة ضدها ، بخير العنصر العربى .

كان الصيبي كبير ، وتواصل أمام عينيه وعلى مسمعه هذه الصور كلها ، وتزداد حجما واتساعا ووقعا واثرا وتأثيرا . . . وإذا كنا هنا لم نتوقف عند الجانب الثقافى لهذه المشاهد كلها فما ذلك الا لأننا سنعود إلى رؤيته وتتبعه فى مواطن أخرى ، أو فى أكثر من موطن آخر . .

المهم ، رجل كانت هذه نشأته ، وتلك هى الصور والمشاهد التى وقعت أمام عينيه ، فراحنا تتابعانها بحس الأديب ، وفكر الملتقط الماهر بل راحت نفسه وراح عقله وراح عينه وراح فكره ، جميعها تنقلها وتبقىها فى الذاكرة ، أو تخلط بين أطرافها ، وتجمع بين خيوطها ، لتكون منها صورا ومشاهد أخرى ، معظمها واقعى عقلى ، لأنه يقوم على الرؤية والمشاهدة والتتبع والالتقاط ، فقويت بذلك عنده حاسة الصحفي والأديب معا . . . فما هى الأحداث أمامه ، بعضها واضح وبعضها الآخر غامض ، بل وشديد الغموض أيضا ، وبعضها معروف ، ومتابع ، وبعضها الآخر غير معروف يحتاج هو أو تحتاج معرفته إلى بحث وراء بعض خيوطه أو لاستجلاء بعض معانيه ، أو من أجل مزيد من الشرح والتفسير لها ، وبعضها كذلك ، يحتاج إلى سفر طويل أو قصير ، وإلى لقاء مع أكثر من شخص ، بعضهم يقيم بالمدينة ، وبعضهم يضرب خيمته بالبادية ، وقد يحتاج الأمر إلى تأكيد وتدقيق ، ليكون ذلك فى « دكاكين الوراقين » نفسها . . . وهكذا ، وما إلى ذلك كله ، وغير ذلك ، كله . . . مما كان موضوع نتاج الرجل ، ومجال فكره ، بل ونتاجه هو نفسه وإذا كنا سوف نناقش أو نتعرض لهذه الأمور كلها مرة أخرى عند تناولنا للملاحظ « مصور عصره » وليس صورته ، فإننا نضيف هنا . .

أن هذه الأحداث كلها ، هذا العصر بما فيه ومن فيه قد تدخل فى « تشكيل » صورة الزجل ، ورسمها ولونها إلى حد كبير جدا ، ومن ثم فقد

ازدهمت رأسه بأمثال هذه الشاهد ، وزخر بها صدره ، وطفئت على فكره ، وملكته عليه حسه وقواده ومن ثم فقد جاء نتاجه معبرا عن ذلك كله ، يظهر فيه أثره ، كما لم يظهر في كراسات أو رسائل أو كتب غيره من أبناء العصر نفسه ..

وحتى لا تختلط الحدود أو الأوراق عندنا بين « الجاحظ » نتاج عصره ، والجاحظ مرآة عصره ، فإننا نقول أن السطور القادمة سوف تقدم ... بانين الله ... مزيدا من الضوء حول هذا النتاج ، بأسلوب أكثر التصاقا من كتابات الرجل ، لكننا نركز هنا على نقطتين :

● أن تأثره بعصره قد دفع به إلى أن يعيشه بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، دفع به إلى أن يرتاد المساجد والمكتبات والدواوين والقصور ودور اللهو ومجالس الأنس ومجتمعات الندامى وبكاكين الوراقين وأحياء الزنوج ومواقع السفلة ، بل لقد اكتوى الجاحظ بنار الفتن السائدة ، وخاض مواقف التحديات ، ورأس إحدى طوائف المعتزلة وتحدث بلسانهم ، وقبض عليه أكثر من مرة ، وسيق مكبلا بالأغلال وسجن ، وبولغ في أهانتته ، وفي السخرية منه ، تماما كما بولغ في مديحه والثناء عليه ، كان نتاجا للعصر بكل صوره و « متناقضاته » و « كرنفاله » جده وهزله ، علمه ولهوه عمله ومجونه .. ومن ثم كانت خبرته بذلك كله ، وراء كتاباته العقلية والموضوعية والتسجيلية الصادقة ، إلا يعني ذلك كله أن الرجل كان نتاجا صادقا وواقعا لهذا العصر بكل ما فيه ، ومن فيه ؟!

● أننا نشير هنا إلى بعض الأقوال التي اتجهت إلى بيان ذلك ، وانفقت فيه مع أفكارنا ، بعد أن أضفنا إليها « الملحق الصحفي » :

— أن أحد كبار الدارسين لنتاجه الفزير ، يقول في مقدمة تحقيقه لكتابه « البخلاء » ... أن الجاحظ : « من أوفى أهل عصره لطابع ذلك العصر » (١) .

— ويقول دارس متابع آخر : « كان معظم النتاج الأدبي قبل الجاحظ لا موضوع له يدور في حلقات مفرغة منمقة الحواشي من الفاظ مرصوفة أنيقة على غير مضمون ، فإذا بصاحبنا يشق طريقا جديدة ساعده فيها ابن المقفع

فيجعل من الأدب مرآة المجتمع والحياة ، فإذا كل شأن من شئون الوجود يصلح مادة لقلمه ، حتى القينة واللص والجن وجدت لها مقاما في آثاره المتنوعة بتنوع الأشياء والكائنات » (٢) ٠٠

ومن المؤكد - ياذن الله - أن المسطور القادمة سوف تضيف جديدا إلى هذا الموضوع .

### مكوناته

وإذا كان الصحفي عند بعضهم - ونحن نميل إلى ذلك الجانب - هو الرجل المكون من عدة رجال ، أو هو الذي يأخذ من كل بستان زهرة ، أو - وكما نحب أن نقول أيضا ونكرر في مؤلفاتنا ومحاضراتنا - هو رجل « الاختصاص العام » ، وإن جمع إلى جانبه « اهتماما خاصا » ٠٠ إذا كان الصحفي عند بعضهم هو ذلك الرجل ، فإن من الضروري أن يكون « تكوينه » ٠٠ ويعنى استعداداته وتربيته وثقافته وتعليمه مما يتجه إلى احراز هذا الجانب العام في شخصه ، حتى وإن كان له اهتمامه الخاص ، ذلك الذي قد يكون أدبا ، أو ما يتفرع عن الأدب ، أو يكون علما أو ما يندرج تحته أو يكون غيرهما ، وما ينبثق عن هذا الغير ٠٠

وباختصار شديد نقول ، وحتى دون أن نقدم أكثر من مثال لذلك ، إن مدارس الصحافة (٣) ، وإن معاهدها ، وإن كلياتها وإن أقسامها قد وعت هذه الحقيقة منذ انشائها في الربيع الأخير من القرن الماضي ، وقبله بقليل ، فقد كانت برامجها التعليمية تتكون من قسمين رئيسيين أولهما « القسم العام » الذي يبرز في عقل الطالب وصدره بذور « الرجل العام » أو « المثقف العام » ٠٠ ويعمل على تكوينه بإعطائه من كل بستان زهرة ، ومن كل بحر قطرة ، حتى يشب على ذلك ، ويتعوده ، ويمارسه ، ومن ثم فقد كان هذا القسم الأول من البرنامج الدراسي يشمل هذه المناهج كلها ، وأحيانا يشمل أكثر منها مع تركيز شديد على أساسياتها :

- \_\_\_\_\_ مبادئ الاقتصاد .
- \_\_\_\_\_ القانون العام .
- \_\_\_\_\_ الجغرافيا الاقتصادية .

- الجغرافيا السياسية •
- النقد الأدبي •
- المجتمع العربي •
- التاريخ خاصة الحديث وتاريخ العصور الوسطى •
- الثقافة الإسلامية •
- التطور العلمي •
- الترجمة الانجليزية •
- الترجمة الفرنسية •
- بعض اللغات الضرورية خاصة الانجليزية والفرنسية والألمانية •

الى غير هذه من مواد مشابهة ، أو متفرعة عنها ، لكنها — في جميع الأحوال — كانت تحاول تكوين مثل هذا الصحفي الذي يعرف شيئا من كل شيء ، كما كان بعضها يتسم بالرونة ، ويساير روح العصر ، وماجريات أحداثه ، لاسيما مادة « التطور العلمي » ومادة « الجغرافية السياسية » •

وأما المجموعة الثانية أو القسم الثاني من هذا المنهاج ، فقد كان هو القسم الخاص بدروس ومقررات الصحافة المطبوعة ، وما اتصل بها من مواد تقف على هامشها (٤) وكان من أهمها :

- التحرير الصحفي العام •
- الخبر ومصادره •
- تحرير الخبر •
- تحرير التقرير ( الحديث والتحقيق والمأجري والتقرير المصور ) •
- ( وبعضها يدرس كل فن على حده في فصل دراسي مختلف )
- تحرير المقال •
- تاريخ الصحافة في العالم ( بعضها يقسمه الى مقررين للصحافتين الأمريكية والأوروبية ) •
- تاريخ الصحافة العربية •
- تاريخ الصحافة في البلد نفسه أو في منطقة ما : ( مصر — سوريا — تونس — السعودية — أو في افريقيا أو تاريخ الصحافة الخليجية ) •

- تشريعات صحفية « جرائم النشر »
- الاخراج الصحفى ( بعضها يدرس الاخراج والطباعة معا أو يفصل بينهما ، وبعضها يفصل بين اخراج الصحف من جانب واخراج المجلات من جانب آخر ) \*
- الطباعة \*
- التصوير الصحفى \*
- المكتبة الصحفية « توثيق المعلومات الصحفية » \*\*

الى غير هذه كلها \*\*

وبعضهم يقسمها الى ثلاث مجموعات أو أربع ، فتكون هناك مجموعة خاصة لغوية للغات والترجمة ، أو للمقررات أو المواد الهامشية ، وقد تضاف اليها خامسة لمتطلبات التدريب أو « العمل الصحفى » \*\* أو تكون لكل مادة صحفية تدريباتها العملية \*\*

أهم انه كانت هناك : مجموعة يرجون من ورائها تكوين مثل هذا « الملق العام » وأخرى ياملون من ورائها تكوين مثل هذا الصحفى \*\*\* ويلحون فى ذلك أيضا \*\*

أردت بهذه السطور أن تكون بمثابة مدخل للحديث عن مكونات رجلنا، أو موضوع هذا الكتاب « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » \*\* فهل كان هناك ما يتصل به هو شخصيا من زاوية هذه المقدمات ؟ \*

● ونبدأ بالثانية — المكونات أو المقررات التى ياملون من ورائها تكوين مثل هذا الصحفى — لنتناولها من خلال نقطتين أساسيتين :

★ اما النقطة الأولى ، فهى انه لم يكن من المعقول أن يقوم «الجاحظ» فى طفولته أو فى صباه ، أو فى شبابه أو حتى فى شيخوخته بدراستها ، لأنها لم تكن موجودة كما نعرفها الآن — الصحافة هنا — حتى يدرسها هو أو غيره وأن كانت الصلات قائمة ووثيقة بين بعض ألوان النشاط الفكرى السائد وبينها لا سيما ما اتصل بنشاط نوادرين عديدة من أبرزها ( الخبر — الانشاء — الرسائل ) \*\* وبين بعض الفنون الأدبية من أمثال : « القصص العربى —

القصص القرآني - الأخبار والأخباريون - أدب الرحلات - فن المقامة - فن الترجمة الشخصية - .. وما إليها ، كان الصلات قائمة ووثيقة بين نشاط هذه الدواوين والكتابة في هذه الفنون وغيرها من جانب وبين الصحافة ، أو الأدب الصحفي من جانب آخر ، حتى دون معرفة هؤلاء بالصحف التي تصدر اليوم - لكنهم - بالقطع - كانوا ينظرون إليها على أنها من جنس الأدب لا الصحافة ، وليس لأحد أن يطالبهم بغير ذلك ..

لكن . من حيث « تعاليم الصحافة » .. فإن الجاحظ لم يكن بدعة في ذلك فحتى أوائل الخمسينيات في مصر ، لم يكن من الضروري أن يكون الصحفي متعلما وما يزال بعض من لم يدرسها يحتل المراكز المرموقة جدا في بلاطها .. وما تزال كثرة من المحررين في بعض البلاد ، من انصاف المتعلمين ، أي أنهم لم يدرسوا لا الصحافة ولا غيرها ..

★ وأما النقطة الثانية - فقد كانت دراسته للفنون الأدبية تجب ذلك كله ، لا سيما وقد ركز في هذه الدراسة - كما قال هو نفسه ووضع في دراساته - على ما يفيد منه الخاص والعام ، وعلى ما يجد تجاوبا عند عصره ، وأقول ، أن من يقرأ الجاحظ يعرف أن دراسته هذه، كانت نتجة من حيث يدري ، أو من حيث لا يدري ، إلى هذه الفنون الأدبية التي ولدت بعد ذلك عددا من الفنون الصحفية أو انبثقت الأخيرة منها ، أو انفصلت عنها ورضعت لبانها، ونمت وترعرعت بين أحضانها أيضا ، أي أنه من هذه الزاوية ، وعلى الرغم من عدم وجود مدارس وأقسام وكلليات الصحافة ، وعدم معرفة هذه العصور بتلك الدروس كما نعرفها اليوم ولا بتلك الفنون كلها .. إلا أنه درس أصولها ومنابعها الحقيقية ويكفي نظرة واحدة إلى تلك المصادر الأصيلة ، والبشرية ، وتلك الينابيع العذبة ، التي استقى منها مادة كتاب من كتبه ، مثل « البيان والفيين » .. ليضع الباحث في « فن التحرير الصحفي » أو « البلاغة الصحفية » أو « الأدب الصحفي » يضع يده على كثير وكثير جدا ، من أسس وقواعد هذه الدراسات كلها ..

لقد درس « الأصول » .. ولكن بأسلوب يتلاءم مع عصره واتجاهاته ومعارفه .

● وأما الأولى : وأكاد أقول أنها عندنا أهم من السابقة ، فهي

دراساته ، و تلك المكونات التي أسفرت عن تكوين هذا الرجل ، الذي نقول أنه كان طرازاً نادراً من رجال « التخصص العام » ٠٠ أو من « الموسوعيين » الذين قامت على أكتافهم صحف ومجلات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا ، خاصة صحافة المجلة كما قامت على أكتافهم هذه الصحافة الأخيرة أولاً ، والعامية ثانية في مصر وسوريا والعراق والجزائر في نهاية القرن السابق ، وأوائل القرن الحالي .

- وبداية نقول أن « صاحبنا » كانت دراسته شمولية ، متنوعة ، تضرب في أكثر من مجال واحد ، وتتصل بأكثر من تخصص واحد ، بل وبالعديد من المجالات والتخصصات المختلفة ، قيل أن نتحدث عنها ، نلقى نظرة على عدد من هذه الينابيع التي استقى منها هذه الثقافة بمعناها المتسع والكبير ، والتي جعلت منه في النهاية ، رجل « التخصص العام » وهي صفة صحفية في أغلب الأحوال ، ولازمة للمعاملين في بلاط صاحبة الجلالة من أمثال « الكتاب الصحفيين » ٠٠ وغيرهم ، وحتى أصغر المندوبين ، الذي يكون عليه أن يعرف إلى جانب حقل عمله ومنطقة اختصاصه ، كثرة من الحقول ومناطق الاختصاص الأخرى ، والاضاقت الفرص أمامه ، وأصبح حبيس جهة واحدة ، ومصادر واحدة ووجوه واحدة فقط ، بل ولعلاء الصدا ، واعتراه الجمود ، وتسالت إلى عمله الرقابة ، والركود ٠٠ وجميعها في غير صالحه ، وفي غير صالح العمل الصحفي في مجموعه ، وبالطبع فإنه يستثنى من ذلك بعض المندوبين في جهات « القمة » وأماكنها الحساسة التي يوقف المندوب عليها عمره وتستحق هي ذلك كله ٠٠ ولكن ليست أية جهة أو منطقة اختصاص غيرها .

أما هذه الينابيع فهي :

- ١ — الكتاتيب : تلك التي راح يلتحق ببعضها منذ طفولته المحرومة ، وصباه الشقي المكافح ، وواضح أن ما تقدمه هذه يتركز معظمه في حفظ القرآن الكريم ودراسة الحديث النبوي ، وقبرا معقولا من علوم التفسير والفقه إلى جانب بعض المسائل اللغوية التي كانت تقدم لمن هم في مثل سنه ، وأن فالأساس ديني لقوى ، كأساس غيره ، وهو أقوى الأسس التي ارتكزت إليها طوائف « الموسوعيين » ٠٠

وواضح أننا إذا كنا نعني الكتاتيب مكانا أو أطارا ، فإن التوجه كان

أولا للقرآن الكريم والحديث النبوي .. لا سيما في مؤلفاته اللغوية والبلاغية وحتى العلمية أيضا .

٢ - دكاكين الوراقين : وعند بدأ الجاحظ « الغلام » هنا ، يشب عن الطوق ويتعرف على من حوله ، قويت لديه الرغبة كزملائه الكبار في المزيد من المعرفة ، أو الثقافة العامة ، وليست الدينية فحسب ، وكان من المعروف أن هذه يمكن أن يجدها في أكثر من مكان من أهمها « دكاكين الوراقين » .. ومن ثم راح يقضاها ، في بعض الأحيان أو يستأجرها في أحيان أخرى ، يجلس بها الساعات الطوال ، ويصل ليله بنهاره حتى يأتي على أغلب الموجود بها ، وهو ممثل لثقافة العصر العربية ، وتلك المنقولة أو المترجمة عن الفارسية والهندية واليونانية ، التي وصلت كتبها مع من حضر من أبناء هذه الشعوب الى عاصمة الخلافة ، أو البصرة - العاصمة الثانية - أو مع التجار أو مع الرحالة والجنود ، ومن خلال ما حدث من امتزاج بين العنصرين ، العربي ، والعناصر الأخرى ، خاصة الفارسية والهندية ، التي تقع البصرة على طريقها ، وتعتبر من مناطق الجذب بالنسبة لها ..

وكما وضعت « الكتاتيب » أسس ثقافته الدينية ، فقد أضافت إليها دكاكين الوراقين كثيرا ، ثم جاءت بأكثر من لون من ألوان الثقافة الأخرى ، اللغوية والأدبية والفارسية والهندية لتضمها بين يديه ، وطوع بنانه .

٣ - المساجد : وإذا كان انتشار المدارس الفكرية والفلسفية والعقائدية يعد ظاهرة في هذا العصر ، فقد كانت هناك أيضا « المدارس المسجدية » ، تلك التي كانت تؤمها طائفة كبيرة من الذين كانوا يربون العلم من أجل العلم ، ومن ثم شهدت هذه المساجد حركة ثقافية دينية علمية كبيرة ، كانت مناقشتها تمتد طويلا ، وتتفرع وتتشايك ، كما اتصلت بموضوعات عديدة أخرى ، لغوية ونحوية وبلاغية وأدبية يقوم عليها عدد لا بأس به من العلماء اطلقت بعض المراجع العربية عليهم تعبير « المسجديين » وكان من أهم ما يميزهم تنوع المجالات والاهتمامات ، حتى قيل عنهم أنهم وإن انطلقوا من الأساسيات الدينية واللغوية ، إلا أنهم لم يتقيدوا بها ، بل لم يتقيدوا بعلم واحد ، وأكثر من ذلك وأهم منه أيضا أن هؤلاء لم « يتبحروا » في علم واحد من العلوم ، ولم يكونوا من أصحابه دون غيره أو من أهل « التخصص الدقيق » فيه .

وعندى أن هؤلاء ، بالإضافة الى استعداد الرجل نفسه ، وإلى عدد من الذين يمكن أن نطلق عليهم تعبير «الموسوعيين» ٠٠ كانوا هم من أبرز المؤثرات فى مكونات الجاحظ العامة ، أو فى اتجاه « التخصص العام » الذى سيطر عليه .

٤ — العلماء : كثير من العلماء والرواة واللغويين والخطباء أثروا فى اتجاهات الجاحظ عامة ، لكن من الملاحظ هنا أن بعض العلماء كان أثره وقتيا محدودا وأن أفاد منه ، وبعضهم الآخر كان تأثيره كبيرا ، ومهما ، ومن الغريب أن هذه الطائفة التى كان تأثيرها على فكره أشد وقعا ، وأمضى استجابة ، كانت من بين هؤلاء الذين عرفوا بالشمولية وانطلاقة الفكر إلى ميادين عديدة قد تستعصى على بعض علماء اليوم ، وهكذا اجتمع له تعدد موضوعات هؤلاء ، مع تعدد موضوعات « المسجدين » ، لتترك هذه كلها أثارها فى نفس الرجل وصدره وفكره ، وكان من بين هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر خاصة ممن أثروا فى اتجاهاته الكتابية التى نعتبرها أدبا صحفيا :

● « أبو عبيدة » ذلك الموسوعى الذى نعتبر أنه كان من أكثر من ترك « بصماته » الواضحة على فكر الجاحظ « الشمولى » أو ما يتصل بجانب « تخصصه العام » لا سيما وأن تأثيره قد جاء فى فترة مبكرة من الوقت ، وهو يجتاز المرحلة من الصبا ، إلى الشباب المبكر ، ومن ثم فقد حفر هذا الرجل أثره فى وقت مناسب ، وصدر مستعد وتعامل مع فكر متقبل وذائكة حافظة ، وقد أوفاه الجاحظ حقه ، فتحدث عنه كثيرا ورفعته إلى المكانة التى يستحقها ، وكان مما قال عنه « لم يكن فى الأرض خارجى ولا إجماعى أعلم بجميع العلوم منه » (٥) .

وإذا كانت لرجل مؤلفاته المتعددة ورسائله التى جلت عن الحصر ، وخاصة فى موضوع الطير والحيوان والحشرات ، إلى جانب عجائب البر والبحر ، واللوان الشجر والثمر ، فانتنا نضيف هنا أننا لا نستبعد أن يكون اهتمام الجاحظ يمثل هذه المخلوقات والأشياء يعود إلى هذا الرجل أولا ، وقبل غيره ، وإلى انجذاب الجاحظ به وبحكاياته ورواياته ورسائله ، فى تلك المرحلة المبكرة من العمر ، وهو ما أسفر بعد ذلك عن كتاباته الماثلة ، والتى أوشك أن يتفوق فيها على الأستاذ نفسه خاصة مؤلفه الكبير « الحيوان » الذى سيرد ذكره فى حينه باذن الله .

( الجاحظ )

● « النظام » وإذا كان الموسوعي السابق هو من لفت نظر الجاحظ ووجه فكره الى التناول الشمولى عامة ، وموضوع الحيوان والطير والحشرات والعجائب خاصة ، فقد كان هذا الأخير « أبو اسحق إبراهيم بن هانيء » هو الذى وجه نظره ، ومهد فكره للمسائل المتصلة بالفلسفة والسياسة وجوانب الرأى العقائدى معا لاسيما تلك التى تتصل بالفرقة الدينية المعصاة بـ « المعتزلة » ، خاصة اتباع هذا الرجل من « المعتزلة النظامية » . . وعموما فإن الرجل لم يكن وحده الذى فعل ذلك . . على أنه كان من أهم مؤثرات النظام فى صاحبنا :

— البحث وراء العلل والأسباب لكل الظواهر القائمة ، أو ما يستجد منها .

— الشك فى كل ما هو قائم حوله ، واتخاذ به بداية للتفكير فى الأصول والفروع .

— الحرص على حرية التفكير والتعبير والعرض عليهما بالنواجز .

— الكلام المختصر المرسل وغير المسجوع الا ما جاء عفو الخاطر . . باختصار شديد ، كان النظام مذهبيا وصاحب فلسفة ورأى وعالم وباحث ، ومن ثم ، فاننا لا يمكننا استبعاد تأثيره على اتجاهات الجاحظ الفكرية والمنهجية ، بل والتأليفية والكتابية — أو التحريرية — العامة ، وأضيف هنا ما ذكره باحث جاد ، عن جانب من جوانب أثر هذا الرجل : « . . وقد أثر النظام فى الجاحظ تأثيرا بليغا ، وكانت طريقته فى التحرى من أركان طريقة الجاحظ العلمية » (٦) .

● « الأصمعى » . . قلنا أن أبا عبيدة لم يكن وحده هو المؤثر ، ولا كان النظام أيضا وإنما يقترب منهما ، فى بعض هذه المجالات الشمولية ، ويضيف اليهما جديدا من الأثر فى عديد من الموضوعات اللغوية وما يتصل بالاختار والرواية وجمعها ، الى جانب تعود تقديم الملح والطرائف والاهتمام بما يثير الفضول والتشويق ، وجمع النوادر ، وما إليها ، تلك التى حفلت بها كتابات « صاحبنا » بعد ذلك ، وكانت طابعا عنده ، لاسيما تلك التى جاءت على صفحات « البخلاء — الاخوان — الأخبار وكيف تصبح » وغيرها . .

وغيرهم ، وغيرهم ، خاصة من عرب البادية ، وهؤلاء الذين كانوا يجمعون بين أكثر من مادة واحدة ، أو موضوع واحد ، على النحو السابق . .

مما يعود الى تفكيرنا بمناهج ومقررات اقسام وكليات ومدارس الصحافة ، تلك التي تهدف الى اعطاء شيء من كل شيء . . مع الاحتفاظ لكل بمستواه وطابعه ، وما ابعد المسافة بينهما ، او شتان بين مستوى قديم واصيل وجوهري ، ومستوى معاصر و قشري ، او يكاد يكون كذلك .

## التثقيف الذاتي

لكننا في واقع الامر نظلم « رجلنا » ظالما فادحا ، ونبخسه حقه تماما ، ان نحن قلنا ان هذه المكونات وحدها ، كانت وراء هذا المستوى الجاحظي فكرا وثقافة وبحثا ولغة . . متجاهلين بذلك ، او متناسين ذلك الجانب الذاتي الخاص للمهم . . فلا العصر نفسه بكل ما فيه من نشاط ديني وعلمي واغوي وفلسفي وادبي ، وبكل ما شهده من نمو وازدهار ، ومن صراع فكري وعقائدي ، ومن كثرة في المساجد والمدارس والكتاتيب ، ومن انشاء للمكتبات ، ومن تشجيع الخلفاء والأمراء والأثرياء للعلماء والأدباء ، ومن مجالس للعلم والادب ، تقدم فيها الهيئات وتمنح « الاكراميات » وتتابع العطايا . . ومن مترجمات كاملة عن الفارسية والهندية واليونانية ومن وفود علماء الدنيا المعروفة على حاضرة العباسيين - بغداد - وعاصمتهم الثانية - البصرة - يحملون نتاج حضارات عديدة مجتمعة ، قديمة وجديدة ، شرقية وغربية لم تكن هذه كلها لتؤثر وحدها ، دون قيام هذا الجانب الذاتي الخاص نفسه ، بل ان الكتاتيب ، و « دكاكين الوراقين » و « المساجد » و « عشرات العلماء » لم تكن لتنتج أو لتثمر كل هذا الحصاد الوافر أو الفيض الغامر ، دون قيام لهذا العامل الذاتي المهم . .

. . ان هذه « الأجواء » الفكرية والسياسية والعقائدية والثقافية التي سادت هذه السنوات الخصبة المثمرة ، كانت تظلل الجميع بظلالها ، وتمد أذرعها الى كل مكان ، ولم تكن وقفا على المدينتين الكبيرتين وحدهما - بغداد والبصرة - وإنما راحت تنساب مع مياه دجلة والفرات من أقصى البلاد الى أقصاها ، تأثر بها الريف والحضر ، بل امتد أثرها الى خارج الحدود أيضا . . أي أنه كان في طائل الجميع أن يفيـــسـدوا منها ، وكانت هي ، بكل اشراقها وضجيجها وجلبتها طوع أيديهم وأفكارهم وأسماعهم . .

فلماذا اتاد منها الجاحظ ونفر قليل من أمثاله قبل غيرهم ؟ وأفاد منها

هو قيل غيره بحيث لم تر له مثيلا في عصره ، اللهم الا نادرا ؟ ٠٠ حتى قيل عنه ، من جانب مؤيديه ومعارضيه معا ، ومن بين كثير مما قيل عن الرجل :

● « القرن الثالث يسميه صديقنا الاستاذ احمد امين : عصر الجاحظ » (٧) .

● « قلما عرف الأدب العربي في مختلف عصوره ادبيا موسوعيا بلغ ما بلغه الجاحظ من غزارة في المادة ودقة في التحليل وعمق في النظر وتنوع في مجالات الابداع » (٨) .

● « كان دائرة معارف عصره » (٩)

بل ، لقد اتيح لأبناء الخلفاء والأمراء وكبار التجار والأثرياء ، اضعاف ما اتيح له من فرص التعليم والتثقيف والاغتراف من هذه المصابير كلها . وهو الصبي اليتيم ، ابن الأسرة الفقيرة ، الذي كان يتكسب عيشه يبيع الخبز والسكك ، عند ملتقى بعض القنوات بالبصرة ٠٠ لكنه ، ومع ضيق ذات اليد ، كان يحمل بين جنبيه ، هذه « المكوفات » الخاصة كلها ٠٠ التي اعانته على شق الطريق وتحمل مصاعبه ، ومن ثم ، فقد بز هؤلاء جميعا ، ووصل الى هذه المكانة الهائلة ، التي يحسده عليها أمثالهم من معاصريه ، ومن غير معاصريه ، بل وربما لم يصل اليها لا أقول بعض هؤلاء الأثرياء ، أو كبار التجار ، وإنما بعض الخلفاء والأمراء والوزراء أنفسهم ، ممن قد لا يعرفهم البعض الا من خلال دروس التاريخ ، بينما يطويهم النسيان وتطوى صفحاتهم بمجرد انتفاء الحاجة ٠٠ ذلك كله بينما يعيش الجاحظ بفكره وأدبه وجوانب عبقريته من حقبة الى حقبة ، ومن عصر الى عصر ، ومن جيل الى جيل ، في وجدان الطالب والباحث والمثقف والأنيب ٠٠ وحتى هواة « الفكاهة » أيضا ، تلك التي كان الرجل علما من اعلامها ، وله مدرسته المعترف بها ، في هذا الفن أيضا .

ان باستطاعتنا ان نتوقف عند عدد من أهم معالم هذا الجانب الذاتي نفسه الذي بز به أقرانه ووصل الى تلك المكانة ٠٠ ان من بينها :

★ احساسه « الجذري » العميق ، والذي لازمه منذ صباه بضرورة الاعتماد على نفسه وتحمل مسئوليته وقد بذر ذلك في صدره ، وحتى يمكن

أن يتحقق له هذا الاعتماد على النفس أكثر من بذرة سرعان ما نمت وترعرعت لا سيما بعد أن أضيفت إليها وتشابكت معها عوامل أخرى عديدة ، أما هذه البذور نفسها فهي :

- عدم التخوف من مخالطة الناس ، وتعود مناقشتهم والشد والجذب معهم .
- معرفة طرق البعض في التصايل وقيادة الحديث وتوجيهه الى صالحهم .
- عدم التسليم بما نعه ، الا عن رضى واقتناع كاملين .
- الاستماع الى ما يدور حوله من مناقشات على قارعة الطريق وبجانب قنوات البصرة وفي حدائقها .

باختصار شديد ، لقد كان هذا الواقع نفسه وراء ما يكون لديه بعد ذلك من « حاسة اجتماعية » جعلته يختلط ويناقش ويحلل ويفسر ، في هذا السن المبكر .

★ ولعل الاستماع الى أمثال هذه المناقشات العامة ، ثم ما كان يدور في الكتاب قد فجر عنده بعض « المواهب » لأول مرة ، لا سيما موهبة « الاستماع » أو « الانتصات » وكذا موهبة « الحفظ » . فتدرب خلال هذه الأيام ، وكثر تدريبه على حسن الاستماع وله أثره الكبير في دقة المتابعة ، وبقظة الفكر واستيعاب ما يدور ، ثم كشف ذلك عنده عن هذه « الذاكرة القوية » . . . . . التي تحسن التقاط الصور والمشاهد وتجيد الحفاظ عليها ، لتخرجها « عند اللزوم » . وفي الوقت الذي تريد .

★ لكن نفسه الطموح ، ورغبته في الاستزادة ، وإحساسه بأن فكره يريد ما هو أكثر من علوم الكتاتيب التي كان يؤمها غيره ممن هم في مثل سنه ، وليصروا في مثل تجربته ، دفع به الى دكاكين الوراقين ، ليقرأ فيها بنهم ، محاولا إشباع فكره الذي يلح عليه بالمزيد ، ومن ثم بدأ يقتحم مجالات ثقافية جديدة ، وكلما أخذ شيئا طلب فكره المزيد . . . حتى كان من بين ما قاله عنه في هذا المجال صاحب « معجم الأنبياء » « وحدث أبو هفان قال : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط

الا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر . ( ١٠ ) ٠٠

لكن حتى هذه لم تكن تشقى غليله الى القراءة والمعرفة ، واكاد اقول ، لم تكن هذه الدكاكين على اتساع وتعدد وتنوع ما حوت من تصنيفات ومترجمات ومخطوطات الا لتشبع بعض حاجته ، من ذلك ، ومن ثم فقد راح يبحث عن مناهل جديدة يضيفها اليها ، ليغترف منها ما شاء له الاغتراف ، حيث كانت هناك هذه الطائفة من العلماء ، ما ذكرنا منهم وما لم نذكر ، وكان هناك أيضا عرب اليبانية ، وأهل المريد والمساجد ومجالس القصور ٠٠ وما الى ذلك كله ٠٠

لقد جعل ذلك منه ، هذا الانسان المثقف «الأنموذجي» أو المثقف «القياسي» أن صبح استخدام مثل هذا التعبير ٠٠ بل لقد أصبحت هذه الرغبة في المزيد من المعرفة « حاسة » و « ظاهرة » لازمته حتى آخر لحظة من لحظات حياته ، بل كانت « الكتب » التي يحتفظ بها بالآلاف ، في بيته البصري الذي شهد نهايته ، هي سبب وفاته ، عندما سقطت عليه ، فهوى تحتها جسده الحليل ، ولم يستطع النهوض وهو يحمل « تلالا » منها ، كتبت أنفاسه ، ولم تتركه الا بعد « تكفن » بورقها ومدادها ولعلها « الوفاة المناسبة » الوحيدة ، التي كان يرجوها لنفسه ، ويشاء الله الا يحرمه منها ٠٠

★ باختصار نقول ، كانت المعرفة منهجه الحياتي ، وكان لا يشبع ولا يرقى منها أبدا ، بل دائما يحس بحاجة الى المزيد ، ومن هنا فقد راح يطرق مجالات جديدة من الفكر لم يسبقه أحد اليها ، الا فيما ندر ، وليس بنفس الدرجة من الوضوح ، والعمق ، في أن واحد ، أو نقول ، ليس الى هذه الدرجة من « التخصص العام » ومن الشمولية ، والبراعة معا ، لقد امتدت ثقافته الذاتية الجديدة الى موضوعات عديدة ، كان من بينها على سبيل المثال لا الحصر ، هذه كلها التي تناولتها كتبه ، أو تناولها في مجالسه ٠٠

- المفاضلة بين الشعوب التي دخلت الاسلام من زوايا الفكر والأثر في الحضارة الانسانية وبعض معالم « الشخصية » الخاصة ، وجوانب الابداع المختلفة .
- كتبه في « الأخلاق »
- تناولاته للمذاهب والمقائد المختلفة

### — صورة القلمية

— الجديد الذى أضافه الى « الفكاهة » ، من حيث الموضوع والدلالة والخصائص الفنية معا

كانت هذه بعض ما أوجت به ودفعت اليه وقادت هذه الثقافة الموسوعية المتميزة من أفكار ، انبثقت عن تلك الأغراض والموضوعات « التقليدية » أو « الكلاسيكية » التى كان يحوضها أو يتناولها علماء عصره ، وكتابه .

وانن ٠٠ فقد كان حبه للثقافة « فضيلة ذاقية » أولا ، وحاسة خاصة، تحمد له أضيفت الى هذه المكونات الأخرى ، ودعمتها ، وأكدت على جوانب الافادة منها ٠٠ لتتشابك هي ، وتتعانق وتتلف ، وتنتج في النهاية هذه الملامح العديدة لشخصية أدبية وصحفية معا ، يزدهمان في جوف وصدر وفكر رجل واحد ٠٠

فاذا عدنا الى استعراض أبرز هذه المكونات الجاحظية ، في ضوء مكونات الصحفي المبرز ، المرموق ، الموهوب ، المتصل ، الممارس ، المثقف ، وليس أى صحفي ، أوجدنا أن مكونات الرجل ، وروافد فكره ، وتعدد منابع معرفته، واهتمامه بإضافة الجديد « الحادث » ٠٠ وولعه بإبتكار الموضوعات والأغراض الجديدة ، وحرصه على ذلك كله ، لتأكد لنا أننا أمام شخصية أدبية وصحفية معا ٠٠٠

وخذ عندك مثلا ، أو على سبيل المثال لا الحصر ، هذه النقاط الأخيرة فقط ، والتي وردت تحت عنوان « التثقيف الذاتى » ٠٠ لقد رأينا أن مؤثرات حياته ، وأن رغبته العارمة التى لا تنقطع من أجل مزيد من المعرفة ، قد أدت به الى :

— انتهاز الفرص التى تصنع من أجل مزيد من الكسب «الثقافى» هنا

— تكوين حاسة اجتماعية « تتعرف وتستمع وتناقش وتدعم مسلات صاحبها باناس وافكار وعادات ومواقف متباينة

— تكوين ودعم وتدريب حاسة حافظه وذاكرة قوية

— تكوين « النموذج » للباحث المثقف الذى يضرب فى أكثر من ميدان،

وأكثر من حقل ٠٠

هل أقول أن هذه جميعها تعرفها أيضا « مكونات الصحفي » ، كما ينبغي أن يكون ؟ أم « انتظر » حتى نتعرف على جوانب جديدة من شخصيته ، حتى تكتمل الصورة نفسها ، صورة « الجاحظ صحفيا » ؟ أو - على الأقل - الجانب الصحفي عند الرجل ؟

اقتنى ، وقبل الانتهاء من هذا البحث ، اتوقف عند نقطتين أخيرتين ، تتصلان بهذا الموضوع نفسه ، موضوع « المكونات الجاحظية »

● أما أولاهما : فهي عودة سريعة ، نلقى فيها نظرة الطائر على مناهج ومقررات و « مساقات » أقسام ومدارس وكنيات ومعاهد الصحافة ، ترى هل اختلفت كثيرا ، تلك التي اعتمدها المعاصرون كمكونات وروافد للصحفي ، عن تلك التي استقى منها واغترف الجاحظ ما كان معينا لا ينضب لهذا التراث الجاحظي بكل ثرائه ؟ .. حتى هذا الجانب الأخير ، جانب الثقافة العامة ، انها في معظم الأحوال ، بدءا باختيار طلاب هذه الأقسام والمدارس والكنيات والمعاهد ، ومرورا بجوانب تدريبه وسنوات عمله الأولى ، وحتى آخر ما يكتب ، تكون هي مرجحة للصحفي على غيره أو لغيره عليه .. خاصة عندما يتساويان في بعض الظروف والمكونات الأخرى أو يتقاربان ، أو يتشابهان .

● وأما ثانيتهما : فهي أننا - كمادتنا - تنهى هذا الفصل ، ببعض الكلمات ، لهؤلاء الذين اقتربوا من الجاحظ مثلنا ، أو أكثر مما اقتربنا ، بقليل أو كثير ، وجلهم من رجال اللغة والأدب ، حتى يستقيم معهم المثل القائل : « شهد شاهد من أهلها » أما الشاهد هنا فهو الأديب الناقد المؤرخ « شسوقي ضيف » وأما شهادته فهي تلك التي يقول فيها : « .. وهذا العكوف على القراءة هو الذي جعل كتبه ورسائله أشبه ما تكون بدوائر معارف فليس هناك جدول من جداول الثقافة في عصره إلا وتسربت منه فروع ومنعطفات إلى كتاباته وتأليفاته وإن كتبه من هذه الناحية لتشبه تمام الشبه معارضنا الحديثة ، فأنت منذ دخورك في كتب الجاحظ تجده يعرض تحت بصرك جميع ألوان الثقافة التي عاصرت من هندية وفارسية ويونانية وعربية وهو يجمع ذلك في شكل مشعث ، (١١) »

لكن هذه لم تكن وحدها دليلنا إلى هذا الجانب الصحفي ، من شخصية

الرجل ٠٠ فما تزال هناك تلك الأبعاد الأخرى ؛ الماثلة ، أو التي تقترب من  
بابه الصحفي ، إلى حد كبير ، نظوف خلال السطور القادمة ببعضها ، دون أن  
تنصرف تماما عن هذه السطور السابقة لأنها جميعها ترتبط بالموضوع نفسه ٠٠

بل ان تعبير « المعرض » الذي استخدمه صاحب الكلمات السابقة ، هو  
تعبير يطلق على الصحافة عامة من صحف ومجلات ، ويضاف اليه عن الأخيرة  
— والجاذب اليها أقرب — تعبير « الاستعراض » (١٢) الذي يعد من أشهر  
التعبيرات التي تطلق على المجلة ٠٠

٠٠ لكن هناك أكثر من زاوية أخرى ترتبط بالموضوع نفسه ٠٠  
تري ما هي؟

● ● هوامش هذا الفصل :

(١) الجاحظ : «البخلاء» ، من مقدمة المحقق : د - طه الحاجري .

(٢) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » ص ٤ .

(٣) "School of Journalism"

(٤) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن العودة الى عدة مؤلفات من بينها : اليونسكو : التأهيل الصحفي ... اليونسكو العربية : بحوث الاعلام ... عبد اللطيف حمزة : مستقبل الصحافة في مصر ... محمود أدهم : الأسس الفنية للتحريض الصحفي العام وغيرها .

(٥) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ١ ، ص ٢٢٤

(٦) حنا الفاخوري : « الجاحظ » ص ٢٤

(٧) زكي مبارك : « ادب القرن الرابع » ص ٩٦

(٨) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » من المقدمة

(٩) الأب فيكتور شلمت اليسوعي : « الفلسفة الكلامية في اسلوب الجاحظ » ص ٧

(١٠) ياقوت الحموي : « معجم الانبياء » ج ١٦ ص ٧٤

(١١) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٥٥

(١٢) Review وللاستزادة رجاء العودة الى كتابنا السابق :

« التعريف بالمجلة » ص ١٨ وما بعدها

## **الفصل الثالث**

### **شواهد صحفية**



- قلنا انه لم تكن هذه المقدمات والخصائص السابقة فقط ، هي التي انتجت هذا « المزيج » الجاحظي ، أو هذا الفيض من تراث الرجل والمكون من جانبين ، جانب للادب ، وجانب للصحافة ، وركزنا على بعضها الخاص بالآخيرة على وجه تحديد ، أقول ركزنا على بعضها ، أو على عدد منها ..

وخلال السطور القادمة ، نضيف - كما وعدنا - جديدا الى هذا الموضوع ، وتتناوله من أكثر من زاوية مغايرة ، وبليلا الى ذلك كله عدة صور ومشاهد من حياة الرجل الحافلة ، ومن نشاطه الواقف ، ومن صلاته بمجتمعه وإبطال أحداثه وصناع حضارته وثقافته وقيمه ، وحتى هؤلاء الذين تسببوا في وجود بعض الرقع في ثوبه - ثوب المجتمع العباسي نفسه - الأبيض الناصع البياض ..

غير أنني هنا ، وقبل المضي مع هذه الأفكار كلها ، وقبل الاسترسال في تعداد صور « الأدب الصحفي » ، وليست الصحافة الأدبية عند « صاحبنا » ، وكذا قبل التوقف عند هذه « الشواهد الصحفية » كلها .. أقول انها هنا تتم في ضوء :

★ تناول جديد ، أو نمط جديد من التناول يخلط بين الجانبين ، الأدب والصحافة بما يتصل بهما من نقاط وعلاقات ارتكاز وملامح جاحظية خاصة .

★ يقدمها باختصار شديد ، لكنه غير مخل ، مع الاحتفاظ بحققنا في العودة الى بعض مرتكزاتها ، بطريقة مصهية ، على صفحات أخرى قادمة ، فحسبنا هنا ما تقدمه خلال هذه السطور .

## الرجل ومصادره

ولعل هذا « العنوان الفرعي » يذكر بتلك المادة الأصلية ، التي لا بد لطلاب الاعلام عامة ، والصحافة خاصة من دراستها في بداية دراستهم لهذه المناهج حتى تقوم عليها ، وتنبثق منها مواد أخرى عديدة ، انها ما يطلق عليه ، مادة أو مساق : « الخبر ومصادره » .. وحيث الصلة شديدة بين الموضوعين

هنا نتساءل : ما هي مصادر هذا الرجل ؟ ، وهل كانت جميعها مما يندرج  
... بشكل أو بآخر - تحت تعبير أو نوع أو بند « المصادر المخطوطة » على عادة  
الكثرة من أهل زمانه من الباحثين وواضح أنها هنا « المصادر المنسوخة » ،  
لأن الطباعة لم تكن قد عرفت بعد ، وإنما كانت الرسالة تنسخ أو تخط بأعداد  
كبيرة في دكاكين الوراقين والناسخين ويدور العلم والمكتبات وبعض الدواوين .

وفي تعبير آخر ، هل كان « الجاحظ » يتجه في جمعه لمادة كتبه ورمائله  
وتصنيفاته المختلفة إلى جانب أرفف دكاكين الوراقين ، وأضابير الدواوين ،  
وخزائن المكتبات يجمع من بين صفحاتها شتات مادته ، ويللم المبعثر منها  
هنا وهناك ، ينقل معلومة من مخطوطة هنا ، وسطورا من مخطوطة هناك ، ورأيا  
من رسالة في مكان مهمل وشذرات من مترجمة من المترجمات ، وحاشية من  
كتاب فارسي ، وأخرى من أضبار هندية ... هل كان يفعل ذلك كله ، ثم يوحد  
بين هذا الشتات المبعثر ، ويقرب بينه وبين غيره ويقوم بدراسته وتحليله  
واستخلاص النتائج منه ، ثم تقسيمها في صورة جديدة تماما ، هي من تأليفه  
هذه المرة ، يحمل بصمات فكره ، وطابعه الخاص شكلا ومضمونا ، لغة  
واسلوبا ؟ هل كان هذا هو ما يفعله الجاحظ فقط ، أم أنه كان يلجأ إلى غير  
هذه من الطرق ، حتى وإن اتبعها غيره ، أو كثرة من أهل زمانه ، وأهل  
زماننا أيضا ؟

إن الواقع يقول ، أن هذه كانت طريقته أحيانا ، ولكنها لم تكن طريقته  
الوحيدة ، أو طريقته الأساسية ، وإنما كان اعتماده على طرق أخرى كثيرة ،  
أو على مصادر أخرى ليست مخطوطة فقط ، أو منسوخة فقط ، وإنما  
مسموعة ، ويشرية أيضا ، قبل أن نتحدث عنها تفصيلا ، نقوم بالقاء سؤال  
آخر ، نطرح السؤال هو : هل كان ما كتبه الجاحظ كله تأليفا من بنات أفكاره ،  
حتى وإن كانت تسبقها خطوات البحث العادية في بطون الكتب ، أم كان بعضه  
« جمعا » أو « تجميعا » من مصادر أخرى ، خاصة المصادر البشرية ؟

إننا - كمدخل لتتائجي فقط - نقول أن « صاحبنا » كما كان مؤلفا  
« ماهرا » فقد كان على نفس الدرجة من المهارة « جامعا » و « متلقيا » و  
« مستمعا » وكذا « مسجلا » أمينا وبنينا وموهوبا ...

ومرة أخرى نعود إلى مقرر الخبر ومصادره ، أو إلى « مصادر

الصحفي ، بشكل عام ٠٠ لنجد أن من المهم المميز منها «المصابير البشرية» ٠٠  
وهنا نقول ٠٠ أننا لا نقصد بهذه المصابير عند الرجل ، أصانته الذين كان  
يستمتع اليهم ، أو هذه الطائفة من «المسجدين» الذين شغف بهم واعتبر في  
وقت من الأوقات واحدا منهم ، أو هؤلاء الذين كانوا يتحدثون في المجالس  
والدور والقصور بحضوره ، وحيث كانت ذاكرته الدقيقة الحافظة تعمل عملها  
وتسجل «جواهر» ما يدور ، وخلصه ما يجري ٠٠ وهي نفس طريقة غيره  
مع اختلاف بينه وبينهم ، ومع تفوق له عليهم بفضل هذه المواهب كلها ، التي  
لم تتح الا للقليل النادر من أهل زمانه ، وأقول ، وأهل زماننا أيضا ٠٠

لا نقصد بهذه المصابير البشرية هؤلاء ، وإنما نقصدهم في صورتهم  
الصحفية عامة وفي ملامحها الاخبارية خاصة ٠٠

أو ٠٠ في أسلوب آخر ، نقصد هؤلاء ممن كانوا يملكون تقديم ما يريده  
الجاحظ منهم ٠٠ هؤلاء الذين كان يبحث عنهم ، كبحث المندوب الصحفي أو  
المراسل ، فإذا عرفهم ، وحدد مواقعهم قام بالانتقال اليها وسعى من ورائهم  
حتى يتم اللقاء ، أو يتم أكثر من لقاء واحد بينه وبينهم ، يحصل خلاله منهم  
على ما يريد من مادة ، من أقوال أصحابها أو أبطالها أو شهود العيان عليها ،  
أو المتصلين بها عن قرب ، اتصال عمل ، أو قرابة أو نسب أو معرفة ٠٠٠  
وغيرها ، فإذا وجد ضالته عندهم ، لم يكتف بها بل سعى وراء المزيد والجديد  
والدقيق والمحقق منها ، عند غيرهم في أماكن ومواقع أخرى ، وربما عند  
فئة ثانية وثالثة وهكذا ٠٠

وفي سبيل ذلك ، انتقل الرجل الى المدن الكبيرة والصغيرة والقرى ،  
وقطع البادية وخاض بقسميه في بحر الرمال ، وأقام بين القبائل ، واقتحم  
بعض الأحياء الخلفية واجتمع بهؤلاء يأخذ عنهم ، ويرصد ويجمع ويسجل ،  
وكان له من وراء ذلك كله زادا كبيرا ، ومحصولا وافرا ، توزع على فصول  
ومباحث هذا التراث الجاحظي .

لكن هذا الانتقال من جانبه الى مواقع من يريد الأخذ والاستماع  
والنقل عنهم ، لم يكن سوى هذا الوجه الأول لذلك النشاط ، أما الوجه الآخر  
له ، أو الصورة الأخرى ، فكانت تتمثل في حضور هؤلاء اليه ، واجتماعهم  
أو لقائهم به ، ووصولهم حتى مكان وجوده ، وعرض بضاعتهم عليه ٠٠٠  
ووضعها بين يديه ، أو بين يدي فكره وتناوله ورؤيته الخاصة ٠٠

وإذا كان الأسلوب الأول ، هو الشائع صحفيا ، فإن الأسلوب الثانى يعتبر موجودا أيضا وله صورته وشواهدة العديدة ، فكم من مصائب بشرية عديدة تأتى ، لأسباب عديدة أيضا ، حتى دار الصحيفة - مهما يعتبت بين هؤلاء وبينها الشقة ، وحتى صالة التحرير ، وحجرة المحرر أحيانا ، بل ويكون معها خطاب رقيق وأحيانا « مدية » لمن يقبل ، وأتوه هنا بما يفعله مديرو العلاقات العامة فى المصالح والشركات ، ومصنسون النشرة الصحفية ، و « أصحاب المصلحة الخاصة فى نشر أخبارهم » (١) وغيرهم ، وغيرهم ، خاصة هذه الطائفة الأخيرة ، التى تتصل بالمحرر أو بالصحيفة بطريقة ما لتقدم لهم أخبارها وتحرض على ذلك تماما (٢) .

أريد أن أقول ، أن الجاحظ ، كما كان يبحث ويختزن فى فكره ، ويجمع الشقات ويؤلف بينه فقد كان كذلك يقوم بجمع مادته بطريقة يعرفها تماما مخبرو اليوم ومحرروه وكتابه لا سيما « المنديون » و « المراسلون المتجولون » ومحررو الموضوعات والتقارير والتحقيقات الصحفية ، وإن كان الى هذه الطائفة الأخيرة أقرب ، ولو كان عصره يعرف ، كما نعرف نحن اليوم استخدام « المسجلات » بأنواعها وأشرطتها المختلفة ، أو كان يعرف « الفيسيو » أو حتى « الكاميرا » لزاد مقدار ما جمعه اضيقا مضاعفة ولحققنا منه خيرا كثيرا جدا ، مما يتصل بالعلوم والمعارف السائدة عامة ، وجسوانب الأدب والصحافة خاصة . . . لكن ... وللأسف الشديد - لم تكن هذه المستحدثات قد عرفت بعد ، تماما كما لم تكن « الطباعة » قد عرفت أيضا ، والا لتضاعفت مؤلفاته ورأينا العجب العجيب مما قام بتأليفه أو جمعه ، ولما ضاع جزء كبير من هذين . . بل اننا نقول فى النهاية ، أن ما فعله « الجاحظ » من تأليف وجمع معا ، ليس بدعة صحفية فى هذه الأيام ، فعند كبير من المحررين ، خاصة ممن وصل الى مرتبة « الكاتب الصحفي » يؤلف أيضا ، وبعضهم يتبع طرق البحث المعروفة ، لكنه فى نفس الوقت لا يترك فرصة تمر دون حصول على الأخبار الهامة ، والهامة جدا ، كما أن بعض جوانب مادته المقالية ، وقبلها مادة التحقيقات الكبرى أو الأتمونجية التى يكتبها تتطلب مثل هذا الجانب « الجمعى » جانب السعى وراء الجديد من الأخبار والمعلومات والآراء والمواقف والتحليلات ، فتلك هى « مادة مادته » أن صبح التعبير ، وبها تثرى ، وتجذب أفضل العقول القارئة . .

أى أنه حتى فى الحالتين ، التأليف والجمع معا ، يبقى الجانب الصحفى

الجاحظي واضحا للعيان يقدم بليلا جديدا على « حضوره » الأدبي والصحفي معا ..

### ثم ماذا ؟

غير أنني وأنا ألفت النظر الى هذه « المصادر البشرية » التي استقى منها « الجاحظ » مادة أدبه وصحافته أتوقف قليلا لأقول :

( أ ) أنها كانت متعددة المستويات والفكر والشخصيات والمواقع والمهام أو المناصب ، كان من بينها الوزير والعالم والراوية للشعر لشاعر واحد أو لأكثر من شاعر ، وكان من بينها أصحاب القصص والأخبار ورواة الأنساب، تماما كما كان من بينها في بعض الأحيان طائفة من النوعيات الغريبة تجمع بين رجال الطرب وأهل الفن وهواة الغرائب ، وحتى اللصوص والسفلة .

( ب ) أنها لم تكن هي والمصادر المخطوطة مؤلفة أو مترجمة تمثل مصادره الوحيدة الى ما جمع وألف ولكن كانت هناك بعض المصادر الأخرى، لا سيما تجريته الخاصة ، وما أجدرها بأن تكون في مقدمة هذه المصادر نفسها ..

وكالعادة ، يتبقى أن نقدم امثلة مما ذكره « أهل الدار » ، من رجال الأدب واللفظة ، مما يتصل بهذا الموضوع نفسه ، وما يؤيد دعوانا ، وأكرر على طريقة « شهد شاهد من أهلها » .

★ أن دراسة قيمة ، بل هي عندي من افضل الدراسات التي تناولت الرجل ، يقول فيها صاحبها مما يتصل بهذه الزاوية : « وأقام أركان بحثه واستقرائه على المشاهدة والتجربة والاختبار ، ورحل في سبيل تحقيقه العلمي والطبيعي الى كثير من الأقاليم والأقطار » (٣) .. اليس بالامسكان ، أن نضيف هنا ، الى جانب « تحقيقه العلمي والطبيعي » تحقيقه الصحفي « أيضا .. ولا سيما وهذه المادة بالذات ... كما أشرنا وكما سنرى بعد ذلك بأنن الله ، كانت هي الأقرب الى ألوان كتابته ، حتى ليفصلهما أحيانا خيط رقيق ، ورقيق جدا ؟

★ ويقول رائدان من رواد الأدب العربي بحثا وشرحا وتحقيقا ، في تركيز منهما على طريقته التي اتبعها في تأليفه لكتابه الأشهر : « البخل » .. ( الجاحظ )

« لم يجهت إلحاحظ أن صور البخل في كتابه هذا ، لأنه لم يبعثهم من بطون التاريخ وتقييم الأخبار وعتيق الأسفار ، بل جاء بهم من بيئته واستخدمهم من خلصاته وخطائه ذرى الظرف والدعابة ، أما من البصريين وأما من البغداديين وأما من غير هؤلاء وأولئك ممن سمع عنهم أو رويت له أخبارهم في البخل ومذاهبهم في الجمع والمنع » (٤) .

ثم ماذا أيضا ؟

### معاشية •• وحضور

عند حديثنا عن الجاحظ « نتاج عصره » ، خلال صفحات سابقة — الفصل الثاني : معالم جاحظية •• توقفنا عند حد معين من تقييم الدلالات والشواهد التي توضح كيف أن الجاحظ هو نتاج شرعى أصيل ، للعصر الذي عاشه ، والذي أطلق عليه بعضهم ، على الرغم من كل ما زخر به وازدهم من صور ، تعبير « عصر الجاحظ » ، توقفنا حتى لا تختلط الحدود وتتشابك بين فقرة وأخرى ، وثالثة أيضا ، ومن هنا ، وإذا كانت الفقرة السابقة تصور مؤثرات عصر الرجل عليه ، فإن فقرتنا الحالية تتجه إلى بيان صور مشاهد تفاعل الرجل مع بيئته ، ومعاشيته لكل هذا « الزخم » العصري ، بمن فيه وما فيه •• تماما كما سنتناول في فقرة ثالثة — بانن الله — كيف قام الرجل بتصوير هذا العصر نفسه وكان خير شاهد عليه •• هل أقول أن جميعها تعتبر من بين الشواهد المؤكدة لجانب صحافة الرجل ؟ أم أنتظر حتى نفرغ من سطورها وكلماتها ؟ أن الأمر يستوى — في رأينا — بعد أن اتضحت بعض ملامح صورة « الجاحظ صحفيا » ولكن مهلا •• فما يزال هناك الكثير !

إن صحفى العصر الحقيقى ، ابن مهنته ، العارف بها وبمتطلباتها فى أى مكان كان موقعه من خريطة العمل الصحفى ، مندوبا كان أو كان مراسلا ، أو مخبرا أو محررا أو رئيسا لقسم من الأقسام النوعية من مثل : « الخارجى — الشؤون العربية — التحقيقات — الفنى » وحتى إن كان من قسم لإخراج أو ما يعرف عربيا بـ « سكرتيرية التحرير » •• وغيرهم وغيرهم — وقياداتهم قبلهم — لابد لأمثال هؤلاء من الالمام بأشياء كثيرة ، ومعرفة أشياء أكثر ، ومثلها وعلى نفس الدرجة من الأهمية ، الانصهار فى بوتقة العمل ، والذوبان فيه إلى أقصى درجة ، بل وإلى درجة « الوجد » و « العشق » أيضا ، فتكون الصحافة « محبوبته » التى تملك عليه لبه وحسه ومن هنا فهو يعيش صحفيا

بطوال يومه .. حتى وهو نائم تقتحم عليه إجلاله وتتداخل معها ، فيقفز من فراشه أحيانا لطلب مكالمه مهمة أو تسجيل فكرة جديدة بسرعة قبل أن ينساها ، أو يحاول تذكرها في الصباح ، فيجد أنها قد تبحرت منذ طلعت عليها شمس يوم جديد يكون حافلا بالعمل ككل أيام الصحفي ، أو هكذا ينبغي أن يكون حاله .. نحن نقول هنا - معشر الصحفيين - ما عبرت عنه - علميا - في سطور سابقة بقولنا ان الصحفي، أى صحفي ينجح لأنه يكون من بين ما يحرص على أن يحققه لنفسه وفي نفسه ، وإلى جانب أشياء وخصائص أخرى عديدة، هذين الجانبين :

#### أولا - المعيشة الكاملة لما حوله \*

ثانيا - الحضور الذهني الصحفي ، لما يسمع أو يشاهد أو يجرب أو يحس ..

.. ما الذى يعنيه هنا بالنسبة لموضوعنا ؟ .. وما الذى يربط بين هذين ، وهما من شروط النجاح على المستوى الصحفي العام والخاص والفني ، وبكل أشكال العمل ، وبين « الأنب الصحفي » عند صاحبنا ، أو جانب الصحافة فى شخصه ..

ولعله يكون من المناسب هنا ، أن يكون مدخلنا الطبيعى الى الموضوع ، يتمثل فى قراءة سريعة ، لسطور من بعض مؤلفاتنا تتناول هذين الجانبين ..

● - أما عن الجانب الأول - المعيشة - فأننا نقرا قولنا عن هذه النقطة أنها : « المعيشة - الصحفية هنا - الكاملة لكل هذه المصادر المتنوعة - المعيشة الكاملة للناس والمشاهد والصور التى يمر بها من زاوية لمكانية أن يوجد بيدها ذلك المشهد أو تلك الصورة ، أو ذلك التعليق الشفهي ، أو تلك الهمة الخافتة التى يمكن أن تتحول الى فكرة موضوع أو حديث أو تحقيق أو مقال (٥) »

● وأما عن الجانب الثانى - الحضور الذهني الصحفي - فأننا نضيف قراءة قولنا :

انه يكون مثل حضور ممثل المرح وهو يقدم دوره على خشبته ، ويميشه تماما ، انه ايضا ، الحضور الصحفي لكل ما يسمع أو يرى أو يقال ، فلا تكفى المعيشة الصحفية وحدها ، وانما لابد من جانب « الاثارة » نحو ذلك الموضوع أو الفكرة أو المشهد الذى لابد من التوقف عنده ، والكتابة عنه بما يعكس هذه المعيشة نفسها ومن هنا فالحضور هو أبرز الخطوات الصغيرة أو الفرعية التى تتم من خلال هذه المعيشة وتتفاعل معها . . . . . وحيث يصدق قول القائل : « المادة الصحفية عامة ، والتحقيقات والمقالات خاصة ، هى بنات شرعيات للأفكار التى لن تأتى بغير حضور صحفي كامل » (٦) .

. . . . . وإذا كان ذلك كله ، على الرغم من اختصار ما قرأناه ، يقترب بنا من حقيقة ما تناول ويؤكدده أيضا ، فإنه يعنى عندنا أن نعود فنتساءل فى مدخل آخر « مفتاحى » وأكثر اقترابا من الموضوع نفسه ، مع تركيز هنا - بشكل وقتى فقط - على الجانب الأول ، وإلى حين . . . نقول ، نعود فنتساءل : هل كان الجاحظ « معاشيا كاملا » لما حوله من أحداث وصور ومشاهد وزوايا ازدهم بها مجتمع « آل عباس » وشهنتها حواضر « العباسيين » ويواديهم ، وزخرت بها مساجدهم ومكتباتهم ، وضجت بها ، أو تلات ، دورهم وقصورهم ؟ . . .

هل عايش الرجل ذلك كله ويأحساس مسئول ، وانخرط فيه ، وذاب معه ، وشقه الوجد بصوره ، وأخذ العشق بملامحه ، أم انه وقف بمنأى عنه ، وعن أحداثه ، ويمعزل عما تتابع من ألوان نشاطه ؟

وفى تعبير آخر ، قد يكون هو الأكثر بقاء ، ونحن نتحدث عن واحد من أبرز رواد البيان العربى نقول : هل تم التفاعل بين الرجل وبينتسه وعصره ، شأن كل مفكر عظيم وأديب خالد ، وصحفى قدير ؟

من خلال هذه الزاوية الصحفية نقول ، ونقدم صورا ومشاهد معضدة ومؤيدة : وبطبيعة الحال ، فإنه لا يمكننا - فى هذه العجالة - الاحاطة بكل ما كان ينبغى عليه - كرجل أدب وصحافة معا - أن يتفاعل معه ، أو يشترك فيه ، أو يفتح أتونه ، مما كان يمر به هذا العصر ، ويصطخب فى عيابه ، فحسبنا هذه الصور المختلفة كلها :

### ( أ ) فى المجال الدينى العقائدى :

وإذا كنا قد اشرنا من قبل فى سطر واحد الى أن الرجل قد رأس إحدى طوائف أو فرق « المعتزلة » وتحدث بلسانهم ، فافئنا نفسر هذا الكلام كله ، ونضيف اليه مزيدا يلفت النظر الى هذه المشاركة الفعالة ، أو المعيشة الايجابية ، لما كان ينتشر فى عصره من نزعات ومذاهب ، نقول عنها وعنه :

إذا كان من المعروف تاريخيا ، أن مسألة « الخلافة » هى الموضوع الأول الكبير الذى نب بشأنه الخلاف بين أمة المسلمين ، وتكونت حولها فرق الخوارج والشيعة ثم المرجئة والمعتزلة الذين ينتسبون الى « واصل بن عطاء » الذى اعتزل مجلس استاذة « الحصن البصرى » على أثر مخالفته له مع « عمرو بن عبيد » واستقلالهما بنفسيهما فى مسألة الكبيرة ، الى جانب تفسيرات أخرى عديدة لهذه التسمية (٧) ٠٠

المهم أن أبرز تعاليمها الاعتداد بالعقل وحرية الفكر ٠٠ ولم يكتف الجاحظ بأن كان من أتباع شعبتها الأساسية ومقرها البصرة ، بل انخرط للرجل فى هذه الفرقة ، وحارب مع قادتها بالوعى والفكر والدعوة الى العدل والتوحيد والمنزلة بين المنزلتين بالنسبة كمرتكب الكبيرة وكان له فى ذلك مواقف وكتابات عديدة ، خاصة فى مجال الدعوة الى أعمال الفكر واستخدام العقل والحرية المسئولة وعدم تقييد العقل والفكر ، كل ذلك مع ايمان كامل بالله ، وقدرته وعظيم صنعه فى خلقه ٠٠ بل لقد نشأت عن مواقفه مدرسة معتزلية جاحظية كاملة ، شأن قادة الفكر المؤثرين ٠٠ ومن ذلك يقول أحد الدارسين ٠٠ « ٠٠٠ وهكذا تقوت على يدهم — يقصد أساتذته كالأخفش والنظام وغيرهما — نزعته العقلية الى أن اكتملت شخصيته الفكرية فكون مدرسة مستقلة عن بقية المعتزلة سميت بالجاحظية » (٨) .

### ( ب ) فى المجال الفكرى والعلمى والثقافى :

٠٠ وإذا كان الجاحظ — شأن كل قائد فكرى وأديب ملتزم وصحفى متفاعل — لم يرض الا بالدور القيادى فى صفوف المعتزلة ، وطور من أفكارهم وآرائهم ، فإنه كذلك فى مجالات الفكر والعلم والثقافة الأخرى ٠٠

ان نظرة على مشاركته الجادة ، في المجالس والدور والقصور والمنتديات الفكرية في عهده لتؤكد ذلك كله ، وان جولة مع العديد من مؤلفاته ، في هذه المجالات المتعددة ، لتضيف الى ذلك مزيدا من التأكيد ، واننا كنا — في سطور اخرى — سوف نشير الى هذه المؤلفات والتصنيفات المتعددة ، فاننا هنا نقول :

— فهو لم يترك مجالا معروفا ، الا درسناه وألف فيه

— وهو قد سبق الى موضوعات وأفكار جديدة ، لم يتوصل اليها احد من قبله ، وبذلك بلغ قمة تفاعله مع حضارته ، وتأثيره بالايجاب في صورها ومشاهدتها .

— وهو قد قدم لمجتمعه وتاريخ الادب والعلم زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفا في ألوان شتى من المعرفة . . . رأى أكثرها في مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزي المتوفى ٦٥٤ هـ ، (٩) . . . الا يعني ذلك أنه من واضعي أسس الموسوعية وصلاتها وثيقة — كما قلنا — بصحافة المجلة ، وتاريخها .

#### ( ج ) . في المجال اللغوي والأدبي :

أما في هذا المجال ، أو في هذين المجالين ، فمن المؤكد أيضا ان كتاباته ، وان دراساته ، وأن كلامه ، وأن لغته ، وأن أسلوبه ، جميعها ، قد امتدت الى آخر ما وصلت اليه هذه كلها في عصره ، وتفاعلت معها ، وهضمتها ، وخبرتها ثم ، راحت بعد ذلك ، ويفعل هذا الحس اللغوي والأدبي والمجتمعي النادر المثال وكأثر للثقافات المتنوعة ، والمترجمات العديدة التي راح يغترف منها ، ويقتنص فرصتها ويرد ينابيعها المتدفقة من حضارات اخرى عديدة ، راحت ، العبقرية الجاذبية بعد ذلك كله تقدم لغة صريحة متطورة ، وعصرية ، وأدبا جديدا في فكره وموضوعاته ، لم يعهده الناس من قبل ، ولم يكن للمجالس أو المنتديات أو أهل الدور والقصور معرفة به ، بعد أن أعمل فكره ، وسلط بصيرته النافذة ، وأطلق عينه الفاحصة المدققة ، على مجتمعه ، ومن ثم راح يقدم لنا هذا الأدب الواقعي ، الذي نقول هنا ، ان المسافة كانت قريبة جدا ، بينه وبين الأعمال الصحفية بل لقد اختلطت المسافات والمساحات وذابت

الحدود والألوان وأصبجتنا - باستثناء طابع العصر نفسه - في حاجة إلى عين خبير ، لتفصل بين ما هو أدبي ، وما هو صحافة ولذلك ، قلنا ونقول ، أن هذا النتاج نفسه كان أدبيا صحفيا رفيع المستوى ، بل أن نصفه كان للأدب ، ونصفه الآخر للصحافة ..

والأكثر من ذلك ، أن لغته قد طارعت تماما ، وإن ثروته من الألفاظ والمفردات قد أعانتها على تقديم هذا اللون الجديد من الأدب الحي الواقعي الذي يعيش بين الناس ، ويتحدث عنهم ، وبهم ، ومن هنا فقد قيل عن ذلك كله ، وعن حق وجدارة أيضا :

● فمن أدبه يقول أحد الدارسين الذين أشرنا إليهم من قبل : « .. ومن هذه المظاهر أنه أدب واقعي لا أدب خيالي ، وهذه الواقعية تظهر في نواحيه المختلفة ، ومنها أنه يعتمد على إبراز الصورة كما يراها الرائي وكما يرسمها المصور لا على الصور الخيالية » (١٠) .

● وأما عن لغته وأسلوبه الذي عرف به ، فإننا نكتفي هنا بهذا القول الذي يتناولهما ، مما يقربنا من الأسلوب الصحفي ، وهو موضوع دراسة خاصة خلال الفصل الأخير من هذا الكتاب .. يقول دارس آخر للغته أو « للنزعة الكلامية » عنده : « .. لم يكتف الجاحظ باختيار ألفاظ مطابقة للمعنى مطابقة مادية فحسب ، بل أنه اختارها سهلة المخرج ، متلائمة الحروف ، موسيقية مناسبة صوتا للحركة المعنوية ، تتوافر في مقاطعها صفة التجانس بين اللفظ والمعنى أما من حيث السهولة والسهولة فإننا نعرف أن الكلمات الكثيرة الأحرف تعد بوجه عام من الكلمات الصعبة » (١١) .

#### ( د ) في المجال الاجتماعي :

عرف الجاحظ مجتمع العباسيين وخبره ، ورأى صورته المختلفة ، الإيجابي منها والسلبي بل وانخرط في بعضها ومارسه ، ولكنه - من زاوية صحفية - كان كغيره من المحررين ، من ذوي الاختصاص العام ، أو غير العام ، أضاف إلى معرفته بهذا المجتمع ، بناسه ورجاله وسامته وعلمائه ولغوييه وثواره ، وحتى أكثر جوانبه رمادية ، أو حتى أكثر مواقع ثوبه الزاخرة بـ « الرقع » .. أضاف إليها التفاعل الإيجابي ، المتمثل ليس فقط

فى نقل صورده ومشاهده فى واقعية وصديق ، وليس فقط فى جانب رواية ماكان .  
يجرى ، أو وصف ما كان يدور هنا أو هناك ، فى المساجد والمنتديات والدور  
والقصور والأسواق وأحيانا الزنج ومجتمعات الفارسيين والروميين ،  
والكتبات وغيرها ، وغيرها ، وإنما وبإضافة النقد الاجتماعى إليها وكان هذا  
النقد يبلغ فى أحيان كثيرة ، مرتبة حادة ، أكثر من حساده وخصومه .

بل اننا نستطيع أن نقول أن جوانب نقده ، قد غطت صور السلب فى  
مجتمع العباسيين كله ، بل وامتدت من المجال الاجتماعى ، أو المجتمعى ، الى  
غيره من المجالات لا سيما المجال السياسى نفسه ، شأن كل اديب وصحفى .  
متابع ، متفاعل وملتزم . . . وإذا كنا هنا نكتب عن ذلك كله باختصار شديد ،  
لأن حياة الجاحظ وفكره وجوانب شخصيته تحتاج الى أكثر من مجلد ، فاننا  
نكتفى بهذه الكلمات ، نضيف إليها — كمايتنا — قولاً لأحد من اقتربوا من  
الرجل ، أكثر مما اقتربنا . . . وذلك عندما يقول :

« . . . يكفى أنه نبه على فساد أوضاع حاولت ثورة الزنج ٢٦ رمضان  
٢٥٥ هـ - أغسطس ٨٦٩ م — أن تقوم منها ما قدرت على التقويم وفهمه ، وربما  
بدت المغالاة فى تلك المقالة إلا أن من يقرأ كتاب البخلاء الذى وضعه الجاحظ  
فى آخر أيامه ، الى جانب بعض رسائله التى ترتفع أحيانا الى مستوى  
الكتب النادرة ، يلحظ أن صاحب الزنج أو قائد الثورة ، كان ينطلق فى الواقع  
من حيث انتهى صاحب البخلاء ، . . . (١٢)

فهل يعنى ذلك ، أن كتاباته ، كان لها أثرها فى قيام هذه الثورة شأن  
جميع الكتاب المؤثرين ؟

بل لقد قمنا بعمل احصاء لهذه الفئات والصور والمشاهد والأشخاص  
الذين تناولهم نقده الاجتماعى ، وقلمه الذى اعتبره ترمومترا ، لقياس درجة  
حرارة هذا المجتمع بما فيه ومن فيه ، فبلغت أكثر من مائة فئة وصورة ومشهد ،  
كان من بينهم على سبيل المثال لا الحصر :

« الذين يأكلون على جميع الموائد — المتلونون — الماديون — المنجمون —  
المتحذلقون — الدجالون — البخلاء — العصبيون — الجشعون — المستقلون —

الاطباء المزيفون - المسرفون في تصوفهم وزهدهم - العسامة الجاهلة -  
المتشددون بما ليس فيهم - المقرورون - الذين يشوهون الحقائق - الذين  
يفسرون الأشياء والظواهر على هواهم - الرواة - رواة الأخبار من البحريين  
- العامة الجاهلة - المترجمون - الخ ٠٠

ونكتفى بهذا القدر ، حتى لا تختلط الأوراق ، ونقتحم مجال الحديث  
عن الجاحظ المؤرخ أو شاهد عصره ٠٠ كما ستصوره السطور القادمة بأن  
الله ٠٠

#### ( هـ ) في مجال الامتاع الفكاهي :

لكننا في هذا المجال السابق نفسه - مجال النقد الاجتماعي - لا بد وأن  
نتوقف قليلا ، لنشير الى أن هذه الحاسة نفسها - الحاسة النقدية الأدبية  
الصحفية المجتمعية معا - قد امتدت به واطلعتنا على جانب آخر من جوانب  
شخصيته المتفاعلة مع مجتمعا ، المؤثرة فيه ، المتأثرة به ، والراغبة في  
تحويله من حالة الى حالة ، ومن صورة الى صورة ٠٠

أما هذا الجانب ، فهو جانب الفكاهة عنده ، فانه لما رأى الثغرات تنتشر  
بجوانب السلب تزخر بهذا المجتمع ، كانت الفكاهة بمعناها القريب من الأدهان ،  
هي أحد أسلحته النقدية التي أحسب أنها حققت - مجتمعا - ما كان يجب أن  
تحققه ، كما قدمت لنا إحدى مقدمات وطلائع «المقال الكاريكاتيري» ٠٠ وهو  
أدب صحفى من الدرجة الاولى ٠٠ نكتفى هنا بالإشارة الى أن الرجل يعتبر  
فارسه بلا جدال ٠٠ وإلى ذلك يشير أديب كبير قائلا : « ومن مفاخر تراثنا  
أن نرى الجاحظ يرسم بنثره ما يرسمه هذا الفن المعاصر الذى نسميه  
الكاريكاتير هذا اللون من الكتابة الذى مارسه عندهم - الغرب - فى القرن  
العسادس عشر وأبين فى كتابه - الأحلام المضحكة - كما نجده عند إيراسم فى  
كتاب تمجيد الحماسة ٠٠٠ ، (١٢)

ونكتفى بهذا القدر من صور التلاحم وننتقل الى صورة أخرى ، أو  
جانب آخر هو :

## شهاد على العصر

ان المعاشة لما يدور حول الانسان من صـصور ومشاهد ، مهما كانت درجتها أو درجة تأثيرها عليه فكرا وعملا وأداء ، ومهما بلغت شدتها ، لا تكفى وحدها لكي تصنع منه كاتبا ، أو مفكرا ، أو أدبيا ، أو صحفيا ، خاصة ، هذا الأخير ، كما نعرفه وتعرفه المساحات الهامة المؤثرة ، والتي تستقطب أنظار القراء ، على صفحات جريدة أو مجلة .. أقول ، ان هذه المعاشة وحدها لا تكفى لكي تصنع منه أمثال هؤلاء وانما ينبغي أن يتبعها هذه الصور ، كلها أو بعضها ، وبدرجات متفاوتة ما بين أديب وأديب ، ومحرر ومحرر ..

— رؤية خاصة لها — الأحداث والصور والمشاهد — الجليل منها والحقير ، العظيم والثقافه ، الواضح والغامض ، البين والمستتر ، دون اهمال لجانب منها .

— حضور ذهني يلوح ما يمكن أن يحظى به بعضها من جوانب أهمية حالية أو متوقعة .

— استجابة لما يمكن أن يسفر عنه بعض هذه الأحداث والصور والمشاهد من دلالات ونتائج حالية أو مستمرة تستقطب اهتمامات القراء .

— اختيار هذه كلها ، ورصدها وثبتها .. تمهيدا لأعمال الفكر حولها ، والبحث عن عللها وأسبابها ، وما يتصل بها أو يتفرع عنها من قضايا ذات أهمية أدبية أو علمية أو سياسية أو دينية أو تاريخية أو مجتمعية .

— ثم التعبير عنها ، بعد استقراء واستنفاذ وتجربة ودعم مادتها .

— في شكل فني أدبي أو صحفي معين ، أو هما معا

— وتقديعها للقراء بعد ذلك كله ، وبعد تحرير وحداتها الفنية المختلفة وصياغتها بالأسلوب المناسب لمادتها ، وإن ينتظر أن يقبل عليها من القراء قراء الصحف والمجلات كما نعرفها اليوم ، وقراء الأوعية ، الأدبية والصحفية خلال هذا العصر .. عصر الجاحظ .

ان المعاشية الكاملة ، ينبغي أن تترجم الى مثل ذلك ، والا كان الأديب-  
أو الصحفي كغيرهما من العاديين من الناس ، أو اكتفيا بالجلوس في مكان-  
النظارة « أو « مقاعد المتفرجين » وهو ما لم يعهد الناس منهما ، ولا يرتضيه  
لهما أحد ، وإنما يكون عليهما - جزاء ما منحهما الله من فكر وموهبة - أن  
يترجما ذلك التفاعل ، وأن يحولا ذلك الانصهار مع أحداث العصر ، الى مادة  
مقروءة ومسموعة ومشاهدة ، يكون فيها راحة للقلوب ، وملذا للتنفوس ،  
وثناء للعقول وتنمية للفكر ، وتوجيها وتنقيفا وتعلينا ، وحثا على الخير  
ودعما للدين والوطن ومشاعر الانتماء اليه ، بل ويكون فيها امتاعا يجلو حسنا  
العقول ومؤانسة تضيء جنبات القلوب ، وترقيها يجدد النشاط ويغسل العقل.  
مما علق به من أدران ويزيل كدر النفوس القلقة المعذبة المؤرقة .. تماما كما  
يكون فيها من زاوية الصحافة هذه المرة ، وبالإضافة الى ذلك كله ، اعلاما  
للقارئ بما يهمه ، واطلاعا له على ما يتصل ببيومه وغده وتوضيحا وتفسيريا  
يساعده على تلمس الطريق واختيار الأصلح واتخاذ القرار ، كما تقدم له -  
ما يترجم اليه هذا التفاعل من مواد وانماط - حلا لمشكلاته التي تعذبه أو تؤرقه،  
وتوجيها مشعرا نحو الخير والعدل ، وتأبيدا وتعصيда لقيم مجتمعه ومثله ..  
وغيرها ، وغيرها ..

تلك هي ما ينبغي أن يسفر عنه هذا التفاعل ، أو هذه المعاشية ، فعلا  
بإلك ونحن لا نتحدث عن أديب أو محرر عادي ، وإنما نحن نتحدث عن  
« الجاحظ » ؟

وبلا تردد نقول أن الرجل الذي شهدناه خلال الفقرة السابقة ، يعايش  
أحداث عصره معاشية كاملة ، في جوانبها المختلفة التي ازدحم بها هذا العصر  
نفسه دينية وعلمية وثقافية وأدبية واجتماعية ، وحتى ما اتصل بها من جوانب  
الفن والطرب أو اللعب واللهو .. وقدما معاشته لهذه كلها .. عدة صور  
مختارة ..

نقول أن الرجل الذي فعل ذلك ، لم يكن من النوع الذي يقتنع بالجلوس  
في صفوف المتفرجين ، أو المستمعين فقط ، ما تقدم منها أو ما تأخر وإنما  
وكما شهدناه غير مرتض بالوقوف كجزيرة معزولة ، وسط بحر من الأحداث  
المتلاطمة ، بل مشاركا في تحديد مسارات بعضها ، وصنع البعض الآخر منها،  
وتوجيه دفة البعض الثالث ، والمعارضة القوية لبعضها الرابع ، والتأييد

عبرجائه وعن وعي كامل مثله لبعضها الخامس ، وهكذا فاننا نقول أيضا أنه لم يتوقف عند هذا الحد من المشاركة « الشفهية » أو تلك التي تقوم لتهنأ بعد حين ، أو هذه التي تتم داخل المساجد ، أو في الدواوين أو القصور أو الدور أو المجالس المختلفة مركزة على عشرات أو مئات الحاضرين حتى وأن كانت تنتقل بعد ذلك منها إلى غيرها من مجتمعات بغداد وآبصرة وسامراء ، والكوفة ، والتجف ، وكربلاء والآبصار والزبير ، وحتى خارج العراق أيضا ، لم يكتب الرجل بذلك كله ، لأنه يحسه الفني والجاهلي ، يعرف تماما أن صناعته هي الكتابة ، وأن الله قد يسرها له ، ويذر بذرتها في صدره ، لا لتظل حبيسة هذا الصدر ، أو تخرج في مثل هذه المجتمعات وحدها ، وإنما — وكل أديب وصحفي — لتصل بين الناس ، وتصل إليهم .

ومن هنا ، فقد راح الجاحظ يكتب في ذلك كله ، وينقل صورة ذلك كله ، حتى لم يترك كبيرة ولا صغيرة في مجتمعه بكل هذا الذي ازدحم به واضطرب في جنباته وثار على منطحة أو في أعماقه ، أو قريبا من هذه الأعماق ، بما تريد في أركان الدواوين ، وساحات المدن والأسواق ، وفوق رمال الصحراء ، وتحت قباب المساجد وفي ظلال القصور الأسطورية ، وفي دهاليز الأحياء الشعبية ، جامعا بين ذلك كله ، وبين قراءاته في بطون الكتب ، ومعاشرته للعلماء والأخذ عنهم حتى اجتمع للقراء منها لم يجتمع من آخر . ومن ثم فقد استحق ككل مفكر وأديب وصحفي مشارك بالإيجاب لا السلب ، وبالفعلية لا الهامشية ، وبالقوة لا الضعف ، وبالنشاط لا الخمول ، وبالمقول والفعل ، والشد والجذب ، والهدوء والصخب ، هذه التعبيرات التي تطلق على أمثاله من هذا النفر . خاصة من الكتاب الصحفيين .

فهو « شاهد على العصر » ، وكتابات مرآة للسنوات التي عاشها ، بل أن هذه الكتابات الجاحظية نفسها ، والتي تمثل هذا التراث الضخم المتنوع ، لتمثل أيضا إذا نحن رحنا تقسمها ونجزئها ، خير شاهد على صحافة عصره ، بالأسلوب المخطوط نفسه والذي جمع كل هذه الألوان السائدة ، والتي كانت جديدة على الناس والقراء وقتها ، وأحسب أن بعضها ما يزال يحتفظ بحدته حتى اليوم ، إلا بالنسبة لدارسي الأدب عامة ، أو متابعي الجاحظ خاصة .

وقبل أن نعود إلى هذه النقاط بالتفصيل مرة أخرى ، في فقرة خاصة توضح بعض معالم « الجانب الصحفي » عند رجلنا ، وقبل أن نقدم « شهادة

الأهل ، التي تتصل بهذه الزاوية ، زاوية الجاحظ الأديب الصحفي شاهد عصره ومراته ، بكل هذه المعايضة والحضور ، وبيع بعض ما أسفر عنه من تاريخ صحفي « تقوم بإلقاء نظرة الطائر على كتابات هذا الرجل ، نقرأ فيها عصره ، ونشاهد — في مراتها الصادقة — صورة وملاح ذلك العصر • بل أننا في هذا السبيل ، وحتى يكون حديثنا مستمرا ، ولنصل من الكلام ما انقطع ، فأننا نختار عددا من المجالات السابقة نفسها التي عايشها الجاحظ ، ثم نقوم بالنقاط أجزاء من رصده لها واختيار الصالح منها ، ومعالجته إياها وتصويره لدقائقها ، مما لا تقع عليه ولا تدركه بنفس هذه الدرجة غير عين أديب أو صحفي ، أو أديب صحفي ، أو صحفي أديب ، ثم تقديمها للقراء • تقديمها مناسبا لها ولهم في شكل ومضمون غلب عليه الطابع الأدبي مرة ، والصحفي مرة • وهكذا ••

● فعلى سبيل المثال لا الحصر ، من قوله عن هذه الطائفة التي انتشرت في عهده والتي تسمى الزنادقة ، وما اتصل بكتبهم والتأليف عموما قوله ( نقد أدبي ومجتمعي وسياسي ) •• « لو كانت كتب الزنادقة كتب حكم وكتب فلسفة وكتب مقاييس ، وستن نبين وتبين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعرف الناس أبواب الصناعات أو سبل الكسب والتجارات أو كتب ارتفاعات ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب — وإن كان ذلك لا يقرب من غنى ولا يبعد من مائمه — لكانوا ممن يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان ، والرغبة في التبين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ، والذي يدل على ما قلناه أنه ليس في كتبهم مثل سائر ولا خبير طريف ولا صنعة أدب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية ولا تعريف صناعة ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحية ولا تدبير حرب ولا منازعة عن دين ولا منازعة عن نحله •• لا ترى فيها موعظة حسنة ، ولا حديثا موفقا ، ولا تدبير معاش ، ولا سياسة عامة ولا ترتيب خاصة ، فأى كتاب أجهل وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الطاعة والتخرج بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين والناس لا يحبون إلا دينا أو دنيا •• »

● وإذا كان قد أوضح بذلك رأيه في الكتب والكتابة الهادفة ، وأعلن عن واقعية تفكيره ، فأننا نقرأ له في جانب آخر وهي هنا عدة صور من كتابه: « البخل » •

وكان رجل يغشى طعام الجوهرى ، وكان يتحرى وقته ولا يخطئ ، فإذا دخل ، والقوم يأكلون وحين وضع الخوان ، قال : « لعن الله القدرية من كان يستطيع أن يصرفنى عن أكل هذا الطعام ، وقد كان فى اللوح المحفوظ أنى سأكله ؟ » فلما أكثر من ذلك ، قال له رياح : « تعال بالعشى أو بالغداة ، فإن وجدت شيئا قالعن القدرية والحن آباءهم وأمهاتهم » (١٤) .

وجاء غلام الى خالد بن صفوان . . يطبق خوخ ، اما أن يكون هدية ، . ولما أن غلامه جاء به من البستان . فلما وضعه بين يديه قال : « لولا أنى أعلم أنك قد أكلت منه لأطعمتك واحدة » (١٥) .

● ونعود مرة أخرى الى رؤيته لبعض جوائب الطوائف التى شاعت فى مجتمعه ، فيصور بذلك هذه الزاوية من زوايا عصره ، وما حقل به من فرق ومذاهب وشيع وجماعات . . ليثبت بذلك كله ، ويصور عديدة أخرى ، هذه الشهادة الجاحظية على عصره ، انظر قوله عن طائفة « المانوية » . . أصحاب مانى بن فائك الذى أخذ مذهبه الدينى من المجوسية والنصرانية . . يقول الجاحظ :

« ان أناسا حين جهلوا الأسباب والمعاني ، وقصروا فى الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها ، خرجوا الى الحجود والتكذيب ، حتى أنكروا خلق الأشياء ، وزعموا أن كونها باهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا دارا قد بنيت اتقن بناء ، وفرشت أحسن فرش ، وأعد فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآذب ، ووضع كل شيء من ذلك فى موضعه على صواب وتقدير فجعلوا يسمعون فيها محجوبة أبصارهم ، فلا يبصرون هيئة الدار وما أعد فيها ، وربما عثر الواحد منهم بالشئ ، قد وضع فى موضعه وأعد لشأنه وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمر وسخط وذم الدار وبانيها . . » (١٦) ويضيف قائلا . . « فهذه حال هذا الصنف فى انكارهم ما أنكروا من الخلقة ، وأنهم لما غيبت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعقل فى الأشياء ، صساروا يجولون فى هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه فى اتقان خلقتهم ، وصواب هيئته ، وربما وقف الواقف منها على الشئ يجهل سببه والأرب فيه ، فيسرع الى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والاحالة ، كالذى أقدمت عليه وجاهرت به المانوية الكفرة » . . الخ (١٧)

كانت هذه مجرد قطرات قليلة من ذلك الغيث الأدبي الصحفي ، الذي صور به مجتعه بما فيه ومن فيه ، أو كانت عدة نقساط من ذلك « المحيط الجاحظي » الذي انعكست على صفحته الهائلة حيناً ، غير المستقرة في حين آخر ، الثائرة في أحيان كثيرة ، لكنها الصادقة الى أبعد حدود الصدق ، الأمانة الى أبعد حدود الأمانة وذلك في حدود ومئات البحث العصرية المتاحة انعكست على هذه الصفحة ، أحداث ووقائع وظواهر وعلوم وفنون وجسد وفلسفة وأدب وأشخاص وعادات وتقالييد وجد ولهو ولعب وتفاهاات وقيان ورقيق وفساد ولصوص عصره ، تلك التي عاشها وخاض غمارها ، ورآها بعيني أديب وصحفي معا ، وعبر عنها تعبير الرجلين معا . .

لكنني وحديثي عن الجاحظ ، لا أترك هذا المجال أيضاً ، دون أن أتوقف قليلاً لاستشهد مرة أخرى - بأقوال من هم أقرب مني الى ساحته والى تراثه ، أو من سبقني الى الوقوف على مشاركته ، أو خاضوا عيابه ، وخبروا أمواجه . . بالعلم ، والعلم وحده .

★ ان واحداً من هؤلاء يقول ، بعد أن يعدد جوانب تخصصه العام الذي أخذ فيه من كل بستان زهرة وعلى سبيل المثال لا الحصر : . . وكما مثل الجاحظ حرية الفكر في عصره ، مثل أيضاً نتيجة تلك الحرية وهي مزبوجة : نتيجة حسنة هي ازدهار العلوم العقلية ، ونتيجة سيئة هي الانحلال في العقيدة والأخلاق فمثل الجاحظ في آثاره تشعب الحركة الفكرية وانطلاق العلوم واتساع الآفاق . . ومثل الجاحظ من جهة أخرى الأخلاق والعقائد وأظهر انحلالها في فئات من أهل عصره ، فصور حيل التجار وخزعبلات المتسولين ومخافات الشبان المتخشين وزندقة المتزندقين وما أشبه ذلك من ضروب الفساد « (١٨) .

★ وبعد أن يتحدث عن بعض معالم طريقته الفنية وأساليبه تناوله للناس والأشياء والصور والمواقف في عصره ، وهو ما سنخرج عليه بعد قليل بأنن الله ، يقول أحد رواد الدراسات الأدبية العربية : . . « اننا نجده يعني بحكاية عصره وتمثيله تمثيلاً دقيقاً بحيث تعد أعماله أهم مراجع تكشف لنا حقائق العصر الذي عاش فيه » (١٩) .

★ ويقول الأستاذ نفسه في مكان آخر . . وفي معرض حديثه عن هذا

الموضوع : « أما بعد ذلك فإنه كان مصورا عظيما ، إذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسعفه في ذلك قدرة غريبة على الملاحظة ، وهي قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة ، كما يحسن القصص من جهة أخرى » (٢٠) .

وهكذا يبدو الجاحظ الكاتب الواقعي ، القريب من الناس ، المعاشيش لهم الصور لعصره ، بكل ما فيه ومن فيه من صور الإيجاب والسلب ونكتفي بهذا القدر من النقاط التي تقف مؤيدة لشهادته على العصر ، ودقة وصدق وحالية وواقعية تصويره له . . . وهي . . . في مجموعها . . . تمت بصلة نسب غير منقطع ووشائج قرى « أصيلة » إلى المادة الصحفية . . . كما سنضيف إلى « مصداقية » ذلك ، جوانب جديدة ، تتناولها السطور القادمة بانن الله . . . فإلى نقطة أخرى هي :

### ٠٠٠ وأكثر من حاسة

وإذا كنا قد تحدثنا في سطور سابقة . . . هي السطور الأخيرة من الفصل الثاني . . . عن بعض المعالم الجاحظية ، التي تعتبر من جنس الصحافة ، قدر اعتبارها من جنس الأدب ، أو تلك التي تقف بصاحبها على الجسر الموصل بينهما ، ومع اقتراب من جانبه الصحفي ، وكانت هي على وجه التحديد حسه أو حاسته الاجتماعية وحسه أو حاسته الحافظة ، وحسه أو حاسته الثقافية ، أو النهمة دائما ، الظماي أبدا ، إلى المزيد من الثقافة والمعرفة . . .

إذا كنا قد تحدثنا عن هذه الحواس ، أو الاحساسات عنده ، فإننا هنا تواصل ما بدأناه ، أو نصل من الحديث ما انقطع ، لنقول أنها لم تكن الحواس أو الاحساسات السابقة وحدها ، وإنما تجمع له غيرها ، مما يضعه أيضا في مرتبة أفضل المحررين وكبار الكاتبين ، خاصة في مجالات الأخبار والموضوعات والتقارير والتحقيقات والمقالات بأنواعها خاصة مقالات التجربة الخاصة ، والنقدية والكايكاتورية . . . أما هذه الحواس أو الاحساسات التي نضيفها هنا والتي تصلح لأن تضعه في مصاف هذه الطائفة الموهوبة والموهوبة جدا ، من الصحفيين ، تماما كما هو بين الأدباء ، فإنها :

- ٢ — الحسن السياسي
- ٣ — الحسن الاقتصادي
- ٤ — الحسن الجماهيري
- ٥ — الحسن الفكاهي
- ٦ — الحسن الأدبي
- ٧ — الحسن الفني

أما عن الحسين الأخيرين ، فلا اعتقد أننا نستطيع أن نضيف إلى ما قاله عنه النقاد والمؤرخون ورجال اللغة العربية ، من معاصريه ومعاصرينا ، من عرب وأجانب ، من مؤيدين ومعارضين ، من مستشرقين وغير مستشرقين ، لا نستطيع أن نضيف إلى ما قاله عنه هؤلاء جديدا مؤثرا ، ونكتفي هنا — مؤقتا — بإشارة واحدة مختصرة إلى قول المستشرق المعروف « شارل بلان » والذي جاء فيه ، ونحن معه في ذلك إلى حد كبير ، بعد أن رأينا « العجب العجيب » خلال هذه الرحلة مع كتابات رجلنا ٠٠٠ « ليس هناك كاتب معاصر أو لاحق يشبه الجاحظ » (٢١) ٠٠

على أننا وإن كنا سوف نعود إلى تناول هذين الحسين في سطور قادمة باذن الله ، تتناول « الأسلوب الجاحظي » وصلته الشديدة بالأسلوب الصحفي ، فإننا — باختصار شديد جدا — نحاول أن نحيط ببعض معالم هذه الحواس كلها ، التي تجعل ممن يفوز بها ، أو يتمتع بوجودها في نفسه وصدره ، تجعل منه صحفيا « أنموذجيا » ٠٠ قل أن يوجد مثله في زمانه ، وأقول وفي زماننا أيضا ٠٠ أنها :

#### ١ — الحاسة الإخبارية :

ذلك أن المشاهد للمادة التي كان الجاحظ يقوم بجمعها خاصة من « المصابير البشرية » وعن طريق « السماع » ٠٠ من الملاحظ أن هذه المادة تعكس حسا إخباريا كانت هذه بعض ملامحه ٠٠ التي يعرفها جيدا « مخبرو الصحف » و « مراسلوها » هذه الأيام ٠٠

..... الاهتمام بالجوانب التي ينتظر أن تعكس اهتماما بين أبناء عصره  
..... القيام برحلات وأسفار وزيارات متتابعة للمسواق والأماكن والأشخاص التي يعرف بحاسته وخبرته وتجربته ، أنها يمكن أن تقدم أخبارا  
( الجاحظ )

— القرب والاختلاط الشديد بـ « الاخباريين » في زمنه ، حتى يأخذ عنهم بعض ما يتابعه ويقدم الجديد بشأنه ، ويضيف اليه ما يستطيع ، كما يتعرف على طرقهم في الحصول على مادتهم الاخبارية ، ويختار منها ما يطورها

— الاهتمام بتنوع مادته الاخبارية ، وجعلها تضرب في أكثر من مكان وموقع ، وتتحدث عن أكثر من غرض

— اعطاء عنصر « الشهرة » حقه ، ولذلك فقد كانت عنايته بالغة بأخبار مشاهير عصره من خلفاء وأمراء ووزراء وقادة وقضاة أولا .

— وفي المقابل ، الاهتمام بأخبار « الحوادث » وأخبار « الناس » من تلك التي يعرف تماما أنها تستقطب أكثر من غيرها أنظار الجماهير ، وتكون حديثهم لعدة أيام أو شهور أو سنوات ، انطلاقا من جوانب تشويقها واثارتها ، وتلبيتها لغريزة « حب الاستطلاع » عند أبناء مجتمعه ، والمجتمعات الأخرى عامة . خاصة وقد كان مجتمع العباسيين في صورته « السالبة » يقبل ذلك كله مع وجود هذه الصورة به .

— الاهتمام بجانب صحة المصدر ، والتأكد من ذلك قدر الطاقة ، بمسائله الخاصة ، كما يفعل الصحفيون اليوم ، فما ثبت صحته منها اعتمده وأضافه ، وما لم يتأكد من صحته انتظر حتى تواتيه شواهد هذه الصحة ، وما لم تثبت صحته الغاء وأبعده ، وقد يشير الى ذلك أيضا .

— الاهتمام بجانب ثبت مصدريه ، والإشارة إليها في مقدمة كلامه وأحيانا أكثر من مرة .

— الاهتمام بأن تستقطب أخباره جميع الطبقات الموجودة في مجتمعه ، ومن هنا فإنه لم يقصرها على قطاع واحد أو قطاعتين أو ثلاثة ، وإنما راحت تغطي جميع الأفراد والطبقات والأعمال والوظائف السائدة في عصره ، نعم ، لقد تحدثت أخباره عن اللصوص والحواة بأنواعهم ، ولكنها تحدثت أيضا عن العلماء والشعراء وأصحاب الفرق والجماعات ، كما لم تهمل أصحاب الحرف ولا القيان ولا أرباب التجارة ومن هنا ، فقد راحت تغطي جميع المواقع الهامة ، التي يمكن أن يوجد فيها صناع هذه الأخبار ، وفي سبيل ذلك ، فإنه لم يرحل

الى الابدية فقط ، وانما غاص بقسديه فى احياء البصرة ، ودماليزها ، ومستقعاتها ايضا ، وكان « حى الزنج » يجد كثيرا من اهتمامه ، فى نفس الوقت الذى شهدته فيه مجالس العلم ، ومساجده ومنتديات الفلسفة والكلام ، وأروقة المخنيين .. وما الى ذلك كله ..

كان الرجل راوية ، وكان اخباريا ، وكان مؤرخا ، وجميع هؤلاء يتون بصلة قريى كبيرة ، الى رجال الأخبار ، والى مندوبيها ومحرريها دون أن ننسى أو نتجاهل طابع عصره نفسه .. بطروقه واهتماماته .

بل لقد اثبتت بعض كتابات الرجل من تلك التى أشرنا وسوف نشير اليها أنه كان يتمتع ببعض مواهب العاملين فى حقل جمع الأخبار وملكاتهم الفريدة لا سيما : حب الاستطلاع ، والذوق ، والفؤاد المباش الى مواقع الأحداث وصناعها .. بل انه لا بد من وقفة أخرى عند طبيعة مادته الاخبارية تؤجلها الى صفحات قادمة فحسبنا ذلك حديثا عن هذا الجانب .

## ٢ - الحاسة السياسية :

وهى تلك التى بواسطتها يترك الرجل أبعاد ما يجرى فى مجتمعه من أحداث سياسية ، ويعرف كنهها ويصل الى ما خفى من مقاصدها ، ويضع يده على أبعادها ، وتتكون له من خلال ذلك كله نظرة غالبا ما تكون صائبة ، يستطيع بها أن يحكم على مسار الحدث أو القضية وعلى ما وراء الآراء والاتجاهات والنزعات والمواقف ، بل ويمكنه جمع خيوط هذه كلها الى بعضها ، والربط بينها . والخروج من خلال ذلك كلها بالتحليلات التى تصبح فى معظم الأحوال ، وبالنتائج المحتملة أو المتوقعة ، والتى يقدمها للقراء أو يفيد منها هو نفسه فى جوانب اتجاهاته المختلفة ..

وواضح أن هذه الحاسة لا تتكون بين يوم وليلة ، وليس من السهولة بمكان أن يتمتع بها كاتب من الكاتبيين أو أن تتوافر له ، وانما يكون من دون ذلك مشاق ومشاق .. فهى تحتاج الى مثل هذه المعرفة بالأجواء والأحزاب والطوائف وخططها وبرامجها ومعاشيتها ، حاجتها الى الثقافة الحساسة والسياسية ، حاجتها الى معرفة التاريخ المعاصر ، والاتصال بأبطاله وصناعه،

والقرب منها ، ثم حاجتها الى ملكة استقراء وتفسير وتحليل واستنباط للنقائج ، لا تتوافر للجميع وعلى نفس المستوى ٠٠ كما ان التجارب المعلمة تكون خيسر دليل الى هذه الحاسة نفسها ٠٠

ولا احسب ان هناك أحد المتابعين المنصفين ، للعصر وتياراته السياسية يمكنه باستقراء حياة الرجل ، ومعرفة جانب فكره السياسي ، وانتماءاته ، ومعايشته لهذه التيارات ، الا ان يحكم له بتوافر هذه الحاسة مرتين ، مرة من خلال هذه المعاشية نفسها ، ومرة من خلال كتاباته وهو يصور هذه الأحداث ويفسر بعض ما خفى منها ويعلق عليها ويستخلص أبرز نتائجها ، ضاريا المثل من التاريخ والأحداث المماثلة والمقابلة ، ثم ينهى ذلك كله بتوجيه مفيد ومثمر للقراء ، نون ان ينسى في ذلك كله ، ان يهاجم خصومه ، وان يحمل عليهم حملة شعواء يفتد بها حججهم ويفضح أماليهم ويكشف عن قساد ما يدعون له ٠٠ وهكذا ٠٠

أليس هذا هو ما يفعله بعض كتاب السياسة ، أو معظمهم هذه الأيام ؟ مرة أخرى نقول ان دليلنا الى ذلك هو كتابات الرجل نفسها ، واليك طرقا منها ، يتصل بهذا الموضوع نفسه ، موضوع حاسته السياسية ، والكتابات التي تتحدث عنها مما حفل به التراث الجاحظي :

● فهو يقول عن منهجه في الشك كطريق الى اليقين ، ويعد ان يروى إحدى الروايات عن عالم الحيوان : « ٠٠ ولم اكتب هذا لتقريبه ولكنه رواية احببت ان تسمعها ولا يعجبني الا قرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يعجبني الانكار له ، ولكن ليكن قلبك الى انكاره اميل ، ويعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها المرجية له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلمنا » (٢٢) ٠٠ وقد اتبع هو هذا المنهج على المجالين الاخباري والسياسي ، بل والأدبي النقدي معا ٠٠

● وإذا كان قد مر بنا خلال الصفحات السابقة بعض كلامه عن « الزنايقة » كفرقة دينية ، فاننا نلاحظ ان من أهم مظاهر كتاباته وفكره السياسي :

— الاهتمام بالجانب العقلي التفكيرى الشكى التحليلي

— الاهتمام بالمناظرة وطرح الشيء وضده

— الاهتمام بالأساليب الجدلية العديدة ..

● وفي النهاية ، تشير الى دفاعه الحار عن العرب ، كموضوع سياسي وجد اهتماما كبيرا عنده ، وأبدع فيه — ككاتب مقالة سياسي — أيما إبداع ورد على مهاجميهم والطاعنين فيهم ، كما رد على « الشعبوية » واتباعها حتى أفحمهم بالمنطق والحجة ، والجدل السياسي رفيع المستوى ، والثقافة العامة والتاريخية ، التي تبهر القراء .

### ٣ — الحاسة الاتصالية :

يختصر الطريق الى النجاح ، ويقطعه بسرعة وتمكن في أن واحد ، هذا النفر من المحررين أو الكاتبين ..

— من نوى الشخصيات الجذابة

— الذي يزن الكلام على مواضعه ولا يتحدث الا بما يعرف

— حلو الحديث طيبه ، دبلوماسي الكلام

— الذي يضيف الى رصيده من المعارف والأصدقاء كل يوم جديداً

— الذي يحترم الآخرين ، ويقصص عن هذا الاحترام

— الذي قراه لأول مرة وكأنك تعرفه منذ سنوات

— الذي يحرص على حسن علاقاته بالآخرين ، ويدعمها كلما وجد الى

ذلك سبيلا

— الذي يقيد منه جلساؤه ، معرفة وثقافة وأدبا وخلقا ، وحتى في

مجال الملح والطرائف ..

— الأوغيا بطبعهم وطبيعتهم ..

اننا نعبّر عن ذلك كله بالمحرر من ذوى « الحس الاتصالي » ، من ذوى العلاقات العامة الحسنة القوية المدعمة مع الجميع ، خاصة صناع الأحداث وأبطالها ، وحتى هؤلاء الذين يكونون « الصف الثاني » أو « الصفوف الخلفية » فكثيرا ما يكون هؤلاء من ذوى الفائدة الكبيرة التي يقدمونها لأسباب عديدة (٢٢) .

فهل كان رجلنا ممن يملك هذا الحس ، هل كان سهل التعرف والتعارف ،  
يقيم العلاقات ويحرص عليها ، ويزين المجالس بحلو حديثه ، من الأوفياء  
والمعارف والأصدقاء ؟

اننا نقول هنا ، أن عبدا من معالم هذا الحس الاتصالي قد توافر للرجل  
وتاريخه والمجتمعات التي كان يغشاها وبعض الأقوال عنه وكتابات — وهي  
مصادرها إليه — شهادة على ذلك ، أقول عبدا ولا أقول كل هذا العدد ، أو كل  
معالمه ذلك أنه ولعدة أسباب لم يتمكن دائما وفي جميع الأحوال من أن  
يكون هذا الرجل ، ومن هنا أقول أن هذا الجانب قد توافر له بنسبة معقولة ،  
لا بأس بها وفي حدود ٦٥ بالمائة مثلا ، لكنه لم يتوافر بما هو أكثر من هذه  
النسبة ، أما هذه الأسباب فهي :

- ندامة وجهه ونقوة عينيه
- خوف الحساد له من نشاطه وسرقة الأضواء منهم ولذلك فقد  
اجتمعوا عليه ، وحاول هو قدر ما وسعه أن يكون بمنأى عنهم
- جرأته وشدة في الحق ، ومثله لا يرحب به الجميع
- بعض لئيماته السياسية والحزبية والطائفية الحالية أو السابقة  
من تلك التي تغيرت ، أو انقلب الزمن عليها وعلى أصحابها
- تقده اللادع وسخريته المرة بمن يستحق ذلك ، حتى من أصحاب  
هذه المجالس التي كان يغشاها

وإذا كان الدارسون له أو متابعوه أو معاصروه ، وإذا كان هو نفسه  
أحيانا ، جميعهم قد عبر عن ذلك بأقوال عديدة من بينها وعلى سبيل المثال لا  
الحصر ، هذه الأقوال كلها :

● ما يذكر عن بعض حاسديه ، ومؤيديه .. قال أبو القاسم  
السيرافي : « حضرت مجلس الأستاذ أبي الفضل بن العميد فجري ذكر الجاحظ  
فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به ، وسكت الوزير عنه ، فلما خرج الرجل  
قلت للوزير : سكت أيها الأستاذ عن الرجل في قوله .. قال ، لم أجد في مقالته  
أبلغ من تركه على جهله ولو وافقته وبيئت له لنظر في كتبه وصار بذلك  
إنسانا » (٢) .

● وأعجب من ذلك ، ما رواه « المسعودي » في كتابه الأشهر : التنبيه بالاشراف من أن الجاحظ كان يقول : « كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسي فلا أرى الإسماع تصفى إليه ، ولا الارادات تتم نحوه ، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة وأنحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماءهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ويسارعون إلى نسخها ، لا لشيء إلا لتسببها للمتقدمين ، ولما يداخل أهل العصر من حسد من هو في عصرهم ومتنافسته على المناقب التي عني بتشبيدها » (٢٥) .

إذا كان ذلك هو ما حدث بالنسبة لجانب « الحسن الاتصالي » ، ومما عانى منه الرجل نفسه ، فأننى أرى هنا أنه لم يكن شرا كله ، فقد وفر له الوقت المناسب للبحث والدرس والتأليف ، وأبعده — نسبيا — عن حاقديه وحاسديه ومثله يكون له العديد منهم ، تماما كما صرفه إلى دعم وتنمية الحراس الأخرى غير أننى هنا أيضا ، وفي مجال الاقتراب من الجانب الصحفي عند الرجل ، أعود فأقول :

— أنه لم تكن له اليد الطولى في ذلك ، وبمعنى أن ذلك لم يكن موقفه من الناس بقدر ما كان موقف البعض منه للأسباب السابقة ، حتى اليوم يحسدونه ويعارضونه .

— أن ذلك لم يكن دينه دائما ، ولم يكن حظه باستمرار ، بل لقد كان للرجل صداقاته وعلاقاته الطيبة والوطيدة ، بل وكما كان يوجد من يحقد عليه أو يحسده أو يغار من شخصه ويضايقه علما وأتية ولا يرحب به في مجالسه ، فقد كانت هناك أيضا هذه الكثرة التي رحبت به وحفلت بمجالسه واستمعت إليه وأخذت عنه ، وأنصفته ..

... ببين أن ذلك لا يتقى عنه كثيرا هذا الجانب من « المكونات الصحفية » ، لأن بعض المحررين والكاتبين يعيش أيضا هذه الصورة ، وربما لمثل هذه الأسباب أو لغيرها ، بينما الكل يشهد أنه « متصل ماهر » وأن علاقاته تكون جيدة ومفيدة وقائمة ودائمة ، وعلى الرغم من وفاته الذي جيل عليه ..

تلك صورة موجودة أيضا ، وفي الوسط عسدد ناجح ومرموق من المحررين ..

— أن من المؤكد أن هذه النعسية من الضعف القائم في جانب هـذلك الحس الاتصالى عند الرجل ، كان يتجه أولا ، الى هؤلاء الذين ارادوا ابعادهم أو عزله أو عزلته ، وهؤلاء ، ووفقا لنوعياتهم ، لم يكن يرتجى منهم خيرا كثيرا أو حصادا شئرا ، وإنما المر والعلم ٠٠

— وحتى هؤلاء ، فقد قدم بعضهم للرجل فرصة كبيرة ، لتناول مواقفهم ، ومعارضتهم ، وحججهم ، وانكارهم للحق ، فجاءت كتاباته عنهم ، خاصة في جانبها الفكاهى الساخط ، قمة في موضوعها ٠٠ ومثلا ما يزال يحتذى محررو المقالات الفكاهية والكاريكاتيرية ، وغيرهما ، بل كان نقدهم لهم ، فريدا في بابه ، وجميعها سوف نعود إليها في سطور قادمة بإذن الله ٠٠

#### ٤ - الحاسة الجماهيرية :

وبالمثل ، يقرز بعطف القراء عليه ، وتأييدهم له ، ويحيطونه بحبهم ، ويكون مثار اعجابهم ، ذلك المحرر الذى يتمتع بما نطلق عليه تعبير : « الحس الجماهيرى » ومن ثم يتابعونه وتحظى كتاباته باهتماماتهم ، ويبحثون عنها ويتتلمذونها ، ليس لأنه وعلى طريقة بعض المخرجين السينمائيين : « الجمهور عايز كده » ٠٠ أو هذا « نجم شباك » وذلك نجم « رصيف » ٠٠ وما الى ذلك ٠٠

ان الحس الجماهيرى هنا يعنى أولا ، وبإحدى ذى بدء ، هـذه الأمور بعضها أو كلها أو أمثالها :

— أن يكون المحرر مع الجماهير في افراحها واحزانها وربما معهم في هذه الأخيرة أولا ٠٠

— أن تكون قنوات اتصاله بهم وعلى جميع المستويات قائمة وقوية ودائمة ٠٠

— أن تكون لديه فكرة كاملة ومعرفة طيبة ، عما يؤرق منامها ، ويطحن أحشاءها ، ويهدد يومها وغدا ٠٠

— أن يقف الى جانب قضاياها بكل قوة ، لا سيما قضايا الضعفاء ،

والذين ليس لهم سند ، والمظلومين ، والذين يعانون من النكران والجحود ،  
أو يطبق البعض على أنفاسهم ، أو يضطهدهم لسبب من الأسباب ..

— أن يحاول أن يأخذ بيدها ، ما وسعته في ذلك المحاولة ، وأن يفكر  
لها وبها ومن أجلها ، وأن تكون هي مجال فكره ، ومقياس جهده ، ومعين  
مايته ، كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، وأن يجاهد من أجل شق الطرق ، والحصول  
على الفرص التي تتيح ذلك كله .

— أن يمتعها ويؤنس وحشتها ويزيل صبا قلوبها ويبدد قلقها ، قدر  
الطاقة ، ويمقدار ما تسعفه أدواته إلى ذلك فكرا وتعبيرا ..  
والى غير ذلك كله من جوانب تلقى بمسئوليات مضاعفة على كاهل  
المحرر أو الكاتب ولكنها في مقابل ذلك كله ، تكتب له النجاح وتحقق لكتابته  
الذيع والانتشار ، ويكون من ورائها العائد المناسب معنويا وماديا ، بل  
لقد ترفعه الجماهير هنا إلى مرتبة القادة — قادة التفكير — الذين تنتظر  
كلماتهم وتوجيهاتهم وتأخذ بها ، وهكذا يكون أمثال هؤلاء ، محل ثقة القراء ،  
ومحط أنظارهم ، ومبعث آمالهم وسعادتهم ..

.. أننا نتبع هنا طريقة جديدة ، فمن رصيدنا الذي استطعنا جمعه  
من هذا التراث الجاحظ نفسه ، نقدم صورة مما يعكس هذا العصر عند  
الرجل ، مقداره ودرجته وربما ، مما خالف فيه كثرة من كتاب أهل عصره ،  
الذين كان جل اهتمامه وغايته موجهة إلى الخلفاء والأمراء والأثرياء ، ومن  
إليهم .. وصحيح أن ذلك كان هو طابع العصر ، وأن الأديب كان يقسم  
شعره أو نثره ليعيش ، ولا اعتراض لدينا على هذا الواقع الذي أملت الظروف  
نفسها ، ولكن ، في نفس الوقت فإنه لا يسعنا إلا أن نثبت ذلك للرجل ، ومن  
بين صوره على سبيل المثال لا الحصر :

« سكر زبيدة ليلة ، فكسا صديقنا له قميصا ، فلما صار القميص على  
التدويم خاف الببوات — من يبدى زايه — وعلم أن ذلك من هفوات السكر ،  
فمضى من ساعته إلى منزله ، فجعله ارتكازا لامراته ، فلما أصبح سأل عن  
القميص وتفقده ، فقبل له أنك قد كسوته فلانا ، فبحث إليه ، ثم أقبل عليه ،  
فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراعه وبيعته وصديقه وطلاقه لا يجوز ! .. »

وبعد فاني أكره أن يكون لي حبيب ، وأن يوجه الناس هذا مني على السكر ، فردد على حتى أهيه لك صاحبيا عن طيب نفس ، فاني أكره أن يذهب شيء من مالي باطلا ، فلما رآه قد صمم وأقبل عليه فقال يا هذا ان الناس يعزحسون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء من ذلك ، فرد القميص عافسك الله . قال له الرجل ، اني قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبي على الأرض حتى جييته لامراتي ، وقد زنت في الكمين وحذفت المقاييم ، فان أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذ . قال نعم ! ، آخذه لأنه يصلح لامراتي كما يصلح لامراتك ، قال فاته عند الصباغ ، قال فهاته ، قال ليس أنا أسلمته اليه ، فلما علم أنه قد وقع قال بأبي وأمي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع الشر كله في بيت وأغلق عليه فكان مفتاحه السكر ، (٢٦) .

#### ٥ - الحاسة الفكاهية :

وأذا كنا نرى أن كثيرا من الصحفيين الأدباء ، أو الأدباء الصحفيين ، في الماضي والحاضر يتمتعون بقدر لا بأس به من الحاسة الفكاهية ، التي نرى مالا يراه الآخرون ، من جوانب السلب ، ومن الرقع الموحسودة في ثوب المجتمع ، ثم تتبع ذلك نقدا لاذعا يهدف الى الإصلاح ، ويدفع الى العمل على تقديم الحلول ، ويثير من يتناول هذا النقد بما يتضمنه من قدر كبير من التفكه والتندر ، يثيره الى الحركة ، في اتجاه تغطيه ما كشف وستر ما جرت عليه هذه الروح ، وإذا كنا مع بعض كبار الممارسين في قولهم بأن الكاتب ، لابد أن يكون على قدر من الحس الفكاهي ، وأن محرر المقالات الصحفية بالذات يحتاج الى هذا الحس أكثر من غيره من مؤلفي الكتب أو الباحثين . . . إذا كان ذلك كله هو ما يدور ، فمن المؤكد أن « رجلنا » لم تنقصه هذه الحاسة أيضا ، بل كان له من طبعه وطبيعته ، وتجاربه وثقافته ، وجلساته ومخالطته الناس ، ومن عينه « الجاحظة » التي تطول المشاهد كلها ، ومن بصيرته النافذة ، ثم من روح الدعابة المتأصلة فيه ، كان له من ذلك كله الرصيد الطيب الذي يتصل بهذه الحاسة نفسها وما تستطيع أن تقدمه في المجالس ، ودكاكين الرقاقين ، والمنتديات ، وعلى الورق ، مما يبهر حتى قارئ اليوم نفسه ، ويدفعه الى تقبل نتائجها ، من ملح وطرائف ونواذر واللوان نقد وكاركاتير جميعها قديمها قلمه في أكثر من مجال ومقال ، أشرنا في السابق الى بعضها ، وسوف نشير في اللاحق أيضا ، الى بعضها الآخر .

ان هذه الحاسة نفسها ، وان هذا القدر الكبير من تمتع الرجل بها ، كان وراء هذا التتاج المتميز مما اطلق عليه الباحثون تعبير « ادب الفكاهة » . . .  
والذى نستطيع ان نقول انه من ابرز كتابه العرب ، لا بل من ابرز كتابه في العالم كله ، بل من رواده الاوائل كما اشرنا الى ذلك من قبل ، ذلك لان مستوى كتاباته الفكاهية ، ولأن كثرتها وتنوعها . . . جميعها تعطى له هذه المنزلة الرائدة ، فاذا أضفنا الى ذلك ان هذه الفكاهة ، كانت في اغلب الأحوال ذات المضمون الهادف ، الذى يفيد منه الفرد والمجتمع ، فضلا عما كانت تزخر به من معالم هذا الحسن نفسه ، لاسيما في مجال اختيار وانتقاء هذه الصور والمشاهد والمواقف والشخصيات والافكار والقضايا ، التى تعرض لها قلمه اللاذع ، وتحويلها - جميعها - الى عمل فنى رفيع اذا أضفنا ذلك كله ، لعرفنا أى نوع من الرجال كان ، ولازدادت معرفتنا بهذه الحاسة ، . . .  
اننا نقرا - على سبيل المثال - لأحد المهتمين بدراسة هذا الجانب ، دراسة جادة هذه السطور :

● « فالجاحظ كثيرا ما كان يستخدم الاطار الفكاهى ليوجه نقداته الهادفة وسخرياته المرة الى الأنواء الاجتماعية والنقائص الأخلاقية التى يراها فاشية فى الناس من حوله ، فكان يعالج نكيره لها ، ويصب نقمته عليها فى ذلك القالب الأنبى الرفيع ، الذى رأينا أن نطلق عليه : « ادب الفكاهة عند الجاحظ » (٢٧) . . .

● ويقول المؤلف نفسه ايضا : « ويعد الجاحظ اسبق الكتاب العرب احتقالا بالفكاهة ، وحشدا لها فى ثنايا مؤلفاته ، وهو صاحب مذهب مشهور فى مزج الهزل بالمجد ، والخروج بقارئه من أدق المسائل - فلا غرو اذا أن نجد الجاحظ رائدا للادب الفكاهى عند العرب بحسب أنه أول من ابتكر هذا الأسلوب المرح ، وأسبق من عنى بمراعاة ميول قرائه وتقنن فى امتساعهم ، وادخال السرور عليهم ، ابقاء على نشاطهم وابعادا للملل والسأم عنهم » (٢٨) .

واذا كانت هذه - بعون الله - ليست آخر كلماتنا عن هذا الجانب من جوانب الفكاهة عند صاحبنا ، فانتنا نقول هنا أن ارتباط هذه الحاسة الشديد بكتاب المقالات ، وان اتصالها الوثيق بالأساليب التحريرية الصحفية الهادفة الى « كسر » حدة جمود مادة معينة ، ومساعدة القارئ على المتابعة ،

والقبض على « حبل انتباهه » كما يقول المؤلفون الأجانب في موضوعات التحرير الصحفي.. فضلا عن الرؤية الناقدة النافذة المحتجة المطالبة بالتغيير ، تقول أن في ذلك كله ما فيه من جانب صحفي كان الرجل يتمتع به ، إلى جوار هذا الجانب الأنبي .

وفي تعبير آخر ، إن هذه الحاسة الفكاكية قد أنتجت ألبا صحفيا كذلك، مما يقف إلى جوار ما ندعو إليه من لقاء الضوء على « الجاحظ » الأنبي الصحفي معا .

● ● هوامش هذا الفصل :

- (١) محمود أدهم : « فن الخبر » ص ٢١٠
- (٢) أخذ عنى هذا المصدر الخارجى الذى انفردت بذكره على هذا النحو وباستخدام هذه الكلمات ، ضمن كثير جدا مما أخذه من كتابى : « فن الخبر » دون اشارة الى ذلك الا مرتين « ذرا للرماد » وبطريقة خاطئة ، فى هامشه ، وثالثة بقائمة مراجعه التى أخذ كثيرا منها عن قائمة مراجعى بالكتاب المذكور ، ويوقر الخطأ أيضا ، فعل ذلك مكتفيا بطريقة غير آمنة وسهلة الاكتشاف ، وترك بصماته تسمغه صاحب صفحات أطلق عليها اسم : « الخبر الصحفى » وضوابطه الاسلامية ، وقد آليت على نفس التنويه بفعلته كلما جاء ذكر ما نقله عنى دون اشارة الى اسمى ، حتى لا يعود اليها ، هو وأمثاله لما فى ذلك من تثبيط للهمم واضعاف للمعنويات ومجافاة للروح العلمية وأمانة البحث وتعارض مع روح الزمالة ، بل ومع « الضوابط الاسلامية » التى غلف بها هذه الصفحات وظن أنها تعطيه الحق فى العطف على مجهود غيره وابتزاز أفكاره .
- (٣) حسن السندويى : « أدب الجاحظ » ص ١٩٩ .
- (٤) الجاحظ : « كتاب البخل » ص ٢١ عن المقدمة بقلم : أحمد العوامرى وعلى الجارم .
- (٥) محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحليل الصحفى العام » ٢١٩ .
- (٦) من حديث خاص أدلى به الى الباحث المرحوم الأستاذ سليم اللوزى ، بالرياض ١٩٧٦ .
- (٧) للاستزادة ، انظر أحمد أمين : « فجر الاسلام » ص ٢٨٢ وما بعدها .
- (٨) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ » ص ٢٥ .
- (٩) الجاحظ : « كتاب الحيوان » من مقدمة المحقق عبد السلام هارون ص ٥ .
- (١٠) الجاحظ : « كتاب البخل » من مقدمة المحقق د. طه الحاجرئ ص ١٥ .
- (١١) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ » ص ٥٢ .
- (١٢) أحمد كمال زكى : « الجاحظ » ص ٥ - ٦ .
- (١٣) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ١/٢٢/١٩٨٥ ، من مقال بقلم توفيق الحكيم .
- (١٤ - ١٥) الجاحظ : « كتاب البخل » ص ١٢٢ .
- (١٦ - ١٧) حنا الفاخوزى : « الجاحظ » ص ٦٤ .

- (١٨) المصدر السابق ص ٤٦
- (١٩) شوقي خليف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٢
- (١٠) المصدر السابق ، ص ١٦٤
- (٢١) محمد زغلول سلام : « دراسات في الأدب العربي » ص ٤٥٦
- (٢٢) الجاحظ : « الحيوان » ج ٦ ص ٣٤
- (٢٣) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع في جانبه الاختصاصي أقترح العودة الى كتابي : « فن الخبر » لاسيما ما أدرج تحت عنوانين : « مفتاح العمل الاختصاصي » ، « الأخبار من الكبار والصغار أيضا »
- (٢٤) الجاحظ : « الحيوان » ج ١ ص ١٠
- (٢٥) حنا الفاخوري : « الجاحظ » ص ١٨ ، نقلا عن المسعودي
- (٢٦) الجاحظ : « كتاب البخل »
- (٢٧ - ٢٨) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » ص ٥ ، ٦

## **الفصل الرابع**

### **الحاسة الصحفية عند الجاحظ**



خلال الفصل السابق ، تناولنا بالحديث بعضا من الحواس التى يقول  
أساتذة الصحافة وعلمائها بضرورة توافرها بقدر طيب ، فى ذلك الشخص  
الذى يرغب فى العمل المتميز ، وفى ارتقاء سلم النجاح فى بلاط صاحبة  
الجلالة ، حتى يصل الى درجة «الكاتب الصحفي» المرموق ثم قدمنا عدة نقاط  
توضح وجودها مجتمعة . من صدر صاحبنا وفى فكره . .

وبالمثل ، وخلال السطور الأخيرة من الفصل الثانى ، قدمنا عدة شواهد  
على حاسة « الجاحظ » الاجتماعية ، وعلى حاسته الحافظة ، وكذا على  
حاسته الاجتماعية . . .

وذلك كله فضلا عن حاستيه الأدبية والفنية ، ولنا معها وقفة أخرى ،  
من الزاوية التى تعنى هذا الكتاب أيضا . .

أقول خلال سطور عديدة سابقة ، رحنا نقدم هذا الحديث عن وجود هذه  
الحواس جميعها عند الرجل ، وتمتعه بقدر كبير منها ، الى درجة يحسده  
عليها العديد من كتاب وصحفيين هذه الأيام ، شرقا وغربا .

تحدثنا عن هذه ، وعن ازدهارها فوق صفحات الرجل ، وانسياب  
ما يدل عليها بين ما يدل على ملكاته العديدة ، لكننا ، خلال هذه السطور  
السابقة نفسها لم نتحدث عن حاسة أخرى هامة جدا ، بل لقد اغفلناها عن  
عمد ، ذلك كله بينما يستطيع أن يدرك اغفالنا للحديث عنها ، أى طالب  
اعلام ، أو أى محرر جديد . . حيث ترتبط بها بشدة هذه الحواس السابقة  
كلها ، بل ونستطيع أن نقول أن محصلتها النهائية - محصلة هذه الحواس السابقة -  
تصب فى بحرهما الصاخب وفى عالمها المتجدد ، الذى يمزج بالحركة والحياة . .  
والذى لا يعرف السكون أو الركود أبدا .

أريد أن أقول ، أن هذه تصيب وتنتهى الى « الحاسة الصحفية »  
والا أصبحت حواسا تعمل فى فراغ ، ولا تنتج عملا صحفيا جديرا بالنشر  
والقراءة والمتابعة . .

أى أننا هنا ، وخلال هذا البحث ، وبالإضافة الى ما سبق تقديمه من  
صور عديدة ، نستطيع أن تلقى شاهدة على هذا الجانب « الصحفي » عند

( الجاحظ )

« الجاحظ » الأديب ، والتي كانت انعكاسا لدرجة طيبة من تمتعه بهذه الحواس كلها بالإضافة الى ذلك ، فاننا نواصل تقديم هذه الشواهد ، ولكن من زاوية أخرى وفي صور متجددة ، ترتبط هذه المرة ، بالحاسة الصحفية نفسها .

لكن من المؤكد ، أن ذلك يعنى أولا - وكما - بالنسبة للحواس السابقة أن نتوقف عند محاولة لتحديد « ماهية » هذه الحاسة نفسها ، ثم تقديم الصور والشواهد والدلائل الخاصة بها بعد ذلك .

ولن نجهد أنفسنا كثيرا في تتبع هذه الحاسة الصحفية في الكتب والمراجع العربية والأجنبية لأن كثرتها لم تتوقف عند تعريف لها ، وإنما سوف نختلص عدة نظرات سريعة الى ما يتصل بها وبصورها من هنا أو هناك ، بينما التجربة نفسها هي خير معرف لها ، ومن هنا نقول أن هذه الحاسة تظهر واضحة ، وتتمثل وتتجلى في أكثر من مشهد أو « محك » أو « اختبار » لوجودها من عدمه ، ولهذا القدر من الوجود نفسه . ودرجاته في صمد صاحبها وفكره . ومن بين صور هذه الحاسة وما يتصل بها مثلا « ١٨ صورة فقط » .

١ - فهي تتمثل في حاسة توقع الأخبار وأماكنها وأبطالها أو مواقعها وصناعها .

٢ - وهي تتمثل في حسن اصطفاء أو اختيار ما يصلح من بين هذا الكم الاخبارى الهائل ، للنشر والقراءة .

٣ - وهي تتمثل كذلك في حسن الانتقال والسعي وراء الصور والمشاهد الجديدة التي قد لا يهتم بها غير من يملك هذا الحس .

٤ - ثم في واقعية رصد واختيار وتحرير هذه كلها بأمانة وصديق .

٥ - وهي تتمثل كذلك في اختيار الأفكار والموضوعات الجديدة من تلك التي يمر بها الآخرون من كاتبين ومحررين مر الكرام ، ولا يحفل بها غير من يتمتع بهذا الحس نفسه ، حتى وإن بدا للناس تافها حقيرا .

٦ - وهي تتمثل أيضا في بحث الروح في الصور والمشاهد والأفكار والموضوعات القديمة ، ووضعها في أطر قنية وأشكال جديدة مبتكرة ورؤية معاصرة وصحيحة .

٧ - وهي تتمثل أيضا في التناول العكسي للأفكار والموضوعات المطروقة قديما أو حال طرقها على يد الكاتبيين الآخرين أو الكاتب نفسه بما يشبه المعارضة أو المناظرة لهذه الأفكار والموضوعات نفسها « الشيء وضده » .

٨ - وهي تتمثل بعد ذلك كله في تقديم الفكرة الأجنبية المترجمة أو للنقولة « معربة » ، ثم الوقوف منها موقف التأييد أو المعارضة .

٩ - وهي تتمثل أيضا في ذلك التقديم الشمولي للفكرة المطروقة ، بما يعد سبقا لصاحب التقديم على غيره ، حيث يحيط بها من جميع جوانبها وزواياها القريبة والبعيدة وظلالها ونتائجها بما ينكر يكتابات الموسوعيين المختلفة .

١٠ - وهي تتمثل أيضا في حسن اختيار زاوية جديدة في الجانب المطروق ، أو الظاهرة المعروفة ، لكن لم يره أحد من قبل ، ولم يخضع يده عليه ، بل ولم يشر اليه بنائه ، لكن الحاسة الصحفية هنا تعرف كيف تقصيد ، وترى هذه الزاوية ، وتتناولها .

١١ - وفي الحس الفكاهي وروح الدعابة ، والقدرة على تجسيم العيوب نجدها كذلك .

١٢ - وهي تتمثل أيضا في التركيز على جانب البطل ، لاسيما عندما يكون جديدا بصورته وشخصيته وعمله وتفرد به في جانبي الإيجاب والسلب .

١٣ - أو جانب المكان ، فقد يكون هو البطل ، وغيره انصاف أبطال ، أو أرباع أبطال ، أو على هامش البطولة .

١٤ - وفي حاسة نقدية تعرف كيف تفرز الجيد من الرديء والصحيح من الفاسد .

١٥ — وهي تتمثل في حسن استخراج الشواهد والدلائل والبراهين والأمثلة ، لاسيما من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والسنة الكريمة ، وأعمال الصحابة ، وتوجهات أهل العلم والثقة ، ومن يطون الكتب ، وصور التاريخ .

١٦ — أو تكون في براعة التوصل إلى اللغة التي تكون أكثر صدقا في تصوير ما كان وما يكون وأصديق تعبيراً عن الصور القائمة ، والمشاهد التي تجرى أمام الناس ، حتى وإن اختلفت عما يكون قد عهده قراء ذلك الزمان ، بل أن في هذا الاختلاف نفسه ما يؤكد حاسته ، وما يدعم تفوقه مادامت لغة صحيحة بغير خطأ أو لحن ، وبغير إسفاف أو تعال على القراء . . . . . وحيث يتعدى المحرر أو الكاتب بهذه اللغة ، حدود عالمه ، وإبعاد حاضره ، ويقفز فوق جوانب محدودية القراء .

١٧ — بل أن هذه الحاسة قد تتجلى في حسن صياغة وحدة فنية واحدة أو أكثر من الوحدات التي يتكون منها العمل الفني كله ، أو النص التحريري كله — الصحفي هنا — فقد تكون في جمال ودقة وواقعية وجاذبية العنوان ، أو في براعة الاستهلال ، أو في حسن التقسيم أو في مؤثر ومؤكد ومقرر النهاية أو الخاتمة .

١٨ — تماما كما تكون في حسن اختيار الكلمات الصادقة والمعبرة والدالة ، وبراعة نسجها وتحويلها إلى جمل معبرة شكلا ومضمونا ، ثم فقرات متماسكة ، تعكس ما يريد الكاتب التعبير عنه من أفكار ، وتتشابك ، وتتألف وتتوحد مع غيرها لتكون هذا النص كله . . .

.. أي أنها في النهاية وتقريبا تتمثل في :

« حاسة التعرف على الأخبار والأفكار والموضوعات الجديدة ذات الصلة بجوانب الأهمية المختلفة ، ومواقع استقطاب الأنظار ، ومواطن الجمال والجاذبية ونواحي المجتمع والثقافة والفكر والعلم والدين والسياسة ورصد هذه كلها والتعبير عنها تعبيراً مفيداً وواقعياً يقدمها ويبرزها ويحللها ويصل إلى سبر أغوارها ، أو عرض أكثر من رأي أو موقف أو نتيجة بشأنها في

إطار فنى معين بحيث تؤدي جميعها عدة أهداف حالية ومستمرة يفيد منها العام والخاص ، القارئ ، الحالى ، والباحث والمؤرخ ، .

أو فى تلك الظواهر المتصلة بالحاسة التى ترى وحدها وترصد وتعبّر عن هذه كلها . .

إننا هنا - فى واقع الأمر - لا نملك إلا الاعتراف بشيئين ، أو التوقف عند ملاحظتين هامتين :

● أما الملاحظة الأولى : وهى الأقل أهمية هنا على الرغم من جدارتها بالتوقف عندها ، فهى أن هذه الرؤية لما تعبّر عنه هذه الحاسة وارتباطها بالنشاط الجاحظى أدبا وصحافة ، تكاد تقترب كثيرا ، بل تتداخل وتتشابك أيضا ، مع تعريف لا نستطيع هنا التفاضل عنه ، أو تجاهله ، فى هذا المجال بالذات ، وهو تعريف التحرير الصحفى ، ذلك الذى يقول أنه :

« طريقة الكتابة الفنية ، التى تتيح للمحرر الصحفى ، استنادا الى فكر متميز ، ومن خلال قيامه بمسئوليات وظيفته ، تسجيل الأحداث المهمة الحالية والمتجددة ، ونقل الوقائع والتفصيلات والصور والمشاهد المرتبطة بها ، والتعريف بما أسفر عنه البحث وراء عللها وأسبابها الظاهرة والخفية ، وتقديم المعلومات والبيانات المفيدة ، وثبت ظواهر الأنشطة والمشكلات المختلفة والمؤثرة ، وعرض وتفسير ومناقشة الأقوال والتصريحات والأفكار والآراء والاتجاهات والمواقف والقضايا والحلول ذات الجدارة والنفع وتناول ما يستحق من تطوراتها ونتائجها المتتالية ، انطلاقا من صالح الفرد والمجتمع والانسانية ومصلحة النشر ، والتعبير عن ذلك كله ، تعبيرا دقيقا وموضوعيا فى أغلب الأحوال فى عبارات قصيرة ومتناسكة ، وبواسطة لغة صحيحة سهلة واضحة وجذابة ، فى شكل عمل فنى صحفى ، يمثل رسالة اعلامية موجهة الى القراء ، تكون صالحة للطبع والنشر والتوزيع فى الوقت المناسب ، على صفحة أو صفحات جريدة أو مجلة » (١) .

وبصرف النظر عن استخدام المصطلحات الاعلامية لا الأدبية ، وما يتصل بها من أطر وأهداف وكذا ، بصرف النظر عن طبيعته الفترتين وهى ضوء هذه الرؤية الجديدة لأدب الجاحظ ، فإنا نقول أن هذا التعريف نفسه

المتداخل مع تعريف هذه الحاسة الصحفية ، يصنق كثيرا على عدة ألوان من كتابات الرجل ، فهي أدبية صحفية ، أو صحفية أدبية ، معا .. ثم ماذا ؟

● وأما الملاحظة الثانية : وهي الأكثر أهمية هنا ، فهي تلك التي تقول ، بأن أكثر صور هذه الحاسة ، ما ذكرنا منها خلال النقاط السابقة ، وما لم نذكر ، جميعها لا يمكن لتابع مخلص وديق لكتابات الجاحظ ، وعلى اختلاف أنواعها ، بل ولانعكاس تأثيراتها في حياته وشخصه .. إلا أن يعترف بوجود ما يقترب من بعضها اقترابا شديدا حيناً ، وأقل شدة في حين آخر ، بل وما يكاد ينطبق على بعض هذه الصور تمام الانطباق — وكما يقول علماء الرياضيات — لتتجلى في صورة منها أو أخرى هذه الحاسة نفسها ونجد أثرها واضحا جليا في هذه الكتابات الجاحظية ، مما يؤكد وجودها ، هي والحاسة الأدبية معا ، في صدر هذا الرجل .

اننا ، خلال السطور القادمة ، سوف نتناول هذه الصور ، وأثارها ودلالاتها في بعض كتابات الجاحظ ، ولكن من خلال مستويين من مستويات التناول ، إذ من غير المعقول تتبعها كلها في هذه الكتابات جميعها على مستوى واحد ، أو من خلال طريقة واحدة ..

أو — في أسلوب آخر — فأننا سنلقى على بعضها نظرة سريعة ، ومن عل ، تساعدنا — وهي نظرة طائر محلق — على المرور بها مرا سريعاً .. وأما بعضها الآخر فأننا سنقترب منه اقتراباً شديداً ، إلى حد التوقف عنده تماماً ، ومحاولة سبر غوره ، من زاوية هذه الحاسة نفسها :

### أولاً : إشارات ودلالات سريعة

نعم .. عند إعادة استعراضنا لهذه الصور السابقة ، من تلك التي تؤيد أو تؤكد وجود الحاسة الصحفية ، عند أحدهم ، وهو هنا « الجاحظ » ومن خلال النظرة السريعة لوجدنا وعلى سبيل المثال لا الحصر :

١ — فالمتتبع لكتاباته ، خاصة الاخبارية منها ، والتي تعكس جهده في

سبيل الحصول عليها ، وبالأذات ، عندما يكون من العاملين في حقل الأخبار الصحفية ، يدهشه حقا عندما يلمح — بخبرته أن الرجل قد توصل الى بعض مبادئ وأسس وقواعد « العملية الاخبارية » ، وإذا كنا قد أشرنا عند حديثنا عن « الحاسة الاخبارية » الى بعض هذه المبادئ والاسس ، فأننا نضيف اليها هنا جوانب « توقع » الحصول على مادة اخبارية ، وحديثه هو عن انتقاله أو ارتحاله طلبا لها ، أو كرد فعل لهذا التوقع في أماكن وجودها ومع صناعتها وإبطالها في المواقع المختلفة .

٢ — ثم في السعي وراء ثلاثة جوانب أساسية تعكس بعض صور هذه الموهبة نفسها ، وتلك الجوانب هي :

( ١ ) جانب انتقاء أو اصطقاء ما يصلح منها للنشر على قرائه ( ليس كل مادة اخبارية تصلح للنشر في زمانه وظروفه وإن صلح بعضها للنشر في زماننا وظروفنا ) .

( ب ) جانب العناية بما وراء المادة الاخبارية المتقاة أو المصطفاة ، وعدم التوقف عند حدودها الاخبارية ، أو ما نطلق عليه اليوم الاهتمام « بما وراء الأخبار » ومن هنا كانت صورته القلمية ومادته التي اقتربت في أحيان كثيرة من الموضوعات والتقارير والتحقيقات الصحفية ، فضلا عن الدراسات والمقالات المعنى بها .

( ج ) جانب استكمال هذه المادة أو تلك بما يضيف اليها الجديد المفيد من معلومات وتجارب وكتابات الآخرين .

وإن شاء أن يرى أو يقرأ مصداق ذلك كله ، فإن عليه بمصفحات أو سطور فقط من أمثال هذه الكتب والرسائل والكتابات كلها : « الزينية — الرافضة — الصرحاء والهجناء — الجن والانس — التاج في أخبار الملوك — النصارى واليهود ... الخ » .

٣ — وأما عن حاسة « بحث الروح في الصور والمشاهد والموضوعات القديمة التي كتب فيها من سبقه ، وتناولها بما يعكس هذه الموهبة نفسها ، فقد بدا في كتابات عديدة للرجل ، يستطيع القارئ أن يتتبعها في أمثال هذه

المؤلفات والرسائل ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر بالاضافة الى بعض ما ذكر منها سابقا : « الأصنام — الهاشميات — خلق القرآن — الحجة في تثبيت النبوة — الحنين الى الأوطان — الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير ... » وغيرها .

٤ — ومن هذه أيضا ، ومما يعكس حسه الأدبي والصحفي معا ، هذه الصور بالغة الدقة ، صادقة التعبير ، واقعية النقل ، التي قدمها لعدد كبير من الأشخاص الذين عرفهم المجتمع العباسي عامة ، والبغدادى والبصرى خاصة ، أو من هؤلاء الذين طفوا على سطحه ، أو اشتهروا به ، وقد تناولها الرجل وكما نقول ، ليس تناولاً أدبياً فقط ، وإنما اختلطت في سطورها مظاهر التناول الأدبي والصحفي معا ، لاسيما ما يتصل بجوانب المقال الصحفي ، والنقدي والفكاهي ، بل اقترب في بعضها اقتراباً شديداً من « تقارير الشخصية » ، فضلاً عن جوانب الصورة القلمية الأدبية .. وأدب الرجل زاخر بهذه المعالم الصحفية لاسيما في هذه المقالات والرسائل والتصنيفات كلها :

« البخلاء — المرحاء والهجناء — الترييع والتدوير — في الوكلاء — المؤلف المحسود — الجاحظ والمجوسى — القاضي والذباب — كتاباته عن العلماء »

ونكتفى بهذا القدر من تلك الاشارات والدلالات السريعة ، التي القينا خلالها نظرة الطائر على آثار هذه الحامسة عنده ، وننتقل الى جوانب أخرى ، مؤكدة لهذه الدعوى نفسها ، وبأسلوب « المتابعة البطيئة » هذه المرة ..

## ثانياً :

### شواهد صحفية مختلفة

.. ونتوقف أخيراً عند عدد ثان من هذه الشواهد على قيام الحامسة الصحفية ، في صدر هذا الرجل النابغة ، والذي قلنا أنه مكون من عدة رجال لعل أبرزها خلال هذا الحديث ، وبعد الجاحظ الأديب ، الجاحظ الصحفي ، وغيرهما أيضاً مما سنشير اليه بعد قليل ..

وكما قلنا ، فأننا سنتوقف عند كل نقطة من هذه النقاط ، أكثر مما

توقفنا عند النقاط السابقة ، ومن هنا ، فلن نتناول جميع ما تركنا ، وإنما بعضه فقط ، وقد نضيف إليه جديدا مؤيدا ، معبرا بالأسلوب نفسه عن صحة ذلك الذى ندعو اليه ، وفى هذا نقول :

## ( ١ ) الأفكار الصحفية الجديدة

للصحفى الموهوب دلالات وإشارات ، وفى حيساته وقراءاته ومتابعاته أكثر من شاهد على ذلك ، ولكن أبرزها خاصة فى مجالات ما وراء المسادة الاخبارية ، من موضوعات وقصص وتقارير وتحقيقات ودراسات ومقالات صحفية بأنواعها .. أبرزها هنا هو ذلك القدر الذى يتمتع به من الحس الصحفى من زاوية العثور على الأفكار الجديدة ، غير المعروفة أو غير المطروقة ، أو التى تمر على غيره دون ادراك لجوانب أهميتها وفائدتها وجاذبيتها .. لكنه بحسه ، وما يتمتع به من موهبة ، يضع يده عليها ، ويقتنصها ، ويتوقف فكره العامل بجد عندها ، وحتى اذا كانت من تلك الأفكار القديمة ، التى سبق طرقها وتناولها على الصفحات ، فإن له من هذا الحس ما يدرك به كيف يتفد الى زاوية جديدة فى هذه الفكرة القديمة ، لم ينفذ اليها أو يتناولها الآخرون ؟ أو كيف ينفذ عنها الخيار ويقدم فى شكل واطار وتناول جديد يكون الفارق كبيرا بينه وبين تناول السابقين بتناولها ؟ وهكذا .

وإذا كنا قد أشرنا مجرد إشارة سريعة ... الى مثل ذلك وفى كلمات قليلة جدا أيضا ، عند حديثنا عن معالم « الأدب الصحفى » (٢) ، فأننا نتساءل هنا : هل أسفرت الموهبة الجاحظية ، عن مثل هذه الأفكار الجديدة ؟ هل وضع الرجل يده عليها ، بما لم يحدث من قبل عند غيره تماما ؟ أو بما لم يحدث بمثل أسلوبه ؟ وهل نجح الرجل فى تصيد بعضها ، وفى إزالة الغبار والصدأ عن بعضها الآخر ؟ وفى تقديم البعض الثالث فى صورة جديدة كل الجدة ، أو من زاوية جديدة أو أكثر من زاوية جديدة ؟

قبل الاجابة عن ذلك كله وتقديم الشواهد والأمثلة على قيامه من عدمه؟ وأيضا ، قبل أن نقدم أقوال الذين عايشوه عن قرب ، مما يتصل بهذه الأفكار .. فأننا نقربها الى الأذهان ، عن طريق نقل سطور قليلة توضح ماهيتها .. وتلقى بعض الأضواء عليها ، ان هذه الافكار التى نقصدها بالدرجة الأولى هي :

— « الموضوع الجديد الذى يطرقه الاعلامى — الصحفى هنا — أو المادة أو البذرة أو الخميرة أو العنصر الأساسى الذى يقيم عليه جميع العناصر الأخرى ، تلك التى يقيم عليها بناء الاعلامى — الصحفى هنا أيضا — ويشد إليها أركان عمله ، وتمثل هى جوهر هذا العمل ولبه وصميمه الذى تمتد منه خيوط نسيجه وتتشابك ويطول بعضها ويقصر البعض الآخر ولكنها — جميعها — تؤدي فى النهاية الى إقامة هذا الثوب الاعلامى ، أو البناء الاتصالى الذى قد يكون موضوعا أو تقريراً أو تحقيقاً أو تحليلاً أو تعليقاً اعلامياً عاماً ... الخ » (٣) .

— « جميع هذه الأعمال وغيرها ، وغيرها تولد أولا كبذرة ، كفكرة فى نفوس وصنوبر وعقول أصحابها ثم تتحول الى عمل يقرأ أو يسمع أو يشاهد » (٤) .

— « الحصول على الأفكار هو مسألة تعود الى الاعلامى نفسه بالدرجة الأولى » (٥) .

— « انها هذه الفكرة التى يمكن أن يتصيداها المحرر أو رئيس القسم أو رئيس التحرير الموهوب اللامع من بين ما يصله ومن حصيلة ما يتجمع لديه كل يوم من اكاداس الاخبار والموضوعات » (٦) .

« نقول أن الرجل ، بموهبته المنقطعة النظير ، بكل ما توافر له من خصائص الحاستين الأدبية والصحفية معا ، وبكل ما توافر له أيضا من عين بصيرة نافذة ، ونظرة لماحة وانخراط فى صفوف الطبقات المختلفة ، على القوم ، وأواسطهم وعامة الناس ، وحتى « زعر الحارات الجوانية » كما كان يقول مؤرخنا « الجبرتي » ، وقبل ذلك كله ، باستقراء ما يصلح من الصور والمشاهد لكى يتوقف عنده ، ويقول : وجبتها ، وجبتها ثم يسرع بالقبض عليها حتى لا تطير أو تذوى ، أو تتبخر أو تكون كعرائس الأحلام بكل ذلك ، وبأكثر من كل ذلك ، نستطيع أن نقول أن حاسة الرجل الأدبية والصحفية معا كانت موجودة ، بكل ما فى الوجود من معنى الحيوية والتدفق والانطلاق ، وأنها أسفرت عن العديد ، عشرات ومئات من الأفكار الجديدة ، أو الغريبة على مجتمعه أو التى لم يتوقف عندها غيره ، أو لم يفلح فى تصيدها سواه ،

وكانت لذلك عدة إشارات ودلالات من الفكر الجاحظي نفسه ، ومن خلال السطور الجاحظية ذاتها ٠٠

لكن هذه الأقوال لا تكفى وحدها ، وإنما لنبحث معا عن الدلائل ، وما يشير إلى صحة ذلك ، خلال هذا التراث الأنبيى الصحفى معا ٠٠

لقد اختلط الجاحظ بجميع الفئات الموجودة فى عصره ، وزار أكثر الأماكن والمواقع أهمية ، وفرا أكثر الكتب المعروفة فى زمنه ، أنبية وعلمية ، عربية ومترجمة ٠٠ وسمع وأخذ عن أكثر الرواة ، وأرقط طلبا للبحث والعرفه والسماع وقد أسفر ذلك كله عن عدد كبير جدا من الأفكار الجديدة ، الأنبية والصحفية معا أو تلك التى يستطيع الأنبيى أن يعتبرها أنبا ، ويمكن أن نعتبرها صحافة ، أو ذات صلة كبيرة بالصحافة ، والفنون الصحفية ٠٠ وكان من بين هذه كلها على سبيل المثال لا الحصر ومما لم يعرف تقريبا قبل تناوله له ، ولم يلتفت إليه كثرة من كتاب عصره :

١ — فكرته بإفراد كتاب خاص غير مسبوق على المستويين العربى وغير العربى ، يتناول كله ، من الخلافة إلى الخلافة « البخلاء » وصورهم وأبرزهم ، وأعجب حكاياتهم ونواصرهم وطرائقهم ، بحيث يمكن أن يمثل هذا الكتاب سلسلة موضوعات اخبارية كثيرة جدا عن هؤلاء القوم ، بل يرتفع بعضها إلى مستوى التقارير والتحقيقات المركزة ، فإذا كان ينقصها عنصر : « الصورة الصحفية » فيكفى أنه صورها بقلمه أبدع تصوير ، وقدم لها الصور القلمية المختلفة ، التى لا تقل عن الصور الملتقطة بالكاميرا ، فى بعض الأحيان .

٢ — وبالمثل ، كانت هناك بعض الأفكار الجديدة تماما على « جمهور » هذه الفترات ، من قراء وكاتبين معا ، وهى هنا اقرب ما تكون إلى أفكار التقارير والتحقيقات والدراسات الصحفية رفيعة المستوى ، من تلك التى يمكن أن تنشرها المجلات اليوم ، وكذا الصحافة الأسبوعية ، مع اختلاف فى الأسماء والمواقع والظروف وطرق ووسائل النشر ، وكان من بين هذه على سبيل المثال لا الحصر الأفكار الآتية كلها ، والتى تناولتها كتابات الرجل :

« حيل اللصوص — حيل لصوص الليل — حيل لصوص النهار — الفش والغشاشون — زنوج البصرة وعاداتهم وتقاليدهم — نخيل البصرة — أساطير

الصيادين ورجال البحر — الجواهر والأحجار الكريمة وما يتصل بالعاملين  
بتصنيعها والتجارة فيها — حياة البدو وحياة الحضر — عادات الأمم والشعوب  
التي دخلت الاسلام — نواصر القصور وحكاياتها الغريبة — أصحاب الالهام —  
الجواري وأصولهن ومراتبهن وعاداتهن — العبيد — الأحلام والرؤى — الجن  
والعفاريت واتصالهم ببعض البشر — سرقات الكتاب والشعراء — الحب عند  
العرب وغيرهم — قصص وأخبار الملوك السابقين — الهدايا وقصصها وتاريخها  
 وأنواعها — اللند والشطرنج ..

ويضيق بنا المقام ، لو حاولنا عمل احصاء لامثال هذه الافكار الجديدة  
في معظمها ، الأدبية والصحفية معا .

٣ — وحتى بالنسبة لكتابه : « الحيوان » فصحيح أن كثيرين من عرب  
وأجانب ، قد سبقوه الى ذلك ، ويمثل هذه الشمولية نفسها ، وقد قرأ هو وأخذ  
عن « أبي عبيدة » صاحب المؤلفات في الحيوان والطير ، وكذا عن « الأصمعي »  
الذي تناول بعض هذه الموضوعات وغيرها ، كما قرأ ما كتبه « أرسطر » عن  
الحيوان أيضا .. قرأ الجاحظ هذه كلها ، وأفاد منها لكنه كان كالمصدر  
الصحفي الماهر ، الذي يهدف الى مركز معلومات الصحيفة ليرى هل تناول  
أحد قبله فكرته ؟ وكيف تناولها ، حتى يختلف عنهم ، وهو في ذلك يجد عند  
موهبة ما يعينه على الاختلاف .. ومن هنا ، وعلى الرغم من سبق هؤلاء  
وغيرهم بالتأليف أو الكتابة في موضوعات الحيوان الا ان رجلا :

— قام بتصيد أفكار جديدة لموضوعات عن الحيوان لم تعرفها كتب  
هؤلاء .

— تعمق الأفكار القديمة المطروقة ، وتناولها من زاوية جديدة .  
— وأحيانا من أكثر من زاوية جديدة .

— قام بـ « توليد » عدد من الأفكار الأخرى ، البعيدة تماما عن  
أفكار غيره في نفس المجال والتخصص .

— قام بعمل جسر اتصال بين هذه الأفكار وما يجذب جماهير أكثر  
من القراء .

— وضعها في إطار جديد ، وتناولها بأسلوب جديد ..

وهكذا وجدنا في النهاية ، أن كتابات السابقين عليه وكذا كتابات معاصريه في موضوع الحيوان ، تقترب أكثر من كتابات العلماء ، ويكون لها مثل خصائصها ، بينما نجد أن كتاباته تقتسب أكثر من كتابات « المحرر المتخصص » في موضوع علم الحيوان ، عندما يكتب لصحيفة أو لمجلة عامة ، أو ذات اتجاه خاص ، وليست متخصصة تماما ، كان غيره يقترب من اللون العلمي ، قدر اقتراب الجاحظ من اللون الصحفي .

٤ - وأما عن التناول العكسي للأفكار والموضوعات القائمة ، وما يتصل بجوانب المناظرات وهي ذات صلة نسب وثيقة بأبرز أنواع المقالات النقدية والنزالية فقد استغرقت جانباً هاماً من كتابات الرجل ، ودلت على تمتعه وإلى درجة قل أن تتوافر عند كثير من الكتاب بهذه الزاوية من زوايا الحسن الصحفي المقالى ، بل أن تناول الرجل لهذه الموضوعات كان مشرباً بطابعه الخاص الفريد أحياناً ، لاسيما وهو هو الذي يكتب عن الشيء ، ثم يعود فيكتب عن ضده ، بأسهاب وفهم كبيرين يدلان على ثقافته وشموليته وقوة حجته ، بل كثيراً ما كان يجمع بين الضدين ويؤيد ويعارض هذه من زاوية ، وتلك من زاوية أخرى ، في نفس حدود وإطار المقال الواحد أيضاً .

ولن يجهدنا البحث عن هذا الجانب الهام من جوانب « الحسن الصحفي المقالى النقدي » عنده ، فهو منتشر في كتابات كثيرة ، من بينها على سبيل المثال لا الحصر هذه كلها : « مفاخرة السودان والحرمان - الرجال والنساء - الذكور والإناث - الجن والانس - الملائكة والجن - الرد على الجهمية - المحاسن والأضداد - في تفضيل النطق على الصمت - في الحامس - المحسود - سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف - العثمانية - فخر السودان على البيضان ٠٠٠ الخ ، كما انتشرت في بخلاته ، وغيرها من الكتب .

٥ - وأما عن « تصيد » الفكرة الخسارية ، أو الأجبية المترجمة أو المنقولة والتصرف الإيجابي معها ، بما يعكس جانباً آخر من جوانب هذه الحاسة الصحفية نفسها فقد ظهرت واضحة عند الرجل في مواقف كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مساهمته في نقل بعض أفكار الفلاسفة اليونان ، لا سيما هؤلاء الذين عرفوا باسم : السوفسطائيين ، ولا يعنى تلك

انه كان مترجما لها ، وانما « مديعا » لثيالات هذا الافكار « ناشرها » لها في كتاباته الجدلية وتلك التحليلية والنزالية ، وقد لاحظ كثير من المتابعين ذلك ، لكنهم - كالعادة - تناولوا مظاهرها على انها لغوية ادبية فقط ، وكان من بينهم على سبيل المثال « طه الحاجري » الذي « لاحظ آثار السفسطة في أسلوب الجاحظ البياني » (٧) ٠٠ لكننا نراها أدبية لغوية صحفية مقالية معا ، تماما كما هي « فلسفية » الطابع ، كما نشير من بينها أيضا الى نقل بعض الافكار الأخرى عن أرسطو ، وغيره ، حتى في كتابه « الحيوان » نقل عن بعض هؤلاء ٠٠

لكن الملاحظ هنا - وهو ما يقترب بنا من معالم حاسته الصحفية أيضا - انه لم يكن ينقل الفكرة المترجمة ، ويذيعها فقط ، وانما ، وعلى عادة كبار الكاتبيين والمحريين المبتكرين :

— يتخذ منها ركيزة الى افكار عربية مماثلة ( ما هنا ، وما هناك )  
— يتعمقها ويخرج منها بأكثر من فكرة جديدة مختلفة ( توالد الأفكار )

— ينظر في عكس هذه الفكرة ( الشيء وضده )  
— يتناولها تناولاً شمولياً غير مسبوق ، يسبر غورها ويقتلها بحثاً ، الى غير ذلك كله ، فهو ناقل ماهر ، ومنشئ مبتكر ، ومفكر مبدع ٠٠ وكل ذلك ظهرت آثاره واضحة جليلة على مقالاته ٠٠

قبل ان نترك هذا الجانب الابداعي الأدبي والصحفي معا ، او « الأدبي الصحفي » أيضا ، جانب الأفكار المبدعة الجديدة او المجددة ، التي لم يطرقها قبله كثيرون لغرابيتها او لعدم قدرتهم على تصييدها ، او استشعارهم لجوانب أهميتها ٠٠ نقوم بالتوقف عند عدد من الأقوال التي تشير الى ذلك ، ولو كانت من وجهة النظر الأدبية فقط ، بعد أن وضحت معالم ما ندعو اليه من قيام الجاحظ ، الأديب والصحفي معا .

● أن باحثاً كبيراً وأستاذاً للادب يقول : « وهو أول من شف له الحجاب فرأى في مخالفات العامة وعاداتهم وفي تقاليدهم ومعاملاتهم وفي أحاديثهم وأسمارهم فنا يستروح الخاصة به ويرى العملية فيه جماماً من كدهم في جدهم » (٨) ٠٠

● ويضيف قائلا : « وهو أول من وضع الكتب والرسائل في المعاني والأغراض الغريبة عن متناول أفكار الكتاب كقوله في طبائع البخل وفي حيل اللصوص وفي أحوال المكين وفي أصحاب العاهات الخلقية كالحول والعمور والعرجان والبرصسان وكذلك نوى العاهات الخلقية كالسكران والزنا والطفيليين والقحاب وقتيان السوء » (٩) .

● ويقول دارس آخر : « يتوخى التصنيف في الموضوعات الشبيهة اللذيذة أو التي لم يسبق إليها كاتب ، أو الأمور الحاضرة التي لا يخطر على البال أن يؤلف فيها كلام » (١٠) .

## ( ٢ ) حول الأخبار الجاحظية

اقتربنا خلال صفحات سابقة ، من موضوع الأخبار الجاحظية من زاويتين (١١) أولاهما زاوية نوعية مصانره العامة - وليست الاخبارية وحدها - وثانيتهما زاوية بعض جوانب الحس الاخباري عند الرجل . . . ونضيف هنا بعضا مما يتصل بهذه الأخبار الجاحظية ككل ، ويعد من الزوايا ذات الصلة الوثيقة بها على وجه الخصوص ، من تلك التي توقفتنا عند عند من جوانبها الأخرى ، أو لم نتوقف حتى الآن .

### ( ١ ) الأخبار الجاحظية وعصر اليقظة :

في كلمات قليلة جدا المحنا في مجال سابق ، دون أن نقدم الدليل الذي أرجأنا تقديمه حتى هذه السطور ، إلى اهتمام الرجل في مجالات بحثه وجمعه لمادته عامة ، ومن بينها المادة الاخبارية . . . اهتمامه بجانب « صحة المصدر » . . . و « ثبته » . . . ونفسر هنا ذلك الكلام فنقول :

### ● ● عن صحة مصانره الاخبارية وثبوتها :

يستطيع القارئ - وليس الباحث وحده - أن يتبين بما لا يدع مجالا للشك حرص « الجاحظ » الكبير على صدق أخباره وثبوتها وموضوعيتها ويتجلى ذلك من استقراء هذه المادة الاخبارية الواردة في كتبه المختلفة ، وفي كتاباته

التي تناولت هذا الموضوع تماما كما يدرك ذلك الباحث عند محاولته النفوذ الى شخصية الرجل ، ومتابعة طريقته أو طرقه في جمع المادة ..

— فهو عندما يروي خبرا ، فأنما يعود به الى مصدره الحقيقي الذي سمع عنه أو أخذ أو نقل ..

— بل انه أحيانا يرجع المادة الاخبارية الواحدة الى أكثر من مصدر واحد ، ولو على سبيل التأكيد ، وكأنه يطلع القارئ على ذلك ، ويلفت نظره اليه ..

— ويتضاعف ذلك ، عندما يحسن الرجل أن ما يرويهِ من الأمور التي قد لا يصدقها البعض بسهولة ، أو في بساطة ، ومن ثم يجد أن عليه واجبا أساسيا ، وهو أشعار القراء ، بأن هذه المادة مصدرها كذا وكيت ..

— فإذا أحسن الرجل أن هذه المادة الاخبارية غير دقيقة ، أو تنقصها الحيدة أو الموضوعية نبه الى ذلك وحذر منه ..

— فإذا أحسن أنها مادة غير صادقة ، وأن الكذب يلفها ، وأن صاحبها يريد خداع القارئ أو المستمع ، نبه الى ذلك أيضا ، وذكر ما يحمل على شك القراء به ، وكأنه بذلك يريح ضميره من هذا الجانب ..

— وأكثر من ذلك ، أنه كان في روايته الاخبارية ، لا يكتفى بذكر الخبر المجرد دائما ، وإنما كان وفي كثير من الأحوال يقدم قصة حصوله على هذه المادة ، وكيف بدأت أحداثها ، الى جانب صناعها ، ومصادر البشيرة ، مع معلومات قليلة جدا لكنها مفيدة أيضا عنهم ..

— بل انه كثيرا ما يضع الأخبار المتتالية نفسها ومع متابعتها خلال النص نفسه ، في مجال المقارنة من زاوية الصحة أو الصدق ودرجاتهما ، فينبه بذلك الى أن خبرا أكثر صدقا من خبر يسبقه ، وهذا بدوره أكثر صحة أو أقل من خبر يليه ، بل أن هذه المقارنة نفسها قد تمتد وتتصل لتكون بين المصادر المختلفة من بشيرة أو مخطوطة ، فيقول أن ذلك المصدر أكثر صدقا من ذلك ، وهكذا ..

— كذلك فإن الرجل لم يكن يهتم كثيره من الاخباريين والروائيين في عهده ، أو ممن سبق هذا العهد ، بجلب الشك ، وجمال الأسلوب ، واثاقه العبارة قبل غيرها ، وإنما كانت تصبى ذلك عناية بالمادة الاخبارية نفسها والمضمون الاخباري ذاته ، ثم وضعه بعد ذلك في أبسط القوالب اللغوية ، وأكثرها سهولة في التعبير والايضاح .

— بل انه ليدهشنا حقا ، وياخذ بلبنا أن يقوم الرجل وأكثر من مرة بخملة كبيرة على الرواة الذين يقومون بتلوين الأخبار ، أو باصطناعها ، أو بعض الفئات — كالباحريين مثلا — الذين يجيدون «فبركتها» ومزجها بالأسطورة ، مما يذكرنا بتلك الأخبار البحرية التي كان يتداولها بحارة الساحل الفينيقي ، وجاءت عندهم ممزجة بالأساطير البحرية الشهيرة . حمل الجاحظ على هؤلاء حملة شعواء ودعا الى الشك الكامل في مادتهم ، والتأكد التام من صحتها قبل نقلها عنهم .

## ● ● من كلماته تأخذ :

ونكتفي بهذا القدر من الإشارة الى جوانب عنايته بدقة اخباره ، ولفت انظار القراء الى مستوياتها من الصحة . . . . . ونقدم عددا من الامثلة على ذلك من كتابه « الحيوان » بأجزائه المختلفة . . .

● فهو يبدأ بعض مادته الاخبارية مما لا يريد أن يتحمل مسئولية صحتها بقوله :

« وزعم لي ابن أبي العجوز أن الدساس تلد » : الحيوان ج ٦ ص ٢٢

● أو تراه يقول أيضا : « والشائع أن . . . » ولا يقول : والصحيح أن لأنه يترك الفارق بين التعبيرين ، ويريد أن ينبه القراء الى ذلك . . .

● وفي مجال المقارنة التي أشرنا اليها يقول الرجل : « وليس الخبر عنه مثل الخبر عن الدلقين — وليس الخبر عن الكركدن أيضا مثل الخبر عن » الحيوان ج ٧ ص ١٢٨ . .

● كذلك ، وكدليل آخر على أنه لم يكن يأخذ كلام مصابره الاخبارية ( الجاحظ )

على عواهنه أو يسلم بجميع ما يقوله المصدر مهما كان نصيبه من الصحة أو التصديق ، فإنتا تقرأ له من أمثال قوله :

— فهو عندما يكتشف بعض الخيلا في الرواية يعلق قائلا : « فكيف أسكن بعد هذا الى أخبار البحريين ؟ » الحيوان

— وهو عندما يستمع الى خبر مشكوك في صحته يكتب قائلا : « قلت وما على أن سألته ؟ فانه يقال أن السائل لا يعدمه أن يسمع في الجواب حجة أو حيلة أو ملجأ » : الحيوان ج ٣ ص ٢٢ ٠٠

— ويقول في موضع آخر : « وزعم لي بختشيوخ بن جبريل انه عاين الخريق الذي في ابرة العقرب وان كلن صادقا كما قال فما في الأرض أحيد أبصر منه وانه لبعيد وما هو بمستكر » : الحيوان ج ٥ ص ٢٥٧ ٠٠

— ويقول في موضع ثالث : « وقد زعم البحريون انهم يعرفون طائرا لم يسقط قط ٠٠٠ الخ » : الحيوان ج ٢ ص ٢٢٤ ٠٠

● . بل ان الرجل نفسه قد كتب كثيرا عن هذه اللجالات ، مؤكدا ، أو منبها أو محذرا ، خاصة في مقدمات كتاباته ، أو فواتحها ، اقرأ له على سبيل المثال لا الحصر قوله :

— « وأما قرن الكركدن فقد خبرني من رآه ممن أثق بعقله وأسكن الى خبره » الحيوان ج ٧ ص ١٢٩ .

— « ٠٠ عن ثقات لا أشك في خبرهم ٠٠ » الحيوان ج ٢ ص ٢٢٦

— « ٠٠ ولم أكتب هذا لتقريه — وهكذا يقول — ولكنها رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبني الانكار له ، ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل » : الحيوان ج ٦ ص ٣٤

( ب ) بعض أساليب ثبته أصابعه وأستاد مادته الخيرية :

كذلك فقد حفلت مؤلفاته ورسائله ومقالاته عامة ، ومادته الاخبارية

خاصة ، بكثير من الأساليب التي يثبت بها مصدره ، ويشير بها إلى أن هذا الخبر سمعه عن فلان ، أو قرأه لفلان ، أو وصل إليه من فلان ، وما إلى ذلك كله وصحيح أن هذه قد تكون من نوع الوسائل «البديئية» من وجهة نظر صحفيي اليوم ، لكن المدقق فيها ، والمتمعن في جوانبها وأنواعها يجد أنها لا تختلف كثيرا عما يفعله المندوبون الآن في الصحف ووكالات الأنباء والاذاعات، من طرق وأساليب تذكر المصدر ، وعموما ، فقد وضعنا أيدينا على عدد كبير من هذه الأساليب ، وكان من بينها على سبيل المثال لا الحصر :

- « ونبأ بالأخبار عن ... »
- « نبأ بتمام القول في ... »
- « خبرني ... »
- « خبرني ... وخبرني ... وخبرني ... »
- « وروى لي ... »
- « وروى بعضهم لي ... »
- « وسمعت حديثا من شيخ ملاحى الموصلى ... »
- « ... رأيت الحديث يدور بينهم »
- « قال الشيخ الاباضى ... »
- « وكان عندنا ... فقلت له يوما ... فقال ... »
- « وقال لي ... »
- « وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار ... »
- « وحدثني شمشون الطيب قال : «
- « ودخلت على فلان فسمعتة يقول : «
- « وذكر ... عن ... قال ... »
- « وقال قائل من بنى ... »
- « من الاحتجاجات الطيبة ، ومن العال الملهية ما حدثني به ابن المدينى قال : «
- « وسئل ... أجاب ... »
- « وسئل ... قال ... »
- « ... وقد علمنا أنه ... »
- « ... وقد علمنا ... »
- « وفلان قال ... وفلان قال ... وفلان قال ... »

- «... أن... وأن... وأن...»  
 — «قال أصحابنا»  
 — «نينا يا أهل خراسان لاكثر الناس في أهل خراسان...»  
 — «ورأيت أنا...»  
 — هذه ملتقطات من أحاديث أصحابنا وأحاديثنا وما رأينا بعيوننا»  
 ( ... الأحاديث هنا بمعنى الأخبار ، ومفردتها أحثوة )  
 — «وخبيرنا جار له...»  
 — «والأعراب تقول...»  
 — «والعامة تزعم...»  
 إلى غير هذه كلها ...

### ( ٣ ) ... وشواهد أخرى

... ونواصل هنا هذه المحاولات لاثبات أن لنا ... نحن رجال الصحافة ...  
 في هذا الرجل بعض ما لرجل الألب فيه ، وربما ... من خلال عدد من كتاباته ...  
 قدر ما لهم فيه أيضا ، وتقدم هنا أكثر من دليل جديد ، على هذا الجانب  
 الصحفي في حياة الرجل ، وفي آثاره ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر:

● أنه في عدد من هذه الكتابات لا سيما تلك التي تميزت بجسائب  
 الأخبار وما وراء الأخبار ، كان يجتهد وراء المصدر البشري أو المصادر البشرية  
 ويعني من ورائها سببا حثيثا ... ذلك كله بينما كان يتجه في مقالاته إلى  
 المصدر أو المصادر المكتوبة ، من كتب لعرب ، أو مترجمة ، ويمكن للقارئ  
 العادي أن يلمس ذلك ، وهو الأقرب إلى الطابع الصحفي ... طابع البحث  
 الميداني عن المصادر والنقل عنها ... من خلال كتب عديدة ، لا سيما تلك التي  
 امتلأت بالمادة الاخبارية من أخبار بحتة ، إلى مواد قريبة الشبه بالموضوعات  
 والقصص والتقارير الاخبارية نفسها ، وقد وضع ذلك من رسائله العديدة التي  
 أشرنا إليها ، ومن كتبه العديدة أيضا ...

وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى أنه وصف البخل كما رأهم أو سمع  
 من مصادره البشرية عنهم (١٢) ... فأننا نضيف هنا من أشارته الخاصة إلى

مصادره التي جمع من افواهها بعض جوانب الاممية الاخبارية في كتابه او في « سفره » الآخر : الحيوان .. حيث كان يسعى وراء هؤلاء الذين جرت لهم الحوادث مع موضوع كتابه : « .. وزيئا بل كثيراً ما ينتقلون بالناب والمخلب واللدغ واللمس والعض والاكل فخرجت بهم الحال الى تعرف حال الجنائى والجارج والقاتل وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول وكيف الطلب والهرب وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء » (١٢) .

● ان ذلك - في واقع الامر لينكرنا بأكثر من شيء لعل من أهمها وكما يحدث عند الصحفيين والباحثين المتميزين ، قبل أن يحدث في مجال الأدب ، في عهده - على الأقل - .. ومن بينها على سبيل المثال :

— أن سميه وراء مصادره كان يتجاوز المكان الذي يقيم فيه  
— أنه لم يكن يقنع بأي مصدر كان ، وإذا كان قد هاجم البحرينى والمترجمين فإنه هنا يرسم صورة طيبة لما ينبغي أن يكون عليه المصدر البشرى ذلك الذي يكون عنده :

.. قد ابتلى بالناب والمخلب واللدغ .. الخ أى « صاحب تجربة »  
.. فخرجت بهم الحال الى تعرف حال الجنائى .. الخ أى « متابع ودارس »  
.. لطول الحاجة ولطول وقوع البصر .. الخ أى « صاحب خبرة شخصية مكتسبة وموروثة ايضا » ..

فاذا أضفنا الى ذلك اشتراطه عنصر الصدق ومهاجمته للبحرينى وبعض اصحاب الاخبار لتغاضيبهم عن ذلك ، وسريان الأسطورة والامور المولفة وشيوع « الفبركة » عندهم ، وإذا أضفنا مجموعته على بعض المترجمين ممن لا يراعون الدقة لوضحت عندنا بعض معالم اختياره لمصادره البشرية ، والشروط التي ينبغي أن تتوافر في هذا المصدر أو ذاك .

● اتنا نضيف هنا - على سبيل المثال ايضا - بعض هذه المصادر البشرية التي أخذ عنها ، مع تنويعه بمستوى كل منها ، وأين يقف من الزعم والتصديق ، وما هو منزلة كلامه ، ان من بينهم :

« كبار زنوج البصرة - رأس الأنباط بها - شيوخ الملاحين - أبو عبيدة

محمد بن المثنى — أصحاب اللهور — محمد بن الأشعث — ثمامة — محمد بن أيوب  
جعفر — شمشون الطيب — ابن الجهماء — الشيخ الإباضى — داود بن المعتمر —  
هشام بن جهمان — بختشيوخ — أبو هفان — أبو الحسن المدائنى ٠٠٠ الخ  
وغيرهم كثير ٠٠

يل أنه عدد ذات مرة مصابره ، فبعد ذكر القرآن الكريم والحديث الشريف  
«والأثورات والأشعار والأمثلة قال : » ٠٠ أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب ،  
ومن قد أكثر قراءة الكتب أو بعض من مارس الأسفار وركب البحار وسكن  
الصحارى واستترى بالهضاب ودخل فى الغياض ومشى فى بطنون  
الأودية ، (١٤) ٠٠ يريد من ذلك شهود العيان والتجربة والمتخصصين ، وماذا  
يفعل المحررون ، غير السعي وراء أمثال هؤلاء من المصادر البشرية .

● : - وإذا كنا قد اعتبرنا فى مجالات سابقة ، أن بعض كتابات  
قديما المصريين والأشوريين والفينيقيين وغيرهم هى بمثابة لون من ألوان  
الجنود الصحفية ، وإذا كانوا يقولون أنه لو عرفت الشعوب القديمة الصحافة  
بمعناها الحالى لتضاعفت معرفتنا بهم وبحضاراتهم المختلفة ٠٠ وما يمكن أن  
يستتبع ذلك ، من اعتبار بعض الكتابات الصحفية الحالية ، بمثابة تاريخ لهذه  
الأيام ، يعود إليها باحث وقارئ وطالب ومؤرخ الغد ، بشرط الأناة والدقة  
والقارنة والحذر ، وإذا كان « هـ ج ويلز » صاحب المؤلفات الأدبية والتاريخية  
الهامة قد صرح قائلاً ، بأنه ليس أكثر من صحفى ومرة أخرى بأنه ليس أكثر  
من صحفى يعشق التاريخ ٠٠ إذا كان ذلك كله قد حدث مما يؤكد الصلة الكبيرة  
بين الصحافة والتاريخ ، وإن بعض كتاباتها — ولا أقول كلها — تصلح لأن تكون  
تاريخاً ٠٠ تماماً كما أنه : « برغم التحفظات التى تحيط بالصحف كمصدر  
للتاريخ ، وهى تحفظات تتعلق بالشائبات فى الرواية تبقى حقيقة لا خلاف عليها ،  
وهى أن الصحف تقدم لنا نظرة شاملة للحياة وهذه النظرة ضرورية للمؤرخ  
حتى لكانه عاش العصر الذى يكتب عنه من خلال قراءاته لصفحه ، وهذه النظرة  
الشاملة ، برغم كل ما فيها وما عليها تجعل الصحف مصدراً من مصادر  
التاريخ ، (١٥) ٠

أريد أن أقول من خلال هذه المقدمة الطويلة ، أنه وكما يحدث عندما يجيد  
بعض الكاتبين تصوير عصرهم بكل ما فيه ، بجوانب الإيجاب والسلب ، حتى

لتصحيح كتاباتهم تاريخيا له ، هذا الجانب التاريخي الصحفي ، أو التساريخي الذي توافر لبعض الزملاء من الصحفيين حتى اعتبر من خصائص نشاطهم التحريري ، نجده قد توافر أيضا وتعاما عند الجاحظ ، وربما بشكل يصعب أن تجد له مثيلا عند أحد ممن سبقه من كتاب العربية ، ولم يتكرر الا قليلا ، بعد الجاحظ بالنسبة لبعضه وجوره ومشاهدته وأحداثه وأبطاله ومغامريه وساسته وعلمائه ومؤلفيه ووزرائه وغيرهم ، وغيرهم .

بل ان هذا الذي فعله الرجل يجعله الى الصحفي المؤرخ ، أقرب منه الى المؤرخ الصحفي ، ذلك لأنه اذا كانت أغلب كتابات الصحفيين الذين قلنا انها ترتفع الى مستوى التاريخ ، أو تقترب منه حتى لتصحيح تاريخا كاملا يعود بالناس اليه بعد حين قل أم كثر ، اذا كانت أكثرها تتجه الى الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية في معظم الاحوال - هـ - ج ويلز - مثلا ، فان كتابات الرجل - الجاحظ هنا - لم تكتف بذلك ، ولم تقتصر على هذه الجوانب وحدها ، وانما - وهذا معنى قولنا انها أقرب الى الصحافة التاريخية - كان لتعمدها الكبير ، وتنوعها الذي يجلب عن الحصر ، ووصولها الى سطح المجتمع العباسي ، وإلى قاعه معا ، ونقلها لجميع الصور من أول صور القصور الشامخة وما يدور داخلها ، وإلى الحارات الضيقة والقفرة ، من مجتمعات الخلفاء والأمراء والوزراء حتى مجتمعات اللصوص وحلقات الجولة والمشغونين ٠٠ أي انه بالنسبة لهذا الجانب الصحفي التاريخي نجد له فيه باعا طويلا ، وقديما راسخا .

● ٠٠٠ هل كان الجاحظ عالما ؟ بالمعنى الذي تتجه اليه هذه الكلمة اليوم ؟ وفي أسلوب آخر : هل ما كتبه الجاحظ عن الحيوان مثلا ، يجعله عالما في هذا التخصص مثل هؤلاء العلماء الذين نراهم في كليات العلوم وفي تخصصات علم الحيوان أو الحشرات أو غيرها ؟

صحيح أن الرجل كان باحثا من الطراز الأول ، ولكن هل كل باحث عالم ؟ وهل كل من يبحث ، يكون للفائدة العلمية المقتنة ، أو المنظمة والمرتبطة بطلاب العلم أو بباحثيه ؟

وصحيح أن الرجل قد يكون أكثر ثقافة في ميدان « علم الحيوان » من بعض علمائه الحاليين ، ولكن هل تكفي هذه الثقافة ليكون صاحبها عالما بالمفهوم

الحالى للكلمة ، أم أن هناك أطر وأساليب ونظريات وتجارب معملية ومادة تصل للمتخصصين أو ينبغي أن تتخذ مسارها اليهم ؟

وصحيح أيضا أن كتاب الحيوان قد يشق جمع مثله — ولا أقول تأليف مثله — على عدد كبير من الباحثين في هذا الميدان ، فهل يعنى ذلك أنه عالم العلماء ، في هذا الميدان ؟ ٠٠ الحق أنني بعد تفكير مليء ، في مثل هذه التساؤلات وغيرها ، وباستقراء مواد كتبه ، وطرق الحصول على ما جاء بها ، وتوجهاتها وأساليب كتابتها ومواطن العناية الأولى بها ، وما يتصل بذلك كله ، وقد انتهيت الى رأى يقول ان الرجل لم يكن عالما بالحيوان ، ولا كان في ذهنه أن يكون كذلك ، وإنما كان يقرأ ويبحث ويتتقف وينقل للجميع ما قرأ وما جمع ويطلعهم عليه ، ويغلف ذلك كله بما يحبب القراء الى مادته ، ويضمنها للغريب والعجيب ، فهو جامع نعم ، باحث أيضا لكنه ليس عالما ٠٠ وان قال كثيرون بذلك وذكرناه أيضا بشكل عمومي ٠٠ وإنما هو هنا أقرب الرجسالى الى « المحرر العلمى » فى مجال علم الحيوان وكذا المحرر صاحب الاهتمام العلمى ، وليس المحرر المتخصص ، أى أنه ليس متخرجاً فى كلية العلوم ، ولا يحمل درجات عالية فى هذا التخصص ، ولا يكتب أيضا كتباً علمية كاملة ودقيقة ، ولا يحرر أيضا لمجلات علمية متخصصة تماماً ، وذات تخصص دقيق تماماً ، وإنما هو محرر مهتم بتحرير الجانب العلمى فى :

#### ١ — مجلات تخصص عام

#### ٢ — مجلات عامة ٠٠

أى أن كتاباته وتوجهاته هى لعامة القراء ، وان كانت ذات موضوع غالب هنا هو : « الحيوان » ٠٠ وهى فى ذلك أشبه أيضا ببرامج « عالم الحيوان » فى الإذاعة والتليفزيون بل من الذى يستطيع أن يقول أنها ذات موضوع واحد ، وكتاب الحيوان نفسه — ان غلب عليه هذا الطابع — الا ان به الكثير من جوانب الأدب واللغة والتاريخ وغيرها ٠٠ ؟

وبالمثل ، هذه الكتب الأخرى المماثلة ، من لسن « البخلء » و « البيان والتبيين » وغيرها ٠٠ لكنها « العبقريّة الجاهليّة » المتعددة الجوانب ومجالات الاهتمام ٠٠

وهكذا نجد أنفسنا أمام جانب صحفي جاحظي آخر ، هو جانب الجاحظ  
المحرر العلمي ، .. محرر الاختصاص العام في مجالات عديدة : أبرزها  
الحيوان ..

● وقد يؤكد ذلك - أولا - ما قلناه من أن هذا الكتاب كان من الممكن  
قسمته ، على أكثر من عدد واحد من مجلة ذات تخصص عام في مجال  
الحيوانات ، مثل هذه المجلات العديدة التي نراها مهتمة بنفس الموضوعات ،  
وتطرح للبيع على قارعة الطريق ، وفي الأكشاك ، وليس للمتخصصين وحدهم .

● وقد يؤكد ذلك - ثانيا - عدد من الأقوال المتصلة بهذا الكتاب نفسه  
عن قرب تماما كاتصالها بصاحبه الصحفي المحرر العلمي المتخصص ، الأديب  
معا ، ومبجحان الله الذي يجمع كل هؤلاء في رجل واحد ، لكنه الرجل الصحفي ،  
أو - كما كانوا يقولون عن الصحفي - الرجل المكون من عدة رجال .. إذن هذه  
الأقوال من مثل :

... ما يقوله الرجل نفسه في مقدمة كتابه من طابعه في كتابته ، بما  
ينفي أنه قصد أن يكون عن الحيوان فقط أو الخاصة وحدهم :

« وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم وتشابه فيه العرب والعجم ، أي  
أنه لجميع الناس ، ومن جميع الأجناس أيضا .. »

« فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة  
وأشرك من علم الكتاب والسنة .. ويشتهيه الفتيان كما تشتهيهِ الشيوخ  
ويشتهيه الفاتك كما يشتهيهِ الناسك ويشتهيهِ اللاعب ذو اللون كما يشتهيهِ المجد  
ذو الحزم ويشتهيهِ الأريب ويشتهيهِ الغبي كما يشتهيهِ الفطن » (١٦) ..

أي أنه أيضا كتاب لعامة الناس ، فضلا عن تنوع مآلته .. ومن هنا كان  
قولنا باقترابيه من مجالات التخصص العام ..

... بل .. وأكثر من ذلك كله ، ومما يؤكد هذا المعنى الأخير نفسه ،  
معنى اقترابيه من أعداد لمجلات تخصص عام في علم الحيوان ، ومن العجيب  
أيضا ، أن يكون الرجل نفسه - الجاحظ - قد قام بتقسيم كتابه هذا إلى أجزاء

أطلق عليها اسم « المصاحف » ٠٠ من المصحف هنا ، وفي ليست بمعنى المصحف الشريف كتاب الله ، وإنما مجموعة المصحف أو الصفحات ٠٠ اقرأ في تلك قوله :

« كان العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادير الأشعار ٠٠ ويضيف محقق الكتاب قائلا :

« كان يسمى كل جزء من أجزاء الحيوان مصحفا ، وفي النسخة الشنقيطية من الحيوان نجد مكتوبا في نهاية كل جزء : تم المصحف ٠٠ من كتاب الحيوان ، ويليه المصحف ٠٠ » (١٧)

● وقبل أن تنتقل إلى مناقشة مسألة أخرى ، من تلك المسائل التي نقيم بها هذا الرأي في كتابات الجاحظ ، نقوم بالقاء نظرة طائر سريعة أخرى ، على عدد من مجالات نشاطه وكتابات وشخصيته - معا - نرى فيها ، من منطلق صحفي ، اقترابا من هذا الجانب الذي تدعو إلى ملاحظته وتبليغه ، بل ودراسته أيضا ، جانب الجاحظ الصحفي والأديب معا ٠٠ اننا نجد أن الرجل :

— كان من أوائل الذين استخدموا « وراقا » خاصا يكتب ما يمليه عليه ، ويقوم بنسخ عدة صـور مما يكتب ، مما يفكرنا بهؤلاء العبيد من الناسخين الذين كان يستخدمهم « باعة الأخبار » في الموانئ الأوربية عامة والإيطالية خاصة ، ثم استخدمهم أصحاب الصحف المخطوطة ، وإذا كان محقق كتاب - أ - عبد السلام هارون - يقول في هامش كتابه : ( ما كان أجدر بهذه الكلمة أن تستعمل في معنى السكرتير التي حيرت اللغويين ) يريد كلمة « الوراق » ٠٠٠ فأننى أرى أن وراق الجاحظ لم يكن يقترب من السكرتير فقط وإنما من الكاتب والناسخ الذي تطور بعد ذلك إلى جامع الحروف ٠٠ وهكذا ، عموما فقد كان هذا الوراق واسمه « زكريا بن يحيى » ٠٠ ينسخ من الرسالة الواحدة ، أو « المصحف » الواحد عشرات يبعث بها إلى من يريد الجاحظ أن تصل إليه من عليه القوم .

— وإذا كان بعض الكاتبين والنقاد - خاصة القدماء - يأخذ على الجاحظ أن كتاباته كان يعوزها الترتيب أحيانا والتهذيب في أحيان أخرى ،

فإننا نرى أن لذلك أكثر من سبب يدخل ضمن الدائرة الصحفية أيضا ، خاصة دائرة كتابة المادة المقالية ٠٠ أى أن هذه الحاجة إلى الترتيب والتهذيب ، كانت تظهر عندما يتعرض الرجل لكتابة مادة مقالية أولا ٠٠ وما ذلك إلا :

● لأن الرجل كان موسوعيا يحتفظ في ذاكرته وصدره بمئات من المعلومات المختلفة والمتباينة عن الموضوع الذى تتناوله كتابته ، ومن ثم فقد كان يواجه شأن كتاب المقالات من الموسوعيين ، صعوبة بالغة فى تنظيم تم ترتيب وتهذيب ٠٠ هذا الكم الهائل من المادة المتجمعة لديه ، خاصة فى وقت لم تكن طرق التنظيم والفهرسة وحفظ المعلومات قد تقدمت كثيرا ٠٠

● لأن الرجل كان مشدودا إلى جانب الهدف الثقافى الذى يريد تحقيقه من وراء مثيلات هذه المقالات ، ومن ثم فقد كان هذا التنوع الكبير فى مجال واطار ومضمون المادة المقالية الواحدة ، شأنه شأن بعض المتميزين من كتاب المقالات ٠٠

● ثم لأن طبيعة المقال نفسها ، وخصائصه التحريرية — منذ عرفت المقالات — وهى ترتبط بذلك النظام « اللافاعدى » أو بالحاجة إلى « الاكتمال » و « النظام » فى آن واحد ، بحسبه مجرد « محاولة » (١٨) غير مكتملة أو غير ناضجة تماما ٠٠ تؤكد ذلك بعض الأقوال التى تناولت هذا الفن الأدبى الصحفى القديم الجديد معا ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

— « المقال هو انشاء كتابى معتدل الطول فى موضوع ما ، وهو دائما يعوزه الصقل ومن هنا يبدو أحيانا أنه غير مفهوم ولا منظم » (١٩)

— « وثبة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام وهو قطعة انشائية لا تجرى على نسق معلوم ولم يتم وضعها فى نفس صاحبها ، أما الانشاء المنظم فليس من المقال فى شيء » (٢٠) .

أن استقراء هذه التعريفات — خاصة الأخير منها — ليقدم الاجابة المنطقية على قلة ترتيب وتهذيب مادته المقالية .

● وقضلا عن ذلك كله ، فقد كان فى جدة موضوعاته وأفكاره وتنوعها

بالإضافة إلى كثرة مادتها المتجمعة - وفي بعض ذلك الذي لم يساعده تماما على الترتيب والتخطيط والتهديب ٠٠ وقد أشار إلى ذلك أحد كبار المتصلين به عندما قال عن حاجة كتابته إلى هذه الخصائص : « ٠٠ فهو شأن كل كتابة جديدة في أمر متشعب الأطراف ممدود النواحي » (٢١)

٠٠ في النهاية أقول ، أن حاجة كتاباته هنا إلى مثيلات هذه الخصائص ترتبط أولا بالمادة الأدبية ، لا الصحفية ، أما وقد كانت هذه إلى المقالات الصحفية أقرب فانتنا لا نرى فيها عيبا ، أو تقصيرا من جانب الرجل ، فقد كانت تعود إلى نصفه الصحفي لا الأدبي .

— وما يذكر باقتراب كتاباته من مادة الصحف والمجلات التحريرية ، فضلا عن ذلك كله ( الأفكار الجديدة - التنوع - المادة الاخبارية - المصادر المختلفة والصادقة - الواقعية واعطاء صورة العصر - حسن الاختيار والاصطفاء - جوانب الأهمية والجاذبية في المادة ) ٠٠ إلى غير ذلك كله مما ذكرنا ، وما سنتذكر باذن الله ٠٠ مما يذكر بهذا الاقتراب أيضا ، أن كتاباته ورسائله ومباحثه وكتبه ، كانت تنتشر بين الناس بسرعة لم تعرفها كتب غيره من ناحية ، وتذكر بالانتشار والتوزيع السريع للصحف والمجلات من ناحية أخرى ، كانت الرسالة أو كان المصحف - الجزء من الكتاب بما يشبه مجموعة الملزم - وكان الكتاب نفسه سرعان ما ينتشر ، وينسخه الناسخون ، ويقبل عليه العامة والخاصة ويتنافس الجميع من أجل ذلك ، ولنا فيه أكثر من دليل على سرعة انتشار كتبه وشهرتها ٠٠ من بينها :

● قيل لأبي هفان - عالم وراوية معاصر له - لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنثك ؟ فقال : أمثلني يخدع عن عقله ، والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفى لما أمسيت إلا بالصين شهرة !

● وذات مرة ، أظهر أحدهم بعض الخطأ في كتابه « البيان والتبيين » ، فأسرع إليه حتى يقوم بإصلاحه ، نظر الجاحظ إليه وكأنه يقول له ، لقد فات وقت الإصلاح ٠٠ وأصبحت النسخ بأيدي القراء ٠٠ قال له : الآن وقد سار الكتاب في الأفق ، هذا خطأ لا يصلح ، ٠٠

## ( ٤ ) يؤلف فقط أم يجمع أيضا ؟

حتى نصل أخيرا إلى نقطة أخرى هامة من النقاط المتصلة بهذه الدراسة  
•• والتي يمكن أن تضيف جديدا مفيدا إلى موضوعنا ، بعد كل هذه الرحلة  
للدلالة على أن الجاحظ له جانبيه الصحفي ، كما أن له جانبه الأدبي ، وأن  
اختلفت مستويات الجانبين من آن لآخر ، من كتابة لأخرى ، من مجال لمجال ••

وهذه النقطة نقدمها هنا في صورة سؤال أساسي يقول : هل كان ما يفعله  
الجاحظ كله ، من أوله إلى آخره ، بجميع جزئياته ، مما يدخل في مجال  
التأليف ؟ والتأليف الإبداعي وحده ؟

وفي أسلوب آخر : هل كان هذا النتاج الجاحظي المتعدد والمختلف ، يأتي  
من بنات أفكاره ، أو من بنات أفكاره وحدها ، مختلطة ومتشابكة مع مواهبه  
التي منحها الله إياها ، تماما كما هو الحال عند الشعراء والقصاصين وغيرهما  
من المبدعين ؟

● **انتقا تقول أولا :** لعل في أكثر المقدمات السابقة ، ما يؤكد أن الرجل  
كان مبلغ همه ، وكان أكثر نشاطه ، وكان جل اهتمامه موجها بالدرجة الأولى  
إلى :

— البحث عن موضوعات مهمة وجديدة وجذابة  
— ليجمعها ولينقلها عن المصادر المختلفة ، خاصة المخطوطة ، مؤلفة  
أو مترجمة ، ثم البشرية من الذين صنعوها أو عاصروها أو كانوا شهود  
عيان عليها ، أو عن طريق رواتها ، أو تلك التي كان هو شاهدا عليها

— بعد أن يصورها في بوتقة الجاحظية الخاصة من حيث شرحها  
وتحليلها ومقارنتها بغيرها ، والخروج من كل ذلك بعمل قني جديد يمكن أن  
يصبح نتيجة لهذه المقدمات ، كما يمكن أن يصبح أيضا بمثابة مقدمة لأعمال  
قنية جديدة وأخرى ••

— مع تقديم كل ذلك بالطابع الجاحظي الخاص فكرا ولغة واسلوبا

● ثم نقول ثانيا : ان النقطة الأولى ( البحث ) والنقطة الثانية (الجمع والنقل) .. هما من خصائص الباحث والصحفي ، أو الباحث الصحفي ، أكثر من كونهما من خصائص المؤلف الذي يقدم بنات أفكاره الخاصة ، وإبداعه الذي يعكس مواهبه .

— ان الجاحظ — مثلا — لم يترك لنا ديوان شعر كما مرىء القيس أو كزهير بن أبي سلمى أو كالنابغة ، أو كحسان بن ثابت ، أو كالبحتري أو كإبي تمام أو كإحمد شوقي ..

— ولا هو ترك لنا عدة خطب عصماء ، مثل تلك التي تركها قس بن ساعدة الأيادي أو علي بن أبي طالب ، أو قطري بن الفجاءة أو مصطفى كامل أو غيرهم ..

— ولا هو بالذي ترك لنا بديع مقاماته العربية  
— ولم يعرف عنه أنه قام بتأليف قصة من القصص العربية ، الذي كان بعضه قد عرف في عهده ، وقبل عهده .. وعلى الرغم مما جمع وروى من قصص العرب وأخبارهم وأنسابهم وتاريخهم الى غير ذلك كله ، من ألوان النشاط الأدبي الفنى البحث ، وإنما أخذ هذه الفنون والأطر الأدبية التي كانت معروفة في عهده أو على عهد سابقيه ، ( أى قام بجمعها ) .. ثم روى بعضها لنا عندما كان المجال هو مجال الرواية ، وحكى بعضها الآخر عندما كان المجال هو مجال الحكاية ، وتقد بعضها الثالث عندما كان المجال هو مجال النقد ، وسخر من بعضها الرابع عندما كان المجال هو مجال السخرية .. وقل مثل ذلك في أغلب ما قدم على صفحاته ، مختلطا بالطابع الجاحظي نفسه ..

● ثم نقول ثالثا : وإذا كان « البحث » طابع العالم ، فهو ليس طابعه وحده . فهناك الباحث الصحفي ، والاجتماعى والقانونى والتراثى .. وغيرهم ، لكن مادة الرجل المتنوعة والمتعددة ، وحسن اختياره للموضوعات التي تشبه موضوعات صحف اليوم ومجلاته — خاصة الأخيرة — وطرق وأساليب بحثه ، والقالب الذي وضع فيه مادته ، ولغته وأسلوبه ، تجتذبه بشدة الى الجانب الصحفي . وإذا كنا نرى كثرة عديدة من الصحف والمجلات الآن ، تبذل عنايتها الكبيرة من أجل انشاء أقسام « الأبحاث » الصحفية ، وبعضها يضم « المكتبة الصحفية » وبعضها يضم « مركز المعلومات » كله حتى يكونا في خدمة «البحث

الصحفي، أو الدراسة الصحفية» ٠٠ وصلتها كبيرة جدا بـ : « التحقيق الصحفي » أو « التحقيق الدراسي » الذي يقوم المحرر المناسب ، أو أكثر من محرر بتنفيذه على مهل ، ويستغرق منه — أو منهم — ذلك التنفيذ وقتا طويلا ٠٠

وإذا كان ذلك كله هو ما يحدث ، فلمله يذكرنا بموقف كتابات جاحظية كثيرة ، أن المحرر هنا لا يؤلف ، وكذلك الباحث ، ومثلهما الجاحظ نفسه ٠٠

● وحتى في المجالات التي احتل الرجل فيها موقف « المؤلف » عن جدارة واستحقاق فلم يكن مثله مثل « المخترع » الكامل ، أو « الشاعر » أو « القصاص » الذي يبدع ويبتكر ، وإنما كان يستند إلى أصول وقواعد واقعية تعيش ويراهها الناس أو قصصا عليها الرواة والقصاصون والأخباريون ومن اليهم ، لكنه — وكما قلت — صهرها في البوتقة الجاحظية ، مثل ما يفعله الأديب — نعم — ولكن ليس الأديب وحده ، فالكتاب الصحفي يفعل ذلك أيضا ، ويقدم للناس الصور والمشاهد والألوان والتجارب والمواقف والقضايا بعد أن تنصهر في بوتقته الخاصة ، وأصبحت مشربة بروحه الخاصة ٠٠ والآن استمع أن يكون مثل هذا الكاتب ٠٠ ضاحك القلم وهو نفس الشيء ، بالنسبة للخروج من نتائجها بمادة جديدة مفيدة ، للقراء والمجتمع كله في نهاية الأمر ٠٠

● وأما عن الطابع الجاحظي من حيث اللغة والأسلوب ، فسوف تثبت المصور القادمة — بانن اش — أنه لغة الجاحظ وأن أسلوبه ذواتا صلة قوية ، بلغة الصحافة وبأسلوبها ، وأن « البيان الجاحظي » كان من أكثر بيان عهده قريبا من اللغة الصحفية التي نستخدمها اليوم ، بقدر ما ابتعدت عن لغة معاصريه ، وأساليبيهم ٠٠ وأن ، ومن خلال المقدمات السابقة ، فقد كان الرجل يؤلف ويجمع معا ، أي أنه لم يكن مؤلفا فقط ، أو أدبيا فقط ، وإنما كان جامعا ناظلا ، يلتقط بمهارة ويجمع في بقعة ، وينقل لنا في بلاغة ٠٠ اليس كذلك ؟

● ثم اننا نقساعل رأبعا : هل حميم الصحفيين من الجامعين الناقلين المتكلمين لما يقدمه غيرهم فقط ؟ أو — في أسلوب آخر — هل يقتصر دور الصحفي — كائننا من كان — وفي جميع الأوقات والأقسام والظروف والمستويات على مجرد النقل عن الآخرين ، والنقل وحده ؟ ٠٠

الحق أن هناك نحاتح ومستويات كثيرة من العمل الصحفي ، والصحيفة

— كخلية نشاط — يوجد فيها من يجمع « الرحيق الاخبارى » — من يقوم بجمع  
الأخبار ، ومن يقوم بصياغتها ، ومن يقوم باستكمالها ، ومن يقوم بكتابة  
ما يمكن أن تسفر عنه من موضوعات وقصص اخبارية ، ومن يقوم بكتابة  
ما تسفر عنه من تقارير وتحقيقات ودراسات وبحوث ، ومن يقوم بشرحها  
وتفسيرها وتحليلها وبيان ما تسفر عنه وتأييد ذلك أو تأكيده أو معارضته  
وهكذا ، وهكذا أيضا نجد أن هناك المحرر الذى يجمع وينقل عن غيره — وهم  
كثرة — ونجد كذلك المحرر الذى يجمع وينقل ويثبت ذاتيته وتقديره بما يقدم  
بعد الجمع والنقل ، تماما كما لا نعدم وجود المحررين المؤلفين ، أو المؤلفين  
من المحررين الصحفيين ، بعضهم يؤلف فى مجال السياسة ، وبعضهم الثانى  
يؤلف فى مجال الأدب ، وبعضهم الثالث فى مجال الفن ، والرابع فى مجال  
الاقتصاد ... وذلك كله فضلا عن الباحثين الصحفيين المتميزين من أعضاء  
أسرة قسم الأبحاث ، أو التحقيقات الصحفية أو غيرها .

بل اننا اذا نظرنا الى التأليف بمعناه القريب ، أو حتى معناه الأبعد  
— ودون اسراف منا فى ذلك حتى لا تختلط الحدود — فاننا لن نعدم وجود عدد  
من المحررين « الأبناء » بل والشعراء أيضا ، فهذه واحدة ، وتلك أخرى ،  
على الرغم من كل الفروق القائمة ، بين الصحافة الخبرية ، أو الاخبارية ،  
وبين الأدب ، ولا أقول بين غيرها من ألوان الصحافة ، وبين الأدب  
الصحفى ..

● باختصار شديد أقول أخيرا ، حث عندك أحد الكتب الجاحظية  
الشهيرة من أمثال : الحيوان — البخل — اقسام فضول الصناعات ومراتب  
التجارات — الزرع والنخل والزيتون والأعشاب — الملوك والامم السسالة  
والباقية — الأمصار — رسالة فى الكيمياء — المعادن — رسالة فى الخراج ...  
تجد أن الطابع الغالب عليها هو طابع الجمع والنقل من هنا ومن هناك ، فهو  
بالنسبة لها جامع ناقل ، باحث ، أكثر منه مؤلف علمى ، أو فنى ، بالمعنى  
المتعارف عليه فى هذين المجالين ، وقد أشرنا من قبل الى أنه لم يكن عالما  
بالمعنى المعروف والقريب من الأذهان عندما يذكر تعبير العالم ... كذلك هو  
فى بعض أدبياته ، ولا أقول كلها بالنسبة لتعبير « المؤلف » ..

● بل لننا للتسايل خامسا ، واكثر من سؤال واحد :

— هل وصفه الحى الواقعى للبخلاء ، والزفوج واللصوص والحواة  
كما شاهدهما بعينيه ٠٠ هل يعتبر ذلك أدبا ؟ أم صحافة ؟ أم هما معا ؟

— وهل يعتبر نقله لجميع الصور والمشاهد التى جرت أمام عينيه  
فى لبصرة وبغداد ، أيعتبر أدبا ؟ أم يعتبر صحافة ؟ أم هما معا ؟

— وهل فى عشقه للحرية ، ورفضه للمناصب الحكومية وزعمه فيها ،  
ما يقربه ما بطابع الأديب ؟ أو الصحفي ؟ أو من طابعهما معا ؟

— وهل فى كتاباته القائمة على المصدق أولا ، وعلى الدقة ثانيا ،  
وعلى الموضوعية ثالثا ، ونيله بذلك كل رواية مختلفة ، أو حلونة ، أو أضيف-  
اليهاكروايات بعض رجال البحر والسماكين وبعض المترجمات ٠٠ هل ذلك  
كله يدخل فى عالم الأدب ؟ أم فى عالم الصحافة ؟ ، أم فيهما معا ؟

— وهل فى بعده عن الخيال ، الذى حد كراهيته له وحديثه عن ذلك  
كثيرا مما يقربه من الأديب أكثر ، أم من الصحافة أكثر ؟

للمق أن بعض هذه الصور والانشطة والعطيات قد يأخذ من الأدب  
بجانب ، ولكنه يأخذ أيضا من الصحافة فى مجموعته ، وعلى سبيل التركيز ،  
بالعملية التحريرية وما تنجبه اليه من أطر وأنماط وأساليب ، تتوقف جندها  
قليلا ، وعلى اثر رصدنا لبعض الأقوال التى تناولت الرجل ٠٠ مما يذكر  
بهذه النقاط السابقة فى مجموعها ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

● أن بعض المؤلفين قد حاول الوصول الى جوانب هذا التعدد الذى  
يؤكد وجه الجاحظ الآخر — وجه الصحفي هنا — فكتب يقول عن الجاحظ أنه :  
تناول كل فن ومارس كل علم عرف فى زمانه ، مما وضع فى الاسلام ، أو  
نقل عن الأمم الأوائل ، فأصبح له مشاركة فى علم كل ما يقع عليه الحس ، أو  
يخطر بالبال ، فهو راوية متكلم فيلسوف كاتب مصنف مترسل شاعر مؤرخ  
عالم بالحيوان والنبات والموات وصاف لأحوال الناس ووجه—وه معاشهم  
واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم ، (٢٢) ٠٠

( الجاحظ )

أى أنه ليس أدبياً فقط ؛ وإنما يجمع بين أكثر من رَجُلٍ واحد ، لعل أقربهم إليه ، هو الصحفي ، الذى يتسع عمله فى أحيان كثيرة ، لبعض أعمال هؤلاء معا .

● ويقول آخر ، عندما رأى تعدد كتاباته ، حتى أنه لم يترك موضوعا إلا وكتب فيه ، حتى الشطرنج والتفاح والأصنام وأخلاق الملوك والجن والغول والطعام وغيرها ، وغيرها بما يؤكد طبيعة الرجل « الجامع » الماهر ، المجدد للفكر ومتعدد الجوانب أيضا : « . لم تقف به همته عند إحدى تلك الغايات التى بلغ بها أكابر الكتاب ممن تقسده أو عاصره قلم يشأ أن يتخصص كما تخصصوا ، ولم يرد أن يتميز بالأنواع التى بها تميزوا بل حمل نفسه على أن يبرزهم جميعا . لأنه تراه لم يترك علما معروفا فى زمانه لم يضع فيه مؤلفا ، ولم يدع فنا لم يكتب فيه مصنفا ، وقد يكون هذا المصنف أو ذاك المؤلف رسالة موجزة ، وقد يكون سقرا متعدد المصاحف والأجزاء » (٢٢) .

هل يمكن — بعد ذلك كله — أن نقول ، أن للرجل أكثر من مستوى واحد ، من مستويات الكتابة ؟

— أما المستوى الأول ، فهو المستوى الأدبى الكامل ، الذى كان الرجل يقف فيه مبدعا منشئا مبتكرا :

— وأما المستوى الثانى ، فهو مستوى الباحث العام ، الجامع الناقل الدقيق والصادق .

— وأما المستوى الثالث ، فهو مستوى الكاتب الصحفي ، الجامع الناقل الدقيق والصادق أيضا ولكنه وبالإضافة إلى ذلك ، مستوى مصور عصره ، فى واقعية ومطابقة لقتضى الحال . .

الأول أدبى والثانى باحث والثالث صحفى . لكن الباحث والصحفى يلتقيان فى مواقع عديدة ، وصفحات عديدة أيضا ، ومن هنا كان الرجل كل هؤلاء معا . بل أن الصفحات القادمة سوف تثبت — يائن الله — أن الرجل عرف مستويات التعبير الصحفى كلها . . الأصلية والفرعية أيضا ، وليست هذه المستويات الثلاثة الأخيرة فقط .

### هوامش الفصل الرابع :

- (١) محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحرير الصحفي العام »  
ص ١٦ - ١٧ .
- (٢) خلال الفصل الأول من هذا الكتاب .
- (٣ - ٤ - ٥ - ٦) محمود أدهم : « الفكرة الاعلامية » صفحات  
٩ ، ١٠ ، ٤٩ .
- (٧) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى أسلوب  
الجاحظ » ص ٨ .
- ( ٨ - ٩ ) حسن السندوبى : « أدب الجاحظ » ص ١٦٦ .
- (١٠) أحمد الاسكندرى وزميله : « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه  
ص ٢٢٢ .
- (١١) رجاء العودة الى الفصل الثالث .
- (١٢) خلال الفصل الثالث أيضا .
- (١٣) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ١ ص ٢٠ .
- (١٤) المصدر السابق ، ج ٦ ص ١٢ .
- (١٥) محمد سيد محمد : « الصحافة بين الأدب والتاريخ » ص ٢٢ .
- (١٦) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ١ ص ١١ .
- (١٧) المصدر السابق ، ص ٢٧ .
- (١٨) "Essay"
- (١٩) عبد اللطيف حمزة : « المدخل فى فن التحرير الصحفى » ص ٢٢٧
- (٢٠) عبد العزيز شرف : « فن المقال الصحفى » ص ٧ ، عن د.  
جونسون .
- (٢١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » من مقدمة ١٠١ عبد السلام هارون  
ج ١ ص ١٨ .
- (٢٢) أحمد الاسكندرى وزميله : « الوسيط فى الادب العربى  
وتاريخه ، ص ٢٢٢ .
- (٢٣) حسن السندوبى : « أدب الجاحظ » ص ١٩٧ .



## **الفصل الخامس**

### **جذور الفنون الصحفية في أدب الجاحظ**



بعد ذلك كله فلتسأل : هل هناك صلة ما ، بين الفنون التحريرية الصحفية وبين كتابات الجاحظ ؟ هل توجد هذه الجسور التي تمتد بين الأنماط والأطر التحريرية المختلفة ، التي نراها فوق صفحات الجرائد والمجلات اليوم ، وبين هذا النتاج الجاحظي المتعدد ؟ وأقول : الفنون والأنماط التحريرية فقط ، وليس غيرها ، إذ المعروف أن الصحيفة أو المجلة تحتوى - أيهما - على مواد أخرى عديدة ، بعضها تحريري ، وبعضها اعلاني وبعضها ترويحي ، وبعضها مصور ، وبعضها جمالي . وما إلى ذلك كله . . .

٠٠ فإذا عدنا إلى أحد مؤلفاتنا السابقة ، لقلنا أننا خلال هذه السطور ، نبحث عن تلك الصلات التي يمكن أن توجد أو أن نجد رابطة ما تقوم بينها وبين هذا الجانب من جوانب « محتوى » الصحيفة أو المجلة الحديثة . . .

« — مادة » تعريفية « بالصحيفة أو المجلة وبصفحاتها وأبوابها وزواياها . . . الخ .

« — مادة » خبرية « أو اخبارية حديثة وقائعية مفردة أو موزعة أو متشابكة .

« — مادة تجمع » بين الراى والخبر « أو تأخذ من كل منهما بنصيب .

« — مادة » معلوماتية « متداخلة مع المواد السابقة أو مفردة .

« — مادة » تقريرية « تسجيلية « تجمع بين أكثر من مادة من المواد السابقة .

« — مادة » توجيهية وإرشادية « مفردة أو متشابكة .

« — مادة » تعليمية « .

« — مادة » خاصة أو متخصصة « .

« — مادة » مسلية « أو ممتعة ومؤنسة بالحرف والكلمة والمسطر .

« — مادة » متنوعة « تجمع بين أكثر من جانب واحد من الجوانب

السابقة « (١) .

وبطبيعة الحال ، فإننا لن نركز على جميع هذه المواد ، وما تعنيه بالنسبة لتحرير الصحيفة أو المجلة من جانب ، ومن حيث الصلة بكتابات الجاحظ من جانب آخر ، وإنما نركز على بعضها المهم أولا ، والذي تتضح هذه الصلة نفسها في مجاله . . . كما نشير هنا إلى أن اعتمادنا الأول ، سوف يكون على

عدد من مؤلفاتنا السابقة سواء تلك التي تناولنا فيها هذه الفنون من جانب ، أو تلك التي أشرنا فيها إلى الصلة التي قامت بين جذور هذه المادة التحريرية ، أو هذا الفن التحريري ، من جانب آخر ، أو ما استجد لدينا من خلال المادة الجاحظية ، مما يعكس هذه الصلة نفسها أو يقيم بينهما الجسور المختلفة ، ومن هنا نقول :

#### أولاً : من حيث المادة التعريفية بالصحيفة أو المجلة ..

إذا كنا قد اعتبرنا أن هناك أكثر من وجه من وجوه الشبه بين بعض كتابات الجاحظ ، لا سيما بعض رسائله ، وأجزاء كتبه الكبيرة ، وكتبه في مجموعها ، فإن هذه الصلة بين المادة التعريفية بالصحيفة أو المجلة لم تكن قوية ، وذلك لأكثر من سبب :

— أن ارتباط التعريف هو أساسي بالصحيفة أو المجلة الحديثة ، وبدلاً منه ، فإنه يوجد لكل كتاب أو رسالة عنوان يكون أكثر ارتباطاً به ، وقد كانت آثار الجاحظ الفكرية كذلك .

— أن صفة الدورية وتتابع الصدور لم تكن معروفة بالنسبة لهذه الآثار على النحو الذي تعرف به الآن بالنسبة للكتب الدورية ، أو للكتيبات أو النشرات الدورية مثلاً .

— أن التعريف بالأثر الجاحظي ، كتاباً كان أو كان مصحفاً أو كانت رسالة ، كان يقدم فعلاً ، ولكن من خلال « فاتحة الكتاب » أو مقدمته ، وكانت هذه أقرب إلى المقال منها إلى مجرد التعريف البسيط الذي يقدم كلمات قليلة جداً ، كما هو الحال بالنسبة للمادة التعريفية الصحفية أو المجلدية ، ومن ثم ، فإن تعريف الجاحظ بكتبه — كرائنا — هو أقرب إلى المادة المقالة ..

#### ثانياً : من حيث المادة الخبرية :

وأما من حيث المادة الخبرية ، وصلة الكتابات الجاحظية بها فقد تناولناها أكثر من مرة ، خلال صفحات الكتاب ، ومن ثم فلا حاجة بنا إلى إعادة ذلك التناول ، وإنما نحن نقول فقط وباختصار شديد :

— أن الرجل كان جامعاً للأخبار من الطراز الأول . وضح ذلك من كتابة جميعاً ، فلم يك يترك المناسبة دون ذكر ما يعرف من الأخبار الجديدة عنها التي جمعها أو أتاه بها مصدر ما من هنا وهناك .

— وأن المادة الاخبارية عنده بعضها كان مفرداً لحاله ، وبعضها يتشابه مع غيره من المواد ، شأنه في ذلك شأن كثرة من أخبار المجلات التي تأتي عبر موادها التحريرية وفي ثناياها .

— أنه عرف الأسس والقواعد الرئيسية التي تقوم عليها الأخبار ، بل ووضع الرجل رسالة في ذلك أطلق عليها اسم : « الأخبار وكيف تصح » .  
— أنه كان يسعى من أجل تطبيق عنصر « الانتقاء » لمادته الاخبارية فلم ينشر أى خبر كان ، ولم يورد أية مادة اخبارية بين ثنايا كتاباته على أى نحو تكون وإنما كان الرجل يصطفى من بين ما يتجمع لديه منها الجسدي والمهم ، والصادق ، والجذاب ، والطريف . . قبل غيرها من أخبار قديمة أو معروفة ، أو غير مهمة ، أو جافة أو غير صحيحة .

— أن عنايته كانت تتجه الى أهمية الخبر في حد ذاته ، ومن حيث كونها مادة خبرية ، فلم يقدم مالا يستأهل التقديم من أخبار الحكام والأمراء ، في الوقت الذي قدم فيه ما يستحق من أخبار العامة . . الذين يقفز بعضهم الى قمة الأحداث ، فتتحقق لهم الشهرة من خلال الحدث نفسه . . كزعيم الزنج مثلاً . . وليس من خلال أى شيء آخر ، أى أنه كان ينظر الى عنصر الشهرة ، بتفاعله مع العناصر الأخرى ، وليس مجرداً ، وهي نظرة جديرة بالتأمل ، بل انها لتسبق نظرة كثير من صحف اليوم ومجلاته الى هذه الزاوية ، تلك التي تلهث وراء أى عمل مهما تكن درجة أهميته ، مادام أن صاحبه شهيراً ، أو أنه من النجوم ، بينما لا تهتم الاهتمام المخائل ، ولا نصفه ولا ربه أحياناً ، وقد تتجاهل تماماً عملاً كبيراً ، علمياً أو أدبياً مثلاً ، طالما أن صاحبه ليس له مثل شهرة هذا النجم .

ثالثاً : من حيث المواد التي تجمع بين الراى والخبر وتلك التقريرية  
التسجيلية :

الحق ، أن هناك أكثر من مادة ، وليست مادة واحدة فقط ، هي التي

تدخل ضمن حدود هذا الپند ، ولذلك ، فإننا سوف نتناول هنا من بین هذه المواد ذات الصلة بكتابات الرجل المختلفة ، هذه كلها ، من خلال استعانتنا بقراءة فی بعض مؤلفاتنا السابقة •

#### ( ١ ) كتابات الجاحظ وجذور الحديث الصحفي :

لم ینتقل الجاحظ من مكان لكان ، ولم یلتق بالعید من المصادر ، رواة وبحرین ومربیین ومسجیین وعلماء ، من أجل الارتحال فقط ، أو لمجرد اللقاء بهؤلاء ، تماماً كما أنه لیس من أجل النزهة ، رحل إلى هنا وإلى هناك ، ولیس من أجل التعرف على هذه المصادر ، أو قضاء وقت فراغه بینها ، كانت جلساته الطويلة معها ، وإنما كان ذلك ، وفي أكثر الأحوال :

— لیلعلم عنها بعض ما تعلمه . مما كان یجهله أو یعلم غیره ، أو یعلم مثله •

— لیسمع منها الأخبار والقصص والتاریخ والانساب وغیرها •

— لیتأكد منها من بعض ما یرید أن یتأكد منه ، فی موضوع یشغل فکره •

— لتصحح له بعض ما یرید أن یصححه •• لاهتمامها به أو تخصصها فیه •

— لیلعرفها أكثر ، لأنها شخصیات جیدرة بأن تمسرف لذواتها أو أهمیتها أو أنشطتها إلى غیر ذلك كله من أهداف •• حیث كانت « المقابلات » تجرى بینة و بین هؤلاء ، ومعها تطرح الأسئلة ، وتدور المناقشات ، وتأتی الاجابات ، ویتحول بعضها إلى أسئلة جدیدة ، تتابع بالتالی اجاباتها •• کل ذلك بینما ذاكرته الحافظة تعمل ، وتسجیلاته أو تسجیلات وراقیه تتم ، وجميع حواس الرجل قائمة على قدم وساق ••

ای أن الرجل كان یسال ••

وحتى أن لم یکن یسال •• فقد كان یستمع ، ویعلم •• ولكن •• فی النهاية ، نقول : لم كان كل هذا الجهد •• وقیل أن نقدم

الاجابة تشير الى انه كان يفعل ذلك أكثر من غيره من أمثاله الكاتبين ، خلال هذه الفترة ، وحيث كان أكثرها يعتمد على ما تقدمه له دكاكين الوراقين والمكتبات ٠٠ وما يستطيع الحصول عليه من مخطوطات ، وصحيح أن الجاحظ كان يستخدم هذا الأسلوب نفسه ، وربما بأكثر من بعضهم ، وقد أشرنا الى ذلك في حينه ، لكن اعتماده على هذه المصادر المكتبية ، او الوثائقية لم يكن دائما ولا كاملا وانما كان يصحبه في أوقات كثيرة اعتماده على عنصر السماع ، خاصة في تلك الموارد التي تقترب من الطابع الصحفي لا الأدبي ، من ذات الطابع الحالى ، الاخبارى وما يتصل به من معلومات مختلفة ٠

مرة اخرى ، لم كان كل هذا الجهد في السماع والتساؤل والمناقشة وما يتصل بهذه الأمور ؟ ٠٠

من البديهي ، ومن المؤكد ، أن حصيلة ذلك كله ، كانت تصب في المعين نفسه ، معين نشر ما يتجمع لديه من مواد بعد تعرضها لجوانب الاختيار والاختبار والحذف والاضافة والمصقل والتذهيب ٠٠ وما الى ذلك كله ٠٠

ونظرة على كثرة من كتابات الرجل التي ذكرنا والتي لم نذكر ، نجد عددا كبيرا منها :

- لما أنها تأتي كما تأتي الاحاديث ذات الأسئلة والاجابات الضمنية ، أى دون حاجة الى ذكر السؤال والاشارة الى طبيعة الجواب ٠
- وأما بدون السؤال مع استخدام أكثر من تعبير دال على الجواب
- أو بذكر المصدر في بداية الكلام على النحو الذى سبقنا الاشارة اليه ٠
- أو باستخدام المداخل المختلفة ، الاشارية أو القولية أو غيرها ٠
- وأحيانا باستخدام السؤال والجواب أيضا ،
- أو بجعل المادة كلها ، نصا واحدا بينما هو فى الواقع نتيجة لهذه التساؤلات وتلك المناقشات ٠

— أو بوضعها فى أشكال وقوالب اخرى ٠٠ كانت نتاجا لموهبته الكتابية الكبيرة ٠٠

بل ان هذه الموهبة نفسها هي التي تدفعنا الى القول — دون اسراف في ذلك أو مبالغة — أن الرجل قد اقترب أحيانا في عرضه لمادته المتجمعة من وراء هذه الأحاديث والمناقشات ، من بعض قوالبها التي تعرفها صحف اليوم ، لاسيما قالب « العرض المباشر » ، الذي يضع المادة بين أطر كلمات من مثل : « أوضح — لاحظ — استهجن — أشاد — امتدح — تكرر » الخ ، وكذا اقترب من قالب « العرض الحوارى » الذي يضعها أو يقدم لها بالفعل — قال ، ومشتقاته في الأعم ، كما اقترب أيضا ، خاصة في حالات وصصفه لبعض الأفراد من قالب « العرض الوصفى » الذي يركز على تقديم صورة لهم وهم يتحدثون : « قال وهو — تمطى ثم قال — تشاءب وهو يقول — وهو يتعجب — الخ » ، وذلك كله فضلا عن اقترايه من بعض ملامح « القالب الاخبارى المباشر » كراوية واع وفذ ، لما كان يدور حوله أو يشارك فيه .

وإذا كنا — خلال الكلمات السابقة — قد حاولنا أن نقرب بين طرقه في كتابة أمثال هذه المواد المنقولة عن الغير عن طريق التساؤل والمناقشة والسماع والرواية ، فإنه يتأكد لنا من خلال ذلك كله ، كم كانت هذه المواد التي عاش الرجل مناخها وسمعها عن الغير وشارك في مناقشتها أو أخذها عن آخرين كم كانت قريبة من بعض ألوان الأحاديث الصحفية لاسيما والهدف كما قلنا ، هو النشر وإطلاع القراء عليها في رسائل أو مضاحف أو كتب سرعان ما كانت تنتشر في الآفاق ، وتسير بذكرها السن الركبان .

أو ليست « الأحاديث الصحفية » أو « المقابلات الاعلامية » تعنى مثل هذا التسجيل الحى الواقعى فى أغلب الأحوال لما دار أو يدور من مناقشات تتزاحم فيها الأسئلة ، وتزخر بالاجابات ، وتصارع فيها الآراء ، وتقدم المعلومات ؟ .. وجميعها لا تقوت على العين البصيرة ، والأذن الخبيرة والذاكرة الحافظة ، التي تعى وتلهم وتسجل .. ثم تعود وكأنها تكتب بذلك كله ، تقريراً عما حدث ، لتحمله بعد ذلك عدة صفحات تتناسب وطبيعة عصرها وامكانيات أصحابها المادية والفنية ..

ولماذا — وقد فعل الرجل ذلك وقدمه بوسيلة النشر المتاحة له — لماذا نذهب بعيدا ، وهذه الأحاديث الصحفية نفسها ، هي وكما عرقها البعض (١) من لغويين ورجال اعلام معا :

— فصاحب « المصباح المفيد » ٠٠ أحمد بن محمد بن علي المقرئ  
القيومي يذكر في باب الحاء مع الدال وما يثلاثهما قوله : « والحديث ما يتحدث  
به وينقل » (٢) ٠٠ أوليس هذا هو ما فعله الرجل ؟

— وصاحب « مختار الصحاح » ٠٠ الامام محمد بن أبي بكر  
الرازي يذكر في باب ح ٠ د ٠ ث ٠ : « الحديث الخبر قليلة وكثيرة ٠٠٠ » (٣)  
الم نشر الى أن أكثر مادته الاخبارية جاءت محصلة لأحاديثه .

— وتري مؤلفة مجتهدة مما يعبر عن المعنى نفسه : « الأحداث التي  
نشاهدها ونشاهدها العالم طوال أيام السنة من صنع الأفراد ، وأهم عمل  
يقوم به الصحفي هو التحدث مع هؤلاء الأفراد الذين يصنعون أحداث  
الحياة » (٤) .

— ويرى استاذ علوم الاتصال بجامعة ولاية بنسلفانيا : « في تعبير  
واحد ٠٠ ان مصطلح الحديث الصحفي يشير الى الطريقة الفنية التي تجمع  
بواسطتها أكثر الاخبار » (٥) ٠٠ وأقول والمعلومات والآراء أيضا ، وهو  
ما فعله الجاحظ منذ عشرة قرون ، بصرف النظر عن الاطار الذي كانت تجري  
فيه مقابلاته ، وسرعة القيام بها ونشرها ، بسبب الظروف نفسها .

— وتقول باحثة شهيرة في هذا المجال : « ان الأشخاص يسألون  
من أجل الحصول على المعلومات التي يعرفونها أو من أجل آرائهم أو أفكارهم  
التي تتصل بمجالات اختصاصهم » (٦) أوليس ذلك ما كان يفعله خـسـلـال  
مناقشات مع مصابره من أخباريين وقصاصين وعلماء ٠٠

— حتى نصل أخيرا الى تعريفنا الخاص لهذا الفن ، لنجد التماثل  
الكبير بين ما كان يفعله الرجل ، وبين هذا المفهوم ، باستثناء ما أوجده  
العصر نفسه من أطر فنية حديثة ، ومما سائل اتصال ، وبعض الاهداف  
« العصرية » نفسها ٠٠ انه التعريف الذي يقول أن الحديث الصحفي هو :

« تقرير يكتبه محرر في لغة واضحة وجذابة لينشر في الوقت المناسب  
في صحيفة أو مجلة أو توزعه وكالة أنباء عن مضمون مقابلة حديثة أجراها  
وحده أو مع غيره نيابة عن القراء أو وكالة هاتفية طويلة أو بالاتصال بالبريد

فى أحيان قليلة مع فرد أو أفراد من المسئولين أو أهل الثقة أو صناع الأخبار للحصول بالتساؤل والمناقشة على المعلومات والآراء والمواقف الخاصة بهم أو المتصلة بالأحداث والقضايا والأفكار الجديدة التى تهم القراء والمجتمع بهدف اعلامهم وتوعيتهم وتوجيههم وتثقيفهم وتعليمهم وتنمية مجتمعهم وتسليتهم وتحقيق الربح المادى لوسيلة النشر ، (٧) .

لا نترك ذلك كله ، وننتقل الى مادة جديدة قبل تقديم بعض النماذج للمقابلات والمناقشات والمحاورات الجاحظية ، التى قدم خلالها للقراء مادة اخبارية ومتنوعة ، وذلك بالاضافة الى ما سبق تقديمه مما يشير الى هذه الجوانب لاسيما خلال حديثنا عن مصادره البشرية .

● أما المادة الأولى فهى من « حديث رأى » موضوعه هنا لغوى الدرجة الأولى :

« .. وحديثى صالح بن خاقان ، وقال : قال شبيب بن شيبة : الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء ويمدح صاحبه وأنا موكل بتفضيل جودة القطع ويمدح صاحبه ، وحظ جودة القافية ، وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت » ثم قال شبيب ، فإن ابتليت بمقام لا بد لك فيه من الإطالة ، فقدم احكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل ، قبل التقدم فى احكام البلوغ فى شرف التجديد ، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئاً فإن قليلاً كامناً خير من كثير غير شاف .. ويقال انهم لم يروا خطيباً قط .. الخ ، (٨) .

● وأما المادة الثانية فهى من « حديث خبر معلومات » موضوعه حيل الحيوان :

« حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوى العنبرى ، وأخسوه روح الكاتب ورجال من بنى العنبر أن عندهم فى رمال بلعنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد .. زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتد الحر فى رمال بلعنبر ، ولعتنعت الأرض على الحافى والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركز . أو عود ثابت فيجىء الطائر الصغير أو الجرادة ، فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع .

على الرمل لضدة الحر ، وقع على رأس الحية على أنها عمود ، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإذا كان جرادة ، أو جملا أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعتة ، وبقيت على انتصابها ، وإذا كان الواقع على رأسها طائرا يشبعها مثله أكلته وانصرفت ، (٩) ٠٠٠ الخ

ونكتفى بهذا القدر ، وننتقل الى فن تحريرى آخر ، وصلة الرجل به .

#### ( ب ) كتابات الجاهظ ، وفن التحقيق الصحفى :

لكن الرجل لم يستخدم أسلوب المقابلات . ولم يجلس الى مصابره ليناقشهم أو الى من سعى اليهم ليأخذ عنهم ٠٠ ولم يرتحل أيضا ويجد فى طلبهم من أجل هذه الأنشطة الاخبارية وحدها أو لمجرد الحصول بالتساؤل والأخذ والرد ، على مثل هذه الاحاديث السابقة التى زخرت بها كتبه وكانت اطارا للكثير من موادها التحريرية ٠٠ وانما نجح فى أن يستخدم السؤال والجواب ، والأخذ والرد ، والمناقشة والمحاورة حيث ينبغى استخدامها ليتجمع له منها بالاضافة الى بعض أساليب رؤيته الخاصة للناس والألوان والحياة فى عصره ، تلك التى كان يضع يده على مشاهدتها من خلال انفجاسه فى هذا المجتمع ، ودرايته بجوانب الايجاب والسلب فيه ، يتجمع له من وراء ذلك أكثر من مادة تحريرية أخرى ، ذات صلة وثيقة بتلك الفنون والاطر والأنماط ، التى تعرفها صفحات جرائدنا ومجلاتنا وكان من أبرزها ما يمكن أن يعتبر من جذور أو مقدمات فن ، التحقيق الصحفى .

استخدم الرجل أدوات التحقيق ، وعرف عددا مما يعتبر الآن من أبرز عناصر هذا الفن ، نشير اليها هنا ، بعد تقديم تعريفنا الخاص لهذا الفن ، كما ورد فى مؤلفاتنا السابقة ٠٠ ان التحقيق الصحفى هو :

• تغطية تحريرية مصورة تضيف مزيدا الى خبر جديد أو يتناول موضوعا قديما أو مشكلة هامة ، وتكون أكثر من مجرد قصته أو تقرير عنه .  
• مقدمة لطواهره ، رابطة بين أسبابه القريبة والبعيدة ، ونتائجه الحالية والمتوقعة .  
• مقدمة كذلك لأراء من يتصلون به عن قرب أو يثق القراء فى درايتهم بجوهره ، مع جواز تقديمها لرأى المحرر نفسه أو وجهة نظر وسيلة

النشر . ضاربة المثل بوقائع مشابهة في الداخل أو الخارج حديثة أو قديمة ، يقوم بها محرر يجمع بين صفات المخبر الصحفي والباحث وله دراية باللغة العربية وقدر من الذوق الأدبي . ومعرفة بلغة أجنبية أو أكثر ومعرفة بالتصوير وبالاختزال . ويقدم بهذه التغطية مادة مفيدة ومشوقة ، وقد يوجههم بعدها الى وجهة معينة ، كما يقدم لصحيفته أو مجلته زيادة في عدد النسخ المبيعة . ( ١٠ ) .

ولست هنا بمدح أن الرجل قد كتب تحقيقا صحفيا مكتمل البناء والمضمون . اتمونجي الطابع أو أكثر من تحقيق صحفي واحد من مثل هذه التحقيقات التي نشاهدها على صفحات الجرائد والمجلات عربية ... على ندره الجيد منها ولا أقول الممتاز - أو أجنبية . على كثرتها ، خاصة على صفحات المجلات والصحف الأسبوعية . لكنني أقول ، وفي ضوء المعطيات السابقة ، وباستقراء كثرة من كتاباته ، وهذا التعريف نفسه ، وباستثناء السميات والتوجهات العصرية الحديثة نفسها :

١ - أما عن الأسئلة والاجابات فقد استخدمها الرجل بنجاح كبير في مجالات عديدة تعتبر من خصائص أسئلة هذه المادة الأخيرة .

- فهو قد استخدمها في جمع المعلومات الهامة واللازمة لمادته .
- وهو قد استخدمها في التحقق من صحة ما يريد التحقق منه أو ثبته بين ثنايا مادته القريبة من هذا النمط التصريحي الصحفي .
- وهو قد طرحها على جميع أطراف النزاع أو الصراع أو المشكلة ليحصل على اجاباتهم التي تغطي موضوعه .
- وهو قد ناقش وناور وحاور ليحصل على ما لا يمكن الحصول عليه بالطرق العادية ، مما يعتبر من خصائص وتطورات الموضوع نفسه ، أو ما يتصل بالشخصيات ذاتها ، تلك التي كانت من صناع الحدث الذي يرتبط به موضوعه .

أى أن استخدامه لهذا العنصر ، يذكر تماما باستخدام « المحقق الصحفي » له .

٢ - وأما عن عنصر « الأفكار الجديدة والمستحدثة والمبتكرة » تلك التي

وضع يده عليها ، وراح يحققها أو يجمع ما يتصل بها ، الصحيح وغير الصحيح ، وينتقل بنفسه الى أماكن وجودها أو قيامها ، ليستمع ويحاور ويناقش ، فقد كان ذلك طبعه الذي جبل عليه والذي عرف عنه .. ونظرة على مثيلات هذه الأفكار كما ذكرت في سطور سابقة ، لتؤكد موهبته في هذا المجال ، سواء الأفكار الجديدة تماما ، أو تلك التي تناولها غيره دون أن يبقى هذا التناول أو يجذب أو يشد اليه أحد ليأتى الرجل ويقدم الجديد بشأنها مما يلهب خيال معاصريه .

٢ - والقارئ لكتابات الجاحظ يدرك مما روى وقدم ووصف ونقل من الصور والمشاهد والألوان ، أنه لم يقدم الخبر الجديد فقط ، أو يلفت النظر الى موضوعه ويكتفى بذلك ، بل كان الرجل يقدم كل شيء عنه ، كل ما قرأه حوله ، وما سمعه من مختلف المصادر وما شاهده بعينى رأسه ، من مقدمات وظواهر وشواهد ونواير وطرائف وأسباب بعيدة أو قريبة ، وقد يعرج على رأى قرأه فى مخطوط مترجم ، عن خبر أو واقعة أو قصة مشابهة ، حدثت فى بلاد الهند أو فارس أو رواها « أرسطو » الى غير ذلك كله .. من وقائع مشابهة ، حديثة أو قديمة ، فضلا عن العربية منها .

٤ - ثم - ومن خلال جميع المقدمات السابقة - من الذى يستطيع أن ينكر أن الرجل يجمع بين بعض صفات المخبر الصحفي والباحث ؟ وأما عن برايته باللغة العربية وعن ذلك القدر من الذوق الأدبى ، فلا ينكرهما الا غير سوى أو حاقد ، وذلك كله بصرف النظر عن معرفة اللغة الأجنبية والتصوير والاختزال فهذه طرق وأساليب ترتبط بالحاضر أكثر من ارتباطها بالمناخ الذى عاشه الرجل دون أن ننكر قراءته النهمة لأغلب المترجمات المعروفة فى عصره .

٥ - أما وقد راح يقدم هذه « التقطية » التى « قتل » خلالها موضوعاته بحثا - وكما يقولون - وطاف وحلق وجمع وتناول أكثر ما كتب وقيل حولها ، من مصادر المخطوطة ، والتحدث ، والمشاهدة ، فمن المؤكد أنه قدم لقرائه ، فى جيله ، وللأجيال من بعده ، الكبير والصغير ، العالم والمتعلم ونصف المتعلم ، تلك المادة المفيدة والمشرقة والتى طوت فائدتها الحقب وقفز التشويق للمصاحب لها عبر القرون نفسها ، فهل يوجد بيننا من ينكر ذلك ؟

٦ - وأما التوجيه المثمر ، وأما الرأى القائم على معرفة خبير ، فجميعها ( الجاحظ )

قدمها الرجل ، وإن اختلفت طبيعتها من مادة إلى مادة ثانية . ، إلى الثالثة ، وفق نوعية هذه المادة نفسها وطبيعتها ، والهدف من تقديم التوجيه أو الرأي . .

٧ - تماما كما أن من المؤكد أن توافر هذه العناصر ، في تلك المادة التي نقول باقترابها من فن التحقيق الصحفي ، وإلى حد احتسابها من جذوره الضاربة الأعماق في الأدب العربي ، كان ذلك وراء سرعة انتشار كتاباته ، وترددها في الأفاق وأقبسال القراء عليها يستوى في ذلك عامتهم ، أم خاصتهم . .

وهكذا نرى أن بالإمكان أن تصدق جوانب كثيرة من تعريف هذه المادة ، على بعض الكتابات الجاحظية المتميزة ، التي اقتربت بكل ذلك ، من خصائص التحقيق الصحفي .

ثم ماذا ؟ . . أننا نتوقف هنا عند عدة معالم أخرى ، مما يختص به هذا الفن لنرى انعكاساتها على مرآة الكتابة الجاحظية ، أو بعض ما يبل على وجودها في سطورها المختلفة :

٨ - فإذا كانت أبرز أنواع التحقيقات الصحفية هي :

- التحقيق الخاص أو المتخصص : « علمي — عسكري — رياضي — نسائي — اقتصادي . . الخ .
- التحقيق العام : « العام المشوق — المشكلات — الرحلات — دراسة الشخصية — الموسمي . .
- الدراسة الصحفية أو البحث الصحفي .
- الحملة الصحفية .

. . . . .  
٠٠ إذا كانت هذه هي أبرز أنواع التحقيق الصحفي ، فإننا نرى من خلال تعدد كتابات الرجل ، القربية من التحقيق ، والتي تأخذ بعض معالمها ، وكذا من ضربها في أكثر من مجال ، نرى أن هذه الكتابات إلى الأنواع الآتية أقرب . .

● فكرة منها لا سيما تلك التي ترتبط بأمثال هذه الموضوعات :

« البحريون - الهدايا - السودان والبيضان - عجائب الحيوان - الماكل والمشارب - الجن والغول - حانوت العطار - أخلاق الشطار - أصحاب الالهام - حيل اللصوص - الجوارى - القيسان - غش الصناعات - السماكين - زئوج البصرة ، الخ » هذه تكاد تكون الى « التحقيق العام المشوق » أقرب وبموضوعاته ومضمونه أكثر التصاقا .

● وبعضها الثانى ، يكاد يكون اقرب من غيره - وان اختلطت حدوده مع حدود أنواع من المقالات وهو أمر طبيعى بالنسبة لهذه المادة بالذات - يكون أقرب الى .

#### ( أ ) التحقيقات الخاصة .

#### ( ب ) الدراسة الصحفية .

انها الموضوعات التى جاءت على كتب ورسائل ومصاحف عديدة تتناول على سبيل المثال لا الحصر : « طبقات المغنين - الأصنام - أخلاق الملوك - الأمصار - الملوك والأمم السالفة والبساقية - جمهرة الملوك - النرد والشطرنج - النبات والشجر - الزرع والنخل - المعادن - الخ » .

● وبعضها الثالث يقترب من تحقيق المشكلات ، خاصة ذات الطابع الانسانى . . . انها مثل تلك الموضوعات وغيرها : « العادات والتقاليد - المعاملات السيئة - احوال المكدين - أصحاب العاهات الخلقية كالحلول والعمور والعرجان والبرصان - السكروون والزناة - الطفيلون - الغشاشون - فتيان السوء - الحماره ، الخ » .

● وبعضها الرابع ، كان يأخذ أكثر من وجه من وجوه الشبه ، مع أكثر من نوع مختلط ، أو تختلط ببعضها ، من أنواع التحقيقات السابقة ، تماماً كما يأخذ من أنواع مواد تحريرية أخرى ، لاسيما الأحاديث والمقالات . .

● ويبقى بعد ذلك ، كلمات تتصل بكتابه الشهيرين « الحيوان والبخلاء » ما الذى يمكن ان نقوله عنهما ، فى ضوء هذا الفن التحريرى الصحفى نفسه ؟

— أما عن الكتاب الأول : « الحيوان » ، فإن الطابع الغالب عليه بأجزائه المختلفة أو « بمصاحفه » كما كان يطلق عليه صاحبه . . هذا الطابع هو أن بعضه الأول يمثل لونا من المادة الاخبارية المتصلة بأحداث الحيوان وصدامه بالانسان ، وأن بعضه الثسائي يغلب عليه التأرجح بين مادتين اساسيتين ، وهما الدراسة الصحفية أولا ، والمقالات الموضوعية المتخصصة ثانيا ، أما عن الدراسة الصحفية ، فقد قلنا أنها نوع متطور من التحقيقات الصحفية . لا سيما تلك التي تتناول موضوعات جذابة وشائقة ، وأما عن المقالات الموضوعية المتخصصة ، فنقول أنها هنا من نوع التخصص العام الذي نجده في المجلات التي تحمل هذا الاسم « التخصص العام » وليس التخصص الدقيق أو الكامل . ومن هنا ، فإن بعض هذه الكتابات كانت أيضا تقترب ، وتقترب بشدة من التحقيقات الصحفية ذات اتجاه التخصص العام ، وإلى حد اعتبارهما مادة واحدة .

— وأما عن الكتاب الثاني : « الإخلاء » ، فإن الطابع الغالب على الجانب الأول منه يشبه تماما ذلك الطابع الغالب على مثيله في الكتاب السابق — الطابع الاخباري — كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ثم يأتي الخلاف بالنسبة للجانب الثاني الذي نجده يتميز باتجاهين ، ويقترب من نمطين صحفيين تحريريين . . النمط الأول هو نمط « المقال الكاريكاتوري » . . الذي سوف نتحدث عنه بعد قليل ، وأما النمط الثاني ، فيستحق أن يكون مثبلا أجزاء من « حملة صحفية » على هذه الطائفة الشحيحة ، لكنها حمسة متنوعة « المواد » ما بين خبر صغير وكبير وأحاديث قصيرة . وموضوعات اخبارية ، متوجة في النهاية بهذه الطائفة من المقالات الكاريكاتورية نفسها . .

ويبقى أن نقدم عددا من الأقوال التي تؤكد صدق وقوف مثيلات هذه الكتابات الجاحظية ممثلة لجذور أو طلائع التحقيقات الصحفية ، ونكتفي هنا بهذه الأقوال .

● أما الأول فهو عن محرر التحقيق الصحفي . . ذلك الذي قيل فيه وفي مايلته :

— « العالم كله ميدان كاتبها » (١١) . .

— « ٠٠٠ فهناك مكتبة كاملة عن صيد الحيتان والموضوعات البحرية  
قد تكون في متناول يديك » (١٢) .

— « ٠٠ لنفكر في عبارة التحقيق الصحفي كمصطلح مرن ، فنحن  
نستطيع أن نجعله يعتمد بحيث يشتمل على مواد صحفية كالمقالات والشعر  
والأقصوصة والقصص المسلية والأعمدة والنماذج والصور والرسوم—  
الايضاحية والمقطوعات الهزلية » (١٢) .

٠٠ ونكتفى بهذا القدر ، لنقول :

● عما نقلناه عن المصدر الأول : أو لم يعتبر الجاحظ العالم كله  
هو ميدان كتابته وأن قلمه قد امتد الى جميع الصور الموجودة في مجتمعة ،  
أو التي سمع أو قرأ عنها ، أو ارتحل في طلبها ؟

● وعما نقلناه عن المصدر الثاني : ألم يحتفظ الكاتب لنفسه بمكتبة  
تتضمن كل الكتب التي ترتبط بمثل هذه الموضوعات المختلفة ، فضلا عن  
ارتياده للمكتبات البصرية والبغدادية وبكاكين الوراقين ؟ ثم من أين جاءت  
كتاباته عن الأسماك والحيوانات البحرية ، تلك التي زخر بها كتاب الحيوان ،  
ومنها ما جاء عن الحوت والدلفين وغيرهما ؟ ٠٠ إن ذلك يعتبر بمشاسبة  
« أنموذج » لما يكون عليه أن يفعله « المحرر المثالي » للتحقيق الصحفي .

● وعما نقلناه عن المصدر الثالث : أو ليس هذا ما كان طابع كثرة  
من الكتب الجاحظية تلك التي قلنا أن بعضها يمثل بصدق ، « جنود » وبعضها  
الأخر يمثل « مقدمات » أو « طلائع » التحقيقات الصحفية ٠٠

● وأما القول الثاني ، فهو لرائد من رواد التاريخ الأنبي ، فنكره ،  
ليقرر كل منا بعد قراءته ، ما الذي يختلف بين الأقوال الثلاثة السابقة في  
مجموعها ، وبينه ، إنه ذلك الذي يقول : « بالاضافة الى ما سبق من أقوال  
مماثلة » .

« يمتاز الجاحظ بأنه لم يترك موضوعا عاما الا وكتب فيه رسالة أو  
كتابا . ومن يرجع الى رسائله وكتبه يجده قد ألف في النيات وفي الشجر

وفي الحيوان وفي الانسان وفي الجند وفي الهزل وفي الترك والسودان وفي المعلمين والقيان وفي الجوارى والغلمان ، وفي العشق والنساء ، وفي السفنة وفي الشيعة والعباسة والزيدية والرافضة ، وفي حيل لصوص النهار وحيل مراق الليل وفي البخلاء واحتجاج الأشحاء ، وفي هذا ما يدل على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات في خلاصة وبيان عذب ، (١٤) .

وإذا كان بعض المؤلفين قد أخذ عنا هذه الأفكار التي طرحناها ونحن نتحدث عن قصة هذا الفن بل وما اخترناه من كلام المؤلف السابق ، وحذف ما حذفناه ، دون إشارة ، فإننا نتهى هذه الفقرة ، بسطور من هذا البحث السابق لنا ، الذي وردت به هذه الاشارات وغيرها في تعليق على امثال هذه الأقوال نفسها :

« ... ليس معنى ذلك أنه من الممكن أن نعثر فيما كتب الجاحظ على بعض ما يمكن أن يقترب من التحقيق الصحفي ، أو ما يمكن أن نعهده تبعاً لمفاهيم العصر : تحقيقاً صحفياً ؟ كتب بلغة عصره دون استخدام لكلمة تحقيق صحفي أو مراعاة للاشكال المعينة التي يراعيها الصحفيون اليوم والتي سبق الحديث عنهما ؟ وهل يكتب محرر التحقيق الصحفي أكثر من ذلك ، أو في غير هذه الموضوعات ؟ » (١٥) .

❶ ٠٠ وأما القول الثالث ، فهو لأحد المهتمين به ، وبكتاباته ، وإن كان هنا يتناول أيضاً كتاب « الحيوان » ، ٠٠

يقول الرجل عن هذا الكتاب : « إذا شاء القارئ أن يجد فيه مبحثاً علمياً عن الحيوان فقد خادعته نفسه » (١٦) .

ويضيف قائلاً : « فالجاحظ لم يكن اختصاصياً بل عالماً موضوعياً يُلم من كل فرع بطرف على نحو ما عرفه القرن الثامن عشر في فرنسا مثلاً » (١٧) . ٠٠ يقصد بذلك الطائفة المسماة بـ « الأنسيكلوبيديين » : Encyclopediste وهم الذين قلنا أنهم كتاب المجلات الأولى ٠٠

نعم ، لن يجد القارئ مبحثاً علمياً بالمعنى المعروف ، وإنما سيجد

« مبحثاً صحفياً » أو « دراسة صحفية » .. وهي نتاج تطور طبيعي للتحقيق الصحفي التخصصي ، كما سيجد « مقال تخصص عام » أو « مقالة موضوعية » وهي من جنس مقالات المجالات وبعضها تنوب الحدود بينه وبين التحقيق الصحفي تماماً ، وإلى حد اعتبار التحقيق والمقالة للموضوعية بمثابة اسمين لمادة تحريرية واحدة ، بل إن هذه المقالة وإن التحقيق الصحفي لتختلط ألوانها اختلاطاً شديداً مع « مقالات التخصص العام » أيضاً ، لا سيما « التحقيقات العلمية » .. التي أشرنا إليها خلال السطور السابقة ..

ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن « الجاحظ » ومقدمات وطلائع فن التحقيق الصحفي ، بعد أن تناولنا هذا الجانب أيضاً في أكثر من كتاب سابق لنا ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نحيل القارئ العام أو الدارس إلى عدد من كتاباته الاجتماعية ، وتلك التي تناولت صور ومشاهد عصره ومشكلاته أيضاً ، فسوف يجد فيها الكثير ، مما يقترب من هذا الفن « القياسي » فحسبنا ما ذكرناه منها .

#### ( هـ ) كتابات الجاحظ وفن المقال الصحفي :

##### ( ١ )

ويبقى بعد ذلك ، هذا الجانب من جوانب الإبداع الجاحظي ، أديا وصحافة معا يبقى موقف كتابات الرجل من هذا الفن الصحفي المتقدم ، بأنواعه العديدة والمختلفة وأين تقع منها ؟ وما مستواها ؟ ، وما الخصائص التي ترتبط بها ؟ .. لكن من الطبيعي — قبل ذلك كله — أن نمر مرورا عابرا على بعض تعريفات هذا الفن ، وعلى ما تعنيه الكلمة نفسها ، واستخداماتها العربية ..

● أن المقصود بالكلمة .. الكلام المنطوق أو الشفهي الذي يقصد به أحداث تأثير معين ، ثم أخذت الشكل الكتابي أو المدون بعد ذلك ، للدلالة على ألوان الكتابات الأدبية المختلفة ، التي مارستها الكتاب خلال نهاية العصر الأموي ، وعلى مدى العصور التالية خاصة العباسي .. ومن هنا ، ومنذ العصر الجاهلي ونحن نطالع أمثال :

« مقالة صدق — مقالة حق — مقالة سوء — مقالة شر — ... الخ » ،  
وقد وردت شعرا من مثل قول أوس بن حجر :

« ويكفى المقالة أهل النحسا ل غير معيب ولا عائب »

وكذا قول شاعر آخر :

« أم تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها »

كما وردت في حديث « النبي محمد صلى الله عليه وسلم » وفي خطبة  
« عمر بن الخطاب » في بيعة « أبي بكر الصديق » حيث قال : « أما بعد فاني  
قائل لكم اليوم مقالة قد قدر لي أن أقولها » ، ... الخ .

● وأما عن تعريف المقال الأدبي فهو :

— « فن من فنون التأليف الأدبي يكتب نثرا ويعطى افكار المؤلف  
ومشاعره في أي موضوع من الموضوعات » (١٨) .

— « شكل أدبي يستخدم النثر عادة في توصيل الفكر من خلال طول  
معتدل يدور حول موضوع محدد ، ويكون الموضوع عادة اختياريا أو تعليميا  
أو تحليليا أي أنه يجمع بين الرأي والخبر » (١٩) .

● وأما عن تعريف المقال الصحفي فهو ، « بالإضافة الى ما سبق  
فذكره عنه :

— « المقال اسم يطلق على الكتابات التي لا يدعى أصحابها العمق في  
بحثها أو الإحاطة التامة في معالجتها ، ذلك لأن كلمة مقال تعنى محاولة أو  
خبرة أو تطبيقا مبدئيا أو تجريبية أولية » (٢٠) .

— « انشاء متوسط الطول يكتب للنشر في الصحف ويعالج موضوعا  
معينا بطريقة مبسطة على أن يلتزم الكاتب حدود الموضوع » (٢١) .

— « الأفكار والخواطر والآراء ووجهات النظر المتصلة بفكر الكاتب

من جهة وينبض القراء واهتماماتهم من جهة أخرى ، وهو يكتب للنشر في الصحف والمجلات أولا ، في وقت معين ، وتختلف أطواله من مقال إلى آخر ، وفق نوعية وطبيعة المادة المطروحة به ، ( ٢٢ ) .

— « المادة التحريرية التي يقدمها كاتب صحفي استنادا إلى فكرة يحصل عليها من خلال حضوره الذهني الصحفي ومعايشته لل أحداث وعلاقاته الاجتماعية واتصالاته وقراءاته وخطابات القراء ومكالماتهم الهاتفية وما يرد عبر الأثير وذلك في إطار يفسرها للقراء ويحيطهم بإبعادها ويوجههم بشأنها وقد يقوم بتأييدها أو معارضتها بطريقة تحمل طابعه في التفكير وأسلوبه في التعبير وذلك للنشر في الوقت المناسب متلائمة مع طابع الصحيفة أو المجلة واهتمامات القراء وصالح الفرد والمجتمع » ، ( ٢٢ ) .

## ( ٢ )

أردت بهذه المقدمة الطويلة نسبيا أن أسجل هنا بعضا مما سبق تسجيله على صفحات كتاب لنا ، من تعريفات مختلفة للكلمة والنوعين من المقالات معا ، حتى يمكن أن نضع أيدينا على أهم معالمها معا ، وعلى الصلات القائمة بينهما ، لنرى بعد ذلك ، إلى أي حد توفرت أمثال هذه المعالم للكتابات الجاحظية ، التي نقول أنها يصح أن تكون من جذور ومقدمات وطلائع مقالات اليوم . .

إننا وبصرف النظر عن بعض ما يتصل بمعالم صحافة اليوم ، مما جاء في هذه التعريفات وكذا ما يتصل باستخدام بعض المصطلحات الجديدة ، التي ترتبط بالجوانب الصحفية العصرية . . وفي ضوء ما يقدمه لنا التراث الجاحظي ، المتعدد والوفير ، نستطيع أن نقول :

● أنه بصرف النظر عن جذور بعض المواد التحريرية السابقة التي كان الطابع الانتاجي الجاحظي فيها يغلب عليه طابع الجمع والنقل ، وما يسبقهما من رصد ، وإثبات ثم تحرير فإن الطابع الانتاجي الجاحظي هنا يختلف كثيرا إذ هو طابع ذاتي تعبيرى كامل ، وصحيح أنه يقوم على نفس عناصر الانتاج والمصادر المختلفة ، الخاصة ( كدقة الملاحظة ) . والبشرية ( من أخذ عنهم من علماء ورواة وقصاصين ) والمخطوطة ( القرآن الكريم

والحديث النبوي والكتب والرسائل المؤلفة ) . . . لكن تبقى بعد ذلك رؤيته الذاتية الخاصة في كل ما سبق وحصل عليه ، بل ولماذا لا أقول ، رؤيته الموضوعية أيضا ؟ . . . ومن هنا ، من خلال الرؤيتين ، الذاتية والموضوعية تحقق ما نقول من انتاج النوعين من المقالات معا ، الأدبية والعلمية لينبتق منهما في أحيان كثيرة — رغم نشر الصحف لهما أيضا — ما نطلق عليه تعبير مقدمات المقال الصحفي ، تلك التي ارتفع مستوى بعضها الى حد كبير . . .

● وفي تعبير آخر نقول ، أنه إذا كان الجاحظ في مادته التي اقتربت من العنوان السابقة بمثابة هذا « الجامع الماهر » . . . فإنه هنا ذلك الرجل نفسه وكذا المفسر والمعلق والمحلل والناقد والمؤلف معا .

● وأما عن كتابتها نثرا وأنها تعطي أفكار المؤلف ومشاعره في أي موضوع من الموضوعات — كما يقول تعريف الموسوعة الثقافية — فقد كانت كذلك عند الرجل أيضا ، بل يمكننا القول ، من خلال النتاج الجاحظي أيضا ، أنها — المقالة الجاحظية — جمعت أبرز الخصائص التي جاءت ضمن التعريفات الأخرى ، التي تلت التعبير السابق بل وتجاوزتها الى غيرها من خصائص أخرى ومثال ذلك ، بالإضافة الى ما سبق :

- الطول المعتدل ( في أحيان كثيرة والمتغير وفق الضرورة ) .
- الموضوع المحدد ( في أغلب الأحوال ) .
- الطابع الاخباري والتعليمي والتحليلي ( اضافة اليها الطابع العلمي والتفسيري والنقدي والفكاهي والطابع العام أيضا ) .

— والرجل لم يدع العمق في بحثه دائما ، أو الاحاطة التامة به ، وإنما اشار الى بعض ما يكتنفه أحيانا من مثالب ، ونبه الى ما يمكن أن يقوم من ثغرات ، مرتبطة بمصادره ، خاصة البشرية ، والمترجمة . لكن هذه المادة المقالية الجاحظية ، كانت أيضا وفي كثير من الأحوال تكاد تمثل « محاولة » لتناول موضوع جديد على الكاتبين من أمثاله ، أو لم تعرفه غير القلة منهم لصعوبته ، أو قلة مصادره ، أو غرابته ، أو توقع عدم احتفاء الناس — خاصة عليا القوم من أمراء ووزراء وأثرياء وهم السذجين يهيمون هؤلاء بالدرجة الأولى — بينما كان « جمهور » الكتابة الجاحظية يتكون من هؤلاء وغيرهم وحتى من عامة القراء أيضا ، الذين أقبلوا على ألوان انتاجه لأنه طرق

موضوعات تهمهم ، وهي في نفس الوقت كتابة تعكس تجربة « ميدانية أولية »  
أو « تطبيقاً مبدئياً » كما يقول أحد التعريفات السابقة .

— وأكثر المواد الجاحظية التي اقتربت من هذه المقدمات والطلائع  
المقالية الصحفية كانت كذلك مما استند الى فكرة حصل عليها من وراء هذا  
الحضور الذهني الألبس والصحفي معا ، وكذا من خلال معاشته للأحداث  
وعلاقاته الاجتماعية واتصالاته وقراءاته .. كما جاءت كذلك تحمل طابعه في  
التفكير وأسلوبه في التعبير ..

ونكتفي بهذا القدر من الإشارة الى بعض خصائص المادة المقالية  
الجاحظية ، في ضوء التعريفات السابقة ، وننتقل الى موضوع آخر هو :

### ( ٣ )

.. وقد يسأل سائل : ما هي أبرز أنواع المقالات الحالية ، التي تقرب  
المادة الجاحظية منها ، حتى ليصح أن نعتبر من مقدماتها أو طلائعها ، وليس  
من جذورها فقط ؟ ... دعونا نتقدم خطوة نحو المادة المقالية الصحفية ،  
في ضوء هذه الكتابات الجاحظية ، ليكون السؤال هو : هل اقتربت بعض  
أنواع هذه الكتابات اقتراباً شديداً من مقالات اليوم وإلى الحد الذي يجوز  
معه أن نطلق عليها أمثال هذه التعبيرات الحديثة ؟ ، وما هي هذه الأنواع ؟

.. ومرة أخرى نعود الى المعين الجاحظي نفسه ، وبطبيعة الحال ، فلن  
يمكننا العودة اليه كله ، وإنما نتوقف عند بعضه فقط لنقول :

إننا — كبداية — نستعرض معا أبرز أنواع المقال الصحفي ، لتكون  
الخطوة القادمة هي رؤية أيها أقرب الى كتابات الرجل ؟ أو أيها كانت كتابات  
الرجل أقرب اليه ، حتى لتصبح من جذوره ، أو تتجاوزها الى المقدمات  
والطلائع ، أو يتجاوز هذه بعضها ، الى أن يصبح مثل مقالات اليوم ، شكلاً  
ومضموناً ؟

إن أهم هذه الأنواع هي . من وجهة نظرنا ومما قمنا بحصره  
وثبته ، ( ٢٤ ) .

- المقال الصحفي العام :
- المقال الافتتاحي أو الافتتاحية .
- مقال التعليق أو التعليق الصحفي .
- المقال التفسيري .
- المقال القائد الموقع .
- مقال العمود أو مقال الفقرة القصيرة .
- مقال التجربة الخاصة « اليوميات الصحفية » . . الضوابط والتأملات .
- المقال التحليلي .
- المقال العرضي أو الاستعراضي .
- المقال المختصر .
- المقال المتخصص .
- مقال الفكاهة .
- المقال المهني « في غير الافتتاحيات » .
- مقال المناسبات .
- المقال الاعلاني .

وإذا كانت هذه هي أهم أنواع المقالات الصحفية وليست جميعها ، وإذا كانت بعض هذه الأنواع ، تمثل أصبق تمثيل وأفضله ما أطلقنا عليه تعبير « الأدب الصحفي » ، وإذا كانت حدود بعضها تمتد وتتشابك مع حدود البعض الآخر ، حتى ليصعب الفصل بينها ، كما يتفرع بعضها — من جهة أخرى — إلى أنواع جديدة إذا كان ذلك كله مما يتصل بهذه النوعيات المختلفة ، فإنا نقول :

● أما عن هذه الأنواع نفسها ، وإين تقف منها ألوان الكتابة الجاحظية . أو المادة الجاحظية المقالية ، فإنا نقول بشأنها ، أننا ومن خلال النظرة الفاحصة والدقيقة ، وفي ضوء أبرز خصائص كل نوع من أنواع هذه المقالات الصحفية ، وما يتصل به من ملامح وأبعاد . . وما يفرق بين كل نوع منها ، نلاحظ أن بالإمكان القول ، بأن المادة الجاحظية لها وجودها ، ولها كيانها ، ولها موقعها ضمن ما ورد بهذه القائمة السابقة لكن — من زاوية أخرى — فإن هذا الوجود نفسه ، وهذا الكيان ذاته ، وهذا الموقع الذي احتلته . لم يكن وفي جميع الأحوال وبالنسبة لجميع ألوان الكتابة الجاحظية على درجة واحدة ، أو يحتل نفس المساحة ، أو يقترب اقترابا نمطيا ، وفي جميع الأحوال من هذه الأنواع من المقالات الصحفية . .

هو وجود نعم ، اقتراب أيضا . لكنه اقتراب يختلف من مقال لآخر ، او من نوعية لآخرى ، شدة أو ضعفا . . ومن هنا يقول ، أن هناك أربع درجات من الصلة القائمة بين أنواع هذه المقالات الصحفية من جانب ، وبين ألوان الكتابة الجاحظية من جانب آخر ، وهذه الدرجات هي :

● مقالات تفصل بينها وبين النتائج الجاحظية مسافة بعيدة ، وذلك بوضعها الحالي ، وصورتها التي تعرفها عليها صحافة اليوم ، على الرغم من وجودها في الدائرة الجاحظية .

● مقالات اقترنت منها الكتابة الجاحظية اقترابا معقولا وطيبا .  
● مقالات وقفت الكتابات الجاحظية في نفس مواقعها واحتلت نفس مساحاتها بحيث تعتبر هذه الأخيرة بمثابة مقدماتها أو طلائعها الكاملة ، أو بدايتها الحفيفية . .

● مقالات شكلت وضعها آخر ، حيث اختلفت صلتها بالكتابة الجاحظية ، من مقال لآخر من بين نوعيتها الواحدة . .

#### ( ٤ )

لانتزك هذه الأنواع ، ولا تلك الصلات ، دون وقفة أخرى تزيد الأمر وضوحا وتحاول أن تضيف جديدا مفسرا الى الكلمات السابقة ، ومن هنا ، وبدون أن تطفئ نوعية على نوعية أخرى ، وباعطاء كل ما تستحقه من اهتمام ومساحة أيضا ، من هنا نتوقف لنقول :

● ● أما عن النوع الأول من أنواع هذه المقالات ، وهي التي تفصل بين المادة الجاحظية وبينها مسافة بعيدة ، على الرغم من وجودها ، ر - على الأصح - وجود ما يشبهها في الكتابات الجاحظية . . فقد كانت هي وباختصار شديد يتلاءم مع هذه الصلة نفسها .

#### ( ١ ) المقال المختصر :

ويعني ما يقدمه محرر من المحررين أو كاتب من الكاتبين من تقديم لمادة كاتب آخر بحيث يغلب عليها طابع الاختصار لأهم ما جاء بالمادة الأولى ،

وهي في أغلب الأحوال ، كتاب جديد لكاتب عربي ، أو كتاب مترجم لأجنبي ، بحيث يقوم المحرر بتقديم أهم أفكاره ، وعرض أهم القضايا التي تناولها ، بينما يقتصر دوره عند هذا الحد ، ولا يتعداه إلى نقد هذا الكتاب نفسه ، أو الحكم له أو عليه ، وواضح أن الهدف منه هو هدف تعريفي ثقافي بالدرجة الأولى . يرتبط ارتباطا شديدا بأحدى صور النشاط الصحفي الحديث ، في مجال الأدب أو السياسة أو الاقتصاد أو الفن ، خاصة المجال السياسي ، لاسيما تلك الكتب التي تؤلف عن أحداث الساعة أو قصص حياة الزعماء ، أو مذكراتهم ، وما إلى ذلك كله ، وفي الغالب يؤلفها أقرب الناس إليهم ، أو بعض من التقى به من الصحفيين أو هم أنفسهم . ومن هنا فأننا لم نجد - إلا قليلا - أمثال هذه المقالات المختصرة ، في ألوان الكتابة الجاحظية . وإن وجد ما يشبهها في بعض رسائله السياسية ، أو التي تناولت الشعوب والأقوام المختلفة . وواضح أيضا ، أن ذلك يختلف عن مجرد تقديمه لبعض أفكار الآخرين ، أو ما قاموا بطرحه أو تناوله من قضايا خلال كتبهم أو رسائلهم . مما كان يأتي عرضها ، في ثنايا أو تضاعيف كتاباته المختلفة ، لأن الفرق كبير بين هذه الصور ، وبين المقالات المختصرة ، التي تفرد لحالها ، ويكون الاختصار هو الأصل والأساس فيها ، كما ترتبط هي بخصائص هذا المقال الفنية ، شكلا ومضمونا ، وجميعها كانت تفصل بينها وبين كتابات صاحبنا مثل هذه المسافة البعيدة .

#### ( ب ) مقال المناسبات :

وهو أيضا ، بالشكل الذي تعرفه به صحف ومجلات اليوم ، لم تعرفه الكتابات الجاحظية ، إلا قليلا جدا . وحتى في هذا القليل ، فإنه كان يقف على هامش مناسبة سياسية ، أو تتصل بالفرق الإسلامية عامة ، والمعتزلة خاصة . بينما تتعدد صور هذا النوع من أنواع المقالات وتتسع حتى لتغطي جميع المناسبات الموجودة في العالم كله ، ولعل ذلك يعود إلى سببين أساسيين . أهلهما : سبب ظرفي ، زمني ، حيث لم يعرف عصر الرجل ، مثل ذلك العدد الكبير من المناسبات التي نعرفها الآن ، والتي شاعت أيام الدويلات الإسلامية . ثم أضاف لها « العصر الفاطمي » كثيرا ، فضلا عن المناسبات « العصرية » القائمة اليوم ، أو « المواسم » التي تتناولها كتابات الكاتيبين

مثل : « الربيع - الصيف - دخول المدارس - الأوكازيونات - الأعياد القومية - الأعياد الدينية - .. الخ » وأما ثانيهما : فهو أن الصحافة مضطرة على سبيل التغطية الكاملة لثقلات هذه المناسبات ، أن تتناولها بمختلف الأطر والأساليب التحريرية .. ومنها المقال ولم يكن الحال كذلك على عهد الرجل ، ولا كانت هذه اهتمامات أوعيتهم الصحفية التي انتشرت في عهدهم .. باستثناء الأعياد الدينية فقط التي كانت لها أطرها الروتينية المحدودة .

### ( هـ ) المقال الاعلاني :

.. وبالمثل كان عهد الرجل ، وعهد هذه الأوعية الكتابية التسجيلية أو الصحفية « جوازا » المعروفة في عصره ، وكان موقفه وموقفهم من هذا النوع من أنواع المقالات التي تكتب بهدف الاعلان عن نشاط أو مؤسسة أو جهاز أو سلعة معينة ، أو من أجل تسويق انتاج كل منها . حيث لم تشارك هذه الأنشطة بالشكل الذي كان معروفا على عهدهم أو عرفه العصر العباسي وقت حياة الجاحظ ، ومن ثم فإن هذا النوع يخرج عن مجال النشاط الكتابي الجاحظي .

وواضح كذلك ، بالاضافة الى هذا السبب الزمني ، أن انتشار هذه الأطر الفنية التحريرية الاعلانية ، سببه الرغبة في الافادة من امكانيات وأساليب هذه الفنون والأطر في اجتذاب القارئ ، ورفع درجة قابليته للقراءة ، واضفاء بعض ملامح الفكر المثالي على المادة الاعلانية ، كمحاولة لزيادة الاقبال عليها . فتحدث المادة أثرها ، في جمهور القراء والمستهلكين عن طريق اصطناع مثل هذه الأساليب .

● ● أما عن النوع الثاني من أنواع هذه المقالات .. المقالات التي اقتربت منها الكتابة الجاحظية اقترابا معقولا وطيبا .. فقد كان من أبرزها . هذه كلها .

### ( أ ) المقال الصحفي العام :

على الرغم من أن كتابات الجاحظ في مجموعها ، كانت تأتي ضمن

إطار كتاب أو جزء من كتاب أو رسالة أو ما شابه ذلك ، وأن هذه كانت لها ، وحدتها الموضوعية كما يبدو لأول وهلة ، وكما هو المفروض أن يكون ، استناداً إلى عنوان الكتاب ، أو عنوانات مصاحفه أو فصوله ، على الرغم من ذلك كله ، إلا أن المتتبع لآثار الجاحظ الكتابية في كثير من الأحوال ، يجد أنها كانت ترتبط بمثيلات هذه الخصائص :

— التنوع داخل إطار أو حدود المادة الواحدة ، والخروج من موضوع إلى موضوع أو وكما يقول التعبير الصحفي الحديث من فكرة إلى فكرة .

— جعل الصور العديدة ، القرينة واليعيدة ، المباشرة وغير المباشرة هي المجال الإطاري للمادة الجاحظية ، والدائرة التي تدور فيها الكتابات ، على الرغم من ارتباطها الظاهر ، أو على الورق فقط ، بموضوع أساسي .

— التوالد الكبير للفكرة الواحدة ، وتفرعها إلى أكثر من فكرة جزئية ، قد تؤدي بدورها إلى أفكار عديدة أخرى قد تجد لها مجالاً داخل المجال الإطاري للمادة الجاحظية الواحدة .

— اختراق ذلك كله ، بالتعبير المبدع عن الذات أحياناً .

— تقديم ، استعراض ، لثقافة الجاحظ وقراءاته من هنا وهناك .

— تقديم بعض الصور القلمية المرسومة جيداً ضمن إطار المادة نفسها لبعض الشخصيات التي يعرفها أو يتحدث عنها موضوعه أو يذكره بها

— المرور ببعض المحطات ، السياسية ، أو المذهبية ، أو تلك التي تتصل بعدد من المشكلات القائمة والمحتملة .

— إعطاء الأمثلة والشواهد العديدة من تلك التي تسعفها بها قراءاته العديدة والمتنوعة .

وليس شرطاً — بعد ذلك كله — أن تأتي هذه الموضوعات ضمن إطار مادة واحدة في جميع الأحوال . بل الحق يقال أن كثرة منها كانت تجيء ضمن

أطار موضوعات جاحظية عديدة ، لتذكرنا بأن كتاباته كانت صورة عصره ، وأن العالم الذي عاشه الجاحظ ، كان هو ميدان قلمه الذي عبر عنه أصدق تعبير ، وانتقل خلال مدنه وقصوره ومساجده وجوانيته ودهاليزه وحضره وبدوه وصوره الوردية والبيضاء والرمادية ، بل والسوداء أيضا ..

ولعل ذلك كله ، يتحدث ليقول لنا ، أن هذا النمط الكتابي الجاحظي - وبصرف النظر عن المسميات والأطر التحريرية الجديدة ومتطلبات الصحافة الحديثة - هذا النمط الكتابي الجاحظي ، قصد اقترب كثيرا من ذلك الذي أطلقنا عليه تعبير « المقال الصحفي العام » ، الذي يعد الآن من أبرز أنواع المقالات الصحفية ، وأكثرها نشرا وانتشارا وسيطرة على الصفحات ، يكتبه محررون وكتاب وأدباء وعلماء ، لكنه لا يتوقف عند اهتمامات أحدهم فقط ، وإنما يضرب في ميادين عديدة ، ويخرج من موضوع إلى آخر ، وهكذا ، حتى في اختلاطه أحيانا بغيره من أنواع المقالات ، حتى في بعض جوانب الجاذبية ، حتى في عمومية قارئه .. كل ذلك نجده يتمثل إلى حد غير قليل ، في أمثال هذا النمط الكتابي الجاحظي ..

#### ( ب ) المقال العرضي أو الاستعراضي : « الاستطرادي » :

ولا نقصد به هنا « المقال العرضي » بفتح العين والراء ، والذي يطلق عليه أيضا المقال « النزالي » بمعناها المعروف والمتجه إلى امتشاق القلم ومنازلة الكاتب الخصم ، وإنما نقصد بالمقالات « العرضية » بتسكين الراء ، أي بمعنى الاستعراضية وهي مقالات صحفية شهيرة ، تعرفها الصحافة الأجنبية ، خاصة صحافة المجلة ، وفيها يقوم الكاتب بعمل « عرض » للقارئ أو « استعراض » يقدم خلاله عرضا كبيرا لفكرة أو لأكثر من فكرة ، يتبعها بموضوع يتناول مشكلة أدبية أو ثقافية أو اجتماعية ، ثم يخرج منها إلى عرض مسهب لقضية من القضايا التي تشعل باله أو بالأسد القراء أو الأصدقاء أو المعارف ، وقد يعرج على جانب من الجوانب الانتمسانية أو السياسية أو المذهبية أو تلك التي تتصل بالشعر أو النثر ، أو بشاعر أو بناعر أو بشخصية ما .. وهكذا وقد يركز ولكن في أسهاب واستطراد على صورة واحدة من هذه الصور ، أو مشهد أو شخصية أو قضية أو فكرة واحدة ، بحيث تستغرق المجال كله بمادتها المسهبية وجوانب الاستطراد فيها ، تلك التي ( الجاحظ )

يكاد الرجل « يقتلها بحثا » لكن الرباط الوحيد الذي يربط بينها جميعا ، الموضوعات المختلفة أو الموضوع الواحد والذي تشد اليه أيضا ، ويحرص الكاتب عليه هو رباط العرض ، فهو يعرض لهذه كلها ويتوقف عند حسد العرض ، دون أن يتعداه الى مجال آخر ، لكن من الطبيعي أن يتداخل العرض أحيانا مع غيره من « القوالب الفنية » ، أو يتشابه مع بعضها لاسيما « الوصف » فهما — تقريبا — وجهان لعملة واحدة ، لكن مع بقاء الطابع العرضي الغالب والمسيطر . .

ومن الذي يستطيع أن يقول . أو يزعم ، أن كتابات الرجل قد خلت من هذه التي تقف بالقرب من هذا النمط المقاتلي ؟ وبالقرب الشديد أيضا ؟ أو من ذا الذي يمكنه أن ينكر وجود هذه الخصائص في العديد من صور كتاباته ، تلك التي زخرت بها مؤلفاته العديدة ؟ . بل لماذا لا نقول أن أكثر مادة الرجل الكتابية هي من هذا النوع الاستعراضي الاستطرادي وأن نحن قمنا بـ « فك » عدد من اجزائها لوجدناها بهذه المقالات شديدة النسب !!

#### ( د ) المقال التحليلي :

والتابع لكتابات الرجل ، خاصة في رسائله المتنوعة ، وكتبه الأقل حجما من موسوعاته من مثيلات « الحيوان — البيان والتبيين — البخل — وما شابهها » . المتابع لهذه النوعية من النتاج الجاحظي من لدن :

« الصرحاء والهجناء — مفاخرة السودان والحرمان — حق الخثولة والعمومية — أقسام فضول الصناعات — القحطانية — العدنانية — العرب والموالي — الزيدية — الرافضة — خلق القرآن — الوعد والوعيد — الحجة في تثبيت النبوة — العثمانية — العيامة — فخر السودان على البيضان . . . » وغيرها :

● يجد أن بعضها الأول ، وكما أشرنا الى ذلك من قبل يمت الى « الدراسة الصحفية » أو « البحث الصحفي » ، بصفة نسبية قوية .

● ويحد أن بعضها الثاني يمت الى « مقالات التخصص العام » يمثل هذه الصلة .

● ويجد - في النهاية - أن بعضها الثالث ، لا يقل صلة عن سابقه ، ولكن بماذا ؟ بالمقال التحليلي نفسه . أو المقالات التحليلية ذاتها .

وإذا كان النوع الأخير من المقالات هو ما يهتما بالدرجة الأولى خلال هذه الفقرة ، فإتينا نضيف إلى ذلك قولنا . .

ان من أبرز خصائص هذه النوعية من المقالات ما يلي :  
— حاجة هذا الموضوع التي يستشعرها الكاتب هنا إلى الإيضاح والتفسير من جانبه ، لصالح هذا الرأي العام أيضا .

— أن الموضوع تكون له جذوره وامتداداته وأصوله كما تكون له تشعباته العديدة التي يصعب على القراء فهمها دون قيام أحد المتفرسين والفاهمين بشرحها والقاء أكثر من ضوء عليها ، في صيغة العارف بها ويتطوراتها وحقائقها وبقائتها أيضا .

— ان الموضوع يحتاج من كاتبه إلى أكثر من إضافة أخرى بعضها يقدم فيه مادة مقارنة بما حدث أو وقع في مكان أو زمن آخر ، أو ما تناوله كاتب أو مؤلف آخر ، بما في ذلك من رؤية للواقع المكاني ،

— وأنه يحتاج إلى هذه المقدرة التحليلية من كاتب خبير يلم بأفكاره كلها ويخرج منها بعدة شواهد وأمثلة تتصارع فيما بينها وتتشابك ، وتتوالد ، ثم تقدم صورا ومفاهيم وتوقعات جديدة ، في صورة نتائج هامة ، أتت إليها المقدمات التحليلية السابقة في مجموعها . .

— دون أن يتجاهل خلال ذلك كله ، تقديم رأيه في ذلك الذي يتوصل إليه ، وأن يكون الخط التحليلي هو الهام والمسيطر من أول المقال حتى آخره .

هذه - باختصار - بعض معالم تلك النوعية من المقالات الصحفية الحديثة ولعله مما يذكرنا بهذه الصلة بين بعض الكتابات الجاحظية وأمثال هذه المقال ما نقوله أمثلة في الفن الصحفي عن معرفة الصحافة العربية بها ، على يد الكاتب السوري فرح أنطون في مجلة الجامعة . ومن أمثلة ما كتبه تحت عنوان : مستقبل العامل والفلاح في مصر . . حيث بدأ بشرح سبب اختياره لهذا الموضوع فقال : لا تنصرف المجلات للسياسة البحتة ،

ففى مباحث الجرائد الكبرى غنى عن مباحث المجلات فى هذا الشأن» (٢٥) . .  
انه يوضح الصلة بين الدراسات والبحوث الصحفية من جانب ، وبين هذه  
المقالات التحليلية من جانب آخر ، وبدورنا نقول ، والصلة بالكتابات الجاحظية  
من هذه النوعية أيضا . .

وتضيف الباحثة نفسها عن محرر هذا النوع من المقالات ومما لا يبتعد  
كثيرا عن الجاحظ واستعداده لكتابتها وأغلبها - ولا أقول كلها - سياسى  
الطابع :

« ما كل محرر صحفى يستطيع أن يقوم بهذا النوع من المقالات الصحفية  
- لديه الكثير من المصادر الهامة فى مجال العمل الصحفى بداخل البلاد  
وخارجها - القدرة للادراك الكامل للبعد الحقيقى للأحداث وصانعيتها وأن  
يدأوم على القراءة والاطلاع لمعيشة أصول القضايا الهامة فى كافة المجالات،  
خاصة مجال السياسة ومجال الاقتصاد - أن يكون ملما بأسس البحث العلمى  
وأصول استخراج الحقائق من بطون مراجعها الأكاديمية ودورياتها  
المتخصصة - بمعنى أن يكون فى المقال دسامة الأبحاث العلمية - الخ » (٢٦) .

الا يأخذ الرجل - كما رأينا - من هذه الجوانب بنصيب كبير ؟  
باستثناء هذه المسميات الحديثة ، التى لم يكن عهده أو عصره يعرفانها ؟ . .  
لكن ، اذا كانت الشواهد الجاحظية نفسها هى خير الأدلة على صحة هذا  
الاقتراب الجاحظى من المقالات التحليلية ، فلا يسعنا الا أن نحيل القارئ ،  
على مثيلات هذه الرسائل الصابقة خاصة ذات الطابع السياسى والاجتماعى .  
والآن نقدم جزءا من واحدة من هذه المقالات .

● ● جزء من مقال عرضى - استعراضى - فى بعض المسائل اللغوية،  
ومحاولات أصحاب اللغات أخفاء عيوبهم واصطناع كلمات أخرى ، لا تظهر  
هذه اللغة : « الجاحظ - البيان والتبيين - ١ » . . مختارات .

« ولا علم وأصل بن عطاء أنه الثغ فاحش اللثغ . وأن مخرج ذلك  
منه شنيع وأنه إذ كان داعية مقالة ، ورئيس نخلة . وأنه يريد الاحتجاج على  
أرباب التحل وزعماء الملل وأنه لابد له من مقارعة الأبطال . ومن الخطب  
الطوال . وأن البيان يحتاج الى تمييز وسياسة . والى ترتيب وريضة . والى

تمام الآلة ، واحكام الصنعة ٠٠٠٠ - وعلم واصل أنه ليس مع ما ينوب عن البيان التام ، واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ، لنحو ما أعطى الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسايد ، مع لباس التقسوى وطابع النبوة ، ومع المحنة والاتساع فى المعرفة ، ومع هدى النبيين وسمت المرسلين ، وما يغشيههم الله به من القبول والمهابة ، ولذلك قال بعض شعراء النبی صلى الله عليه وسلم :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تنبيك بالخبر

ومن أجل الحاجة الى حسن البيان ، واعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة ، رام أبو حذيفة اسقاط الراء من كلامه ، واخراجها من حروف منطقة ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله . ويتأنى لستره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل ٠٠٠٠ الخ . وكانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين ، فاذا حمل على نفسه ، وقوم لسانه أخرج الراء ، وقد ذكره فى ذلك أبو الطروق الضبى فقال :

عليم بإبدال الحروف وقامع

لكل خطيب يغلب الحق ياطله ٠٠

ثم يعود الى حديث واصل قائلا : « وكان اذا أراد أن يذكر البر قال : القمح أو الحنطة ، والحنطة لغة كرفية . والقمح لغة شامية ، هذا وهو يعلم أن لغة من قال بر ، أفصح من لغة من قال قمح أو حنطة ٠٠ - وقال عمر بن الخطاب رحمه الله أترون أنى لا أعرف رقيق العيش ؟ لباب البر بصغار المعزى - وسمع الحصن رجلا يعيب الفالونق ، فقال : لباب البر بلعاب النحل يخالض السمن ٠ ما عاب هذا مسلم - وقالت عائشة : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه البرة السمراء حتى فارق الدنيا - وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف فى ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر ٠٠٠ الخ ، (٢٧) .

● ● والآن يأتى دور حديثنا عن « النوعية الثالثة » من هذه المقالات ، وهى التى قلنا أن كتابات الجاحظ قد اقتربت منها بشدة ، وإلى أدنى حد ممكن ، لتمثل بعض هذه الكتابات الجاحظية ، الطلائع المتقدمة جدا لهذه

المسميات الحديثة . أو الأطر والأشكال المقالة التي تعرفها صحف اليوم ومجلاته ، على اختلاف أنواعها ، كما يكاد البعض الآخر من هذه الكتابات الجاحظية ، أن ينطبق على الحالي من نوعيته تمام الانطباق — كتعبير رجال المنطق — ولما كانت أكثر الشواهد تؤكد أن الرجل لم يسبقه الى هذه الكتابات كاتب آخر على عهده ، أو في عهد قبل ذلك العهد ، بنفس القدر من الكم والكيف معا . أو بنفس الدرجة من الوضوح والاكتمال ، التي تبدو في كتابات الجاحظ . فانه لا يسعنا الا أن نشيد بهذه الاسبقية له أيضا .

على أن هذه النوعية الثالثة ، انما تتمثل في :

#### ( أ ) المقال النقدي : « الصحفي »

ونعني به هنا أولا ، وقبل غيره من الأنواع ، النقد الأدبي الصحفي أو نقد النصوص الأدبية ، أو القطع أو الأعمال الفنية الأدبية كما يظهر على صفحات الجرائد والمجلات وليس كما يقول « تاريخ الكلمة » . . . . . وحيث كانت قبل هذه الاستخدامات . وما تزال أحيانا تستخدم « بمعنى الذم والاستهجان » (٢٨) . . . . . بالإضافة الى معناها الأخير الشهير الذي وردت عليه في المعاجم العربية أي بمعنى ، تمييز الصحيح من الفاسد والجيد من غيره من الأموال . . . أو النقود ، بالمعنى « المصرفي » . . قال الشاعر يصنف راحلته :

تنفى يداها الحصى في كل هاجرة

نقى السدراهم تنقاد الصياريف :

. . . « فالصيرفي عندما ينقد الدراهم يعزل الجيد عن الرديء ، والزائف عن غيره وإذا شبه الناقد بالصيرفي ، (٢٩) .

. . . وهناك معان أخرى كثيرة ، واستخدامات عديدة لهذه الكلمة ، فحسبنا ذلك ، وحيث يقوم الكاتب الناقد بالنسبة للعمل الفني الأدبي ، بمثل ما يقوم به الصيرفي بالنسبة للمجتمع لديه من الأموال والدراهم .

مقال النقد هنا بمعنى تلك الأفكار المكتوبة التي يتناول فيها الكاتب أو المحرر - الناقد هنا - عملاً فنياً أدبياً - أو غير أدبي - من خلال تسليط الأضواء على جوانبه وقياسه بمقاييسه ، واستخدام معايير الفنية المختلفة ، من أجل إبراز ما فيه من عناصر الإيجاب أو السلب ، والجمال أو القبح ، وتقدير ما لهذا العمل من قيمة استناداً إلى ثقافة الناقد ، ودراساته ومقدرته وحسه النقدي والتحليلي .

وإذا كان « جمهور المستمعين » الشاعر الجاهلي يمثل طلائع النقاد ، الذين كانت تحكمهم مقاييس خاصة ، تستند إلى المؤثرات البيئية . وإذا كانت تلك المقاييس قد أخذت منحى إسلامياً يهدي من الدين الحنيف ، فأختلفت منزلة الشعراء والخطباء ، استناداً إلى المعيار الديني الإسلامي ، ومدى ارتباط العمل الأدبي بالدعوة الإسلامية فقد أضيفت إلى هذه كلها مقاييس ومعايير ومقومات جديدة ، ارتبطت بالفرق والأحزاب المتعددة ، وكذا بالمد الإسلامي عبر المسافات والدول ، فامتدت الدائرة النقدية وتعددت الاتجاهات والمذاهب ، لكنها لم تبلغ ذلك التعدد الذي شهدته خلال العصر العباسي ، انعكاساً للحياة الجديدة نفسها ، ومادخلها من عناصر وأقوام وثقافات وتقاليد ومظاهر وصور ، وما صاحب ذلك كله من تطوير للفنون الأدبية القائمة . بتأثير ذلك ومن نشأة فنون جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ثم تعدد الأفكار والموضوعات والأغراض والقضايا التي تناولها الكتاب والشعراء وإذا كانوا يقولون ، أن تطور الأدب يتبعه تطور النقد ، ذلك الآخر الذي يقوم على الأول ، فقد كان هذا هو ما حدث ، بينما وجدنا طوائف عديدة من « النقاد » كان من أهمهم ، ومما يقترب من النقد العلمي أولاً ، أو النقصد الأدبي فقط ، وليس الأدبي الصحفي :

● النقاد من « اللغويين » الذين اهتموا بالجانب اللغوي في العمل الأدبي وما يتصل به .

● النقاد من « الكلاميين » أو « المتكلمين » الذين يجمعون بين الجانب السابق ، وجانب الاحتكام إلى العقل وأعمال المنطق والحجة ، وفتح باب المناقشة الجدلية .

● وإلى جانب هؤلاء فقد كان هنا بعض النقاد من « الرسميين »

إذا صح التعبير ٠٠ ويمثلهم هنا بعض الخلفاء والأمراء والأثرياء وكبار التجار من أصحاب « المجالس الأدبية » ٠٠ الى جانب موظفي الدواوين الرسمية ، ممن كانت لهم صلة بالنتاج الأدبي والعلمي في عصرهم ، من أمثال دواوين « الرسائل » و « الإنشاء » و « صاحب الخير » ٠٠ و « الترجمة » ٠٠

● ثم أخيرا هذه الطائفة من « النواقة » الذين أظهروا عناية شديدة بارتياح هذه المجالس والمكتبات ودكاكين الوراقين يسعون وراء هذا النتاج ويرصدونه ، ويتناقلونه بروح الهاوى وعين الخبير ، وفكر الناقد في أحيان كثيرة .

وهكذا وجد الأدباء من يتناول نتاجهم بالنقد ، ووجد من يطالب بأجادة الكتابة وبإعطائها - لغة وأسلوبا - حقها من جميع الوجوه خاصة من حيث اللفظ والمعنى ، ووجد من يشارك في تقويم الخطباء ، ومن يعقد المجالس أو يؤلف الكتب لنقد الشعراء ، أو للموازنة بين شاعر وآخر الى غير ذلك كله .

والحق ، أن من يقرأ التراث الجاحظي ، ليتوقف كثيرا عند أكثر من جانب من جوانبه ، لاسيما في كتابه الأشهر « البيان والتبيين » ، وفي عدد آخر من رسائله وكتبه ٠٠ حيث يجد أنها بدورها تمثل سلاسل منتظمة ، أو غير منتظمة من مقالات نقدية تناولت كافة هذا النتاج الأدبي الموجود في عصره والتي تميزت - ومما يقربها هنا من مقالات النقد الصحفي ، وبشدة - بهذه الأمور :

— أنها جمعت بين المعايير العديدة التي كان يطبقها النقاد من الطوائف الأربع السابقة .

— أنها عكست ثقافة لغوية وأدبية عامة وليست متخصصة فقط ، كتخصص الناقد اللغوي مثلا .

— أنها عكست حسا صحفيا كبيرا ، في اختيار مادة النقد ، وموضوعات هذه التناولات من المعين الأدبي ، قديمه ومعاصره ، وحيث كانت في معظمها من الموضوعات النقدية الساخنة ، والتي تحد قبولاً جماهيريا ، والتي لها قصة مع غيره من النقاد أو تلك الجذابة المسوقة .

— أنه لم يوضع هذه المادة في أشكالها الكلاسيكية التي كان يضعها فيها غيره وإنما غلب عليها الطابع الجاحظ في الاسترسال وحسن العرض، والانتقال من الفكرة إلى الفكرة ومن الموضوع إلى الموضوع ، والتجديد في المادة من أن لآخر بما يجذب القارئ ويمسك به حتى النهاية .

— أن « مقالاته » النقدية كانت تشهد كثيرا من التنوع في الموضوعات والطرق والأساليب النقدية ، بما لم يحدث عند « النقاد » المتخصص تماما ، أو عالم النقد ، إذا صح التعبير ، وبما يؤكد جانب نقده الصحفي .

— أن أغلب مقالاته النقدية كانت تتجه الاتجاه التطبيقي العام ، الذي يعنى بالحكم على المادة نفسها وما لها وما عليها ، على نحو ما يفعل نقاد الصحف الآن عند ظهور الاصدارات الجديدة .

— أنه لم يكن يهتم كثيرا بالجزئيات الصغيرة ، فلا يحكم لكاتب أو عليه من خلال فقرة أو عبارة ، أو عدة سطور ، ولا يحكم لشاعر من خلال بيت واحد أو قصيدة واحدة . على نحو ما كان يفعل النقاد في عصره ، وإنما كان ينظر إلى العمل كله ، أو إلى الأعمال في مجموعها ، وصحيح أن نقده للعبارات والفقرات والأبيات والقصائد وارد ، لكنه لم يكن الأساس ، وكان يعرض له على طريقة « الشيء بالشيء يذكر » .

— أنه في كتابه « البيان والتبيين » أيضا ، كان أول من استخدم تعبير « البلاغة » بمعناها الدقيق ، كما يقول بذلك أستاذنا « شوقي ضيف » . وقد انعكست نظريته هذه على ما تناوله ، حتى يمكننا القول ، أنه ساهم في وضع معالم « المقال النقدي » الأدبي والصحفي معا ، ولعله قد عبر عن ذلك ، في صياغة من الأدب الصحفي عندما قال في الكتاب السابق نفسه .

« قيل للقارص ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل ، وقيل لليوناني ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وقيل للرومي ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة ، وقيل

للهندي ما البلاغة ؟ قال وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة اليصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم قال : ومن اليصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الاقصاح بها الى الكناية عنها ، اذا كان الاقصاح أوعر طريقة ، وربما كان الاضراب عنها صنفها أبلغ في الدرك وأحق بالنظرة ، ( ٣٠ ) .

.. ونقدم هنا أجزاء أخرى من هذه المقالات النقدية « الصحفية » مما جمعناه من كتبه ورسائله :

فهو يقول مثلاً في نقد لغة الأعراب : « ان الأعراب يفسد نواذر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع الكلام انما أعجبه تلك الصورة وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة ، فاندخلت على هذا الأمر — الذي انما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه — حروف الأعراب والتحقيق والتنقيل ، وحولته الى صور الفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » ( ٣١ ) .

ويقول كذلك بشأن الترجمة والمترجمين : « .. فمتى كان رحمه الله تعالى ، ابن البطريق ، وابن ناعم ، وأبو قره — ابن قره — وابن قهر وابن الباهلي ، وابن المقفع مثل أرسطاطاليس » ومتى كان خالد مثل أفلاطون ؟ ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في نفس وزن علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول اليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية ، ومتى وجدناه أيضاً تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها وتعترض عليها ، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه اذا انفرد بالواحدة ، وانما له قوة واحدة ، فان تكلم بلغة واحدة ، استفرغت تلك القوة عليها وكذلك اذا تكلم بأكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ... الخ ، من كتاب الحيوان ج ١ ص ٢٨ .

( ب ) مقال التخصص العام « مقال مجالات التخصص العام » :

.. وذلك هو النوع الثاني ، من هذه الكتابات الجاحظية ، التي تمثل .

أقرب كتاباته الى بعض أنواع المقالات الصحفية الحديثة ، تلك التي تكون من نفس النمط ، ومن نفس المعين ، وتأخذ نفس الطابع أيضا . .

ويعود الأصل في إطلاق تعبير « التخصص العام » عليها ، وكذا تعبير « مقالات مجلات التخصص العام » لعدة أسباب في مقدمتها .

— أنها متخصصة من حيث العلوم ، أو المفروض أن تكون كذلك ولكنها ليست متخصصة من حيث القارئ .

— أنها لا ترتفع بمستواها الى درجة التخصص العلمي الدقيق الذي نشهده في الكتب العلمية ، الجامعية مثلا ، أو في مجلات هذا التخصص الدقيق .

— أن أفضل مكان لنشرها هو « مجلات التخصص العام » أي تلك التي تقدم بعض جوانب التخصص مما يستطيع متابعته القارئ العام المثقف أو نصف أو ربع المثقف أيضا ، ثم المجلات العامة ، والصحف الأسبوعية ، خاصة على صفحاتها وأركانها الخاصة .

— أن كاتبها يوازن بين أشياء عديدة ، من بينها تقديم المعلومات العلمية غير المتعمقة تماما ، والتي لا تهم المتخصصين وحدهم ، وحتى هذه فإنه يجيد اختيارها من بين أكداً ما يتجمع عنه ، ويقدمها في قالب مشوق ، وفي لغة واضحة ، وأسلوب جذاب . .

— وهو يدعمها بالقصص والتشبيهات ، ويوالي الربط بينها وبين جوانب تهم الناس في عهده ، أو تهم قراء مجلته .

أي أنه يكون أقرب الى ذلك النمط الأسلوبى القالى المسمى « العلمى المكاتب » فهو علمى نعم ، لكنه يوضع في قالب أدبى ، ويعبر عنه بأسلوب أدبى . . لكنه — مقال التخصص العام — ليس أدبيا تماما من حيث توجهاته الصحفية ، ولغته الأدبية الصحفية معا ، ومن حيث اهتماماته كذلك . .

وإذا كانت هذه المقدمات كلها مما يتصل بعدد من خصائص هذه النوعية

من المقالات من جانب ، فإنها - من جانب آخر - مما يعتبر علما على هذه النوعية من المقالات الجاحظية ، التي عرفها الرجل ، وأجاد كتابتها وزخرت بها كتبه العديدة لا سيما كتابه الأشهر « الحيوان » . ولكنه ليس وحده وإنما كانت هناك بعض الكتب الأخرى المماثلة ، أو في تعبير آخر - ومرد ذلك الى عبقرية الرجل نفسها - أن مقالات التخصص العام التي كتبها لم يكن مجالها علم الحيوان فقط ، وإنما ضربت في أكثر من تخصص من بينها التاريخ والجغرافية والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق ، وحتى الطبيعيات والرياضيات أيضا . وما أكثر مادة هذه الكتب والرسائل الا مجموعات من مقالات من هذا النوع الأخير أكثر منها مقالات علمية كاملة .

— « كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية » تاريخ .  
— « كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال - الاعتزال وفضله » في الفلسفة والاعتزال .

— « كتاب خلق القرآن - كتاب آي القرآن - كتاب الرد على اليهود في الدين الاسلامي » .

— « كتاب مراتب التجارات - كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعقاب » في الزراعة والاقتصاد .

— « رسالة في الكيمياء - كتاب « المعادن » في الكيمياء الى آخر هذه القائمة ، وغيرها من الكتب ، فضلا عن كون أكثرها ذات موضوعات متنوعة شتى . . . لكننا نقصد هنا - بالدرجة الاولى - تلك التي زخرت بهذه النوعية من المقالات . . . التي يطلق الآن على بعضها أحيانا « المقالات الموضوعية »

يؤكد ذلك كله ، وكما اشرنا الى بعضه من قبل :

● أن الرجل لم يكن عالما كاملا ، في علم بعينه من هذه العلوم التي تنازلتها كتاباته ، على أي شكل من أشكالها ،

● أنه كان يعرف من هم قراء مادته ، انهم ليسوا طلاب العلم وحدهم ، وإنما العامة والخاصة معا . . .

● ويمكن أن نضيف الي ذلك كله :

— حسن انتقاء الرجل لمادته التي تهم الجميع من بين عشرات المواد العلمية المطروحة أمامه .

— المزج في أحيان كثيرة بين هذه المادة وبعض المواد الأخرى بغية التخفيف من حدتها والترويح عن القارئ واعطائه فرصة التقاط أنفاسه . . حتى الملح والطرائف استخدمها أيضا ، وكان ذلك معنى قول من تناولوه ، وتكرار ذلك ، انه كان « يمزج الجد بالهزل » . . حتى في كتاباته السياسية ، والعلمية ، كان يفعل ذلك .

— الأسلوب السهل الواضح الذي كان علما على هذه الكتابات . . وهكذا على النحو الذي اصطنعه بعده بقرون طويلة عدد من الكتاب أو « المحررين العلميين » وكذا « الموسوعيين » . . نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر ، وبعضهم من كبار العلماء : « يعقوب صروف — فارس نمر — د . احمد زكي — د . عبد الحليم منتصر — د : عزيز المحسن صالحي — د . احمد احمد بدوي — د . درويش القار — . . . الخ » وغيرهم . .

وحتى تقترب المسافة بين هذه الكتابات التي قلنا أنها تتشابه كثيرا ومقالات مجلات « التخصص العام » ، وقبل أن تقدم طرفا منها على سبيل المثال ، نقرأ سطورا عن هذه النوعية من المجلات من كتاب آخر لنا — في عالم المجلة — تلك التي كان يمكن أن تتوزع عليها مثل هذه المسادة الجاحظية ، أو كان يمكن — لو أن الرجل يعيش الآن بيننا — أن يصبح من أبرز محرري عدد كبير منها ، ولا أقول مجلة واحدة فقط ، كما هو الحال بالنسبة لمحرريها الآن . . ان هذه المجلات هي :

• النوعية الثانية من عالم المجلات والتي أطلق عليها البعض — المجلات المتخصصة — لكننا نرى أن هذا التعبير تنقصه الدقة والواقعية ، وبالنظر الى مادتها المنشورة على الصفحات نفسها ، ومن أجل ذلك كان توقعنا عند مفهوم التخصص حيث نرى أن هذه المجلات : لا ترتفع بمستوى مادتها الى درجة أو درجات التخصص العلمي الدقيق والمنشود ، وحتى هذا المستوى نفسه من الاهتمام الخاص لا يكون على نفس الدرجة بالنسبة لجميع موادها — والطابع

الغالب على محرريها أنه يكون من محرري المجلات عامة ، وفي الوقت نفسه من محرري المجلات من ذوي الاهتمام الخاص الذي لا يرقى في معظم الأحوال إلى مستوى التخصص أو التخصص الكامل - وهي أيضا لا تتوجه إلى قارئ بعينه دون الآخر - وإن تسال اليهم عدد من المتخصصين في مادة المجلة ، فإذا حاول أحدهم أن يضع نفسه موضع القارئ العالم المتخصص وربما الدقيق فإنه سوف يكتشف أن المسافة بعيدة تماما بين مادة هذه المجلة التي تهتم بهذا الجانب وبين معارفه ومجالات تخصصه . \*

إن الجاحظ هو مثل كتاب هذه المجلات ، هو كاتب « مهتم » وليس عالما ولا مؤرخا ولا جغرافيا . . وهكذا تقول كتاباته . لا أقول المتخصصة ، ولكن من ذوات التخصص العام ، الذي تمثل هذه المقالات ، أهم أنواعه . .

وربما كان باستطاعة الرجل أن يكتب كتابة متخصصة بقيقة التخصص ونحن لا ننكر عليه ذلك ، ولا امكانية قيامه بها ، أو استطاعتها . . لكن الرجل كان يعرف كيف يختار وماذا يقول ولن يتوجه وخصائص قرائه . . وهذه أخرى تؤيد دعوانا على قيام جانب الصحفي ، إلى جانب شخصيته الأدبية . .

والا فلماذا لم يكتب المقال المتخصص الدقيق ، مادام يستطيعه ؟ لماذا لم يتجه إلى علم واحد فقط ؟ لماذا لم يصبح عالما فقط ؟ أو فيلسوفا فقط ؟ أو جغرافيا دون غيره من الرجال ؟ أو مؤرخا دون الاقتراب من مجالات أخرى ؟ أو من علماء اللغة ؟ أو من رجال السياسة أو الاقتصاد أو الزراعة أو الكيمياء المحدودين ؟ وقد عرف كل ذلك ، وتناوله ، وكان باستطاعته التخصص في أحد قروعه ؟

قد يقول قائل - ردا على ذلك - أنه أحد هؤلاء الموسوعيين المعروفين ، والذين يجمعون بين معارف عديدة وعلوم متنوعة ؟

وأقول أولا - ليس إلى هذا الحد من الكثرة والتعدد .

وأقول ثانيا - وماذا عن حسن اختياره وتوجهاته واهتماماته ولغته ، وكلها تؤكد جانب صحافته . .

وأقول ثالثا - وحتى هؤلاء من الموسوعيين ، فإنهم لم يكونوا علماء فقط ،

ولكن على اكتافهم ويمساهماتهم العديدة ، قامت المجلات ، أو قامت «صحافة  
المجلة » . كما يحدثنا تاريخها ، وقبل أن تتداخل عوامل التطور والتشابه  
العديدة ، التي أثرت في مسيرة المجلة . شكلا ومضمونا :

على أن العودة الى اليتاييع الجاحظية ، نغترف منها بعضا مما ينكرنا  
بهذه النوعية هي عودة واجية :

● ● جزء من كتاب « الحيوان » يقدم بعض مايقته التي تقرب كثيرا  
من مقال « التخصص العام » أو « مقالات المجلات » ذات التخصص العام  
أيضا « الجاحظ : الحيوان — كلمات مختارة » .

#### ( الورل وعدم اتخاذه بيتا )

« ومن كلام العرب أن الورل إنما يمنعه من اتخاذ البيوت أن اتخاذه  
لا يكون الا بالحفر ، والورل يبقى على براتته ، ويعلم أنها سلاحه الذي به  
يقوى على ما هو أشد بدنا منه ، وله ذنب يؤكل ويستطاب ، كثير الشحم » .

#### ( قول الأعراب في مطايا الجن من الحيوان )

والأعراب لا يصيدون يربوعا ، ولا قنفذا ولا ورلا من أول الليل ، وكذلك  
كل شيء يكون «ندهم من مطايا الجن كالنعام والظباء » .

ولا تكون الأرنب والضبع من مراكب الجن لأن الأرنب تحيض ولا تغتسل  
من الحيض ، والضبع تركب أيور القتلى والموتى إذا جفت وانتفخوا  
وأغظوا ثم لا تغتسل عندهم من الجنابة ، ولا جنابة إلا ما كان للإنسان فيه  
شر ، ولا تمتطي القروء لأن القرد زان ولا يغتسل من جنابة

فإن قتل أعرابي قنفذا أو ورلا من أول الليل ، أو بعض هذه المراكب لم  
يأمن على فحل أبله ، ومتى اعتراه شيء حكم بأنه عقوبة من قبلهم ، قالوا :  
ويسمعون الهاتف عند ذلك بالنعى ، ويضروب الوعيد .

#### ( قول الأعراب في قتل الجان من الحيات )

وكذلك يقولون في الجان من الحيات ، وقتل الجان عندهم عظيم ، ولذلك

رأى رجل منهم جانا فى قعر بئر . لا يستطيع الخروج منها ، فنزل على خطر شديد حتى أخرجها ، ثم أرسلها من يده فانسابت ، وغمض عينه لكيلا يرى مدخلها . كنه يريد الاخلاص فى التقرب الى الجن ، قال المازنى : فأقبل عليه رجل فقال له : كيف يقدر على اذاك من لم ينقذه من الأذى غيرك ؟ » .

#### ( هـ ) المقال الفكاهى الكاريكاتيرى :

... وإذا كانت الكتابات الجاحظية النقصدية وذات التخصص العام من تلك التى اقتسرت بشدة من مادة المقالات الحديثة . على النحو الذى أشرنا اليه ... فان هذه النوعية مجال الحديث خلال هذه الفقرة هى أكثر أنواع الكتابات الجاحظية اقترابا من صورها وانماطها واشكالها الحالية ، التى تعرفها الصحف والمجلات اليوم ...

بل اننا ... فى واقع الأمر ... لنظلم هذه الكتابات الجاحظية الفكاهية والكاريكاتورية كثيرا ، ان نحن اقتصرنا على هذا الوصف بالاقتراب الشديد فقط ، أو بأنها اقربها اليها دون اضافات أخرى ، لأن الواقع التاريخى الأدبى والصحفى نفسه يقول أن هذه الكتابات الجاحظية انما تمثل أصدى تمثيل :

- دور الطلائع بالنسبة لهذه المقالات الأدبية الصحفية معا .
- دور الريادة بالنسبة لفن الكاريكاتير الكتابى شكلا ومضمونا .
- أي أنها الأقرب حتى من هذه النوعية السابقة وبكثير

وان يحدث أن تجد نوعية أخرى من الكتابة الجاحظية ، اقرب منها الى هذا الفن وبالمثل لن يحدث أيضا أن تجد فى مادة الصحف الحديثة ، ما هو اقرب الى كتابات الرجل من هذه النوعية أيضا ...

ولكن كيف ...

اننا نقدم لذلك كله ، ونضيف كذلك الى ما سبق ان قدمناه من قبل عند حديثنا عن « الحاسة الفكاهية » عند الرجل ، نقدم لذلك بعدد من الأقوال ، من بينها . على سبيل المثال لا الحصر :

● ان رائدا من رواد فن التحرير الصحفى ، كتب يقول : « ربما كان

الجاحظ أول كاتب إسلامي عالٍ فن الكاريكاتور في تاريخ النشر العربي ، وقد ترك لنا الجاحظ أعظم رسالة أدبية كتبت في هذا الفن ، ولعلها أعظم رسالة إلى اليوم ، فنحن لا نعلم لها نظيراً فيما كتبه أهل هذا الفن - سواء في الأدب أو في الصحافة - حتى اليوم . وموضوع رسالة الجاحظ هو السخرية من كاتب من كتاب الديوان اسمه أحمد بن عبد الوهاب ، (٢٢) ، ولا يتسع المقام لذكر شيء عن هذه الرسالة التي كتبها الجاحظ ، وإن كنا نعتقد أن الكاتب العباسي الكبير - يعتبر بحق - واضعاً لأساس الكاريكاتور في الأدب العربي ، (٢٣) .

● وإلى مثل هذه الرسالة أيضاً ، وصلتها بهذا الفن ، أشار كاتبنا الكبير « توفيق الحكيم » أكثر من مرة ، في كتبه ومقالاته ، وكان من بينها - مثلاً - هذه الكلمات : « ومن مفاخر تراثنا أن نرى الجاحظ يرسم بثره ما يرسمه هذا الفن المعاصر الذي نسميه الكاريكاتير » (٢٤) .

« وبعد أن يقدم لنا سطوراً من هذه الرسالة - التبريع والتدوير أيضاً - يضيف قائلاً : « وعلى هذا النحو يمضي الجاحظ يصور لنا ذلك الرجل تصويراً لا يريد به هجاءه بقدر ما يريد اضحاكنا منه ، وهذا هو روح فن الكاريكاتير » (٢٥) .

● « وفي كتاب سابق لنا - المقال الصحفي - أشرنا إلى هذه النقطة ، وكان من بين ما قلناه عن كاتب المقال الفكاهي والكاريكاتوري : « وحيث يكون لكاتبه أن يفعل كما الرسام الكاريكاتيري » أي لا يكتفى بإظهار العيوب ووضع يد القراء عليها ، وإنما يقوم بتوضيحها وإبرازها وتجسيما والمبالغة فيها والتهويل من شأنها أيضاً ، وذلك على النحو الذي وضعه رائد هذا الفن الأدبي الصحفي - معاً - الأديب الصحفي الجاحظ . وعلى نحو ما فعله من كتاب الجيل السابق : عبد العزيز البشري - فكري أياظة - أحمد حافظ عوض » (٢٦) الخ .

● وفي كتاب آخر لنا أشرنا إلى هذا اللون من الكتابات الجاحظية بقولنا :

« البساطة والسهولة والظرف وخفة الروح والظل ، جميعها من لزوميات ( الجاحظ )

أكثر المجلات العامة ، ومن خصائص أساليب كتاباتها ، ومن صور طبائعها البارزة ، أو التي ينبغي أن تبرز على صفحاتها وبين سطورها - أي أن الكاريكاتير هنا ليس رسما بقلم الفنان أو ريشته والوانه ، وإنما هو مقال تعبيرى ساخر متهم ، وما أحراه بذلك أن يكون مادة هامة من مواد المجلات عامة والسياسية والأدبية والفكاهية خاصة - نعود فنقول أننا لا نعرف كاتباً تميز بها ، وأصبحت كتاباته هي المقدمة في هذه الأنواع ، وارتبطت به وارتبط بها مثل الكاتب الباحث المحقق الصحفي أبي عثمان الجاحظ ( ٣٧ ) .

•• ولعل من خلال كل ما تقدم ، يتضح لنا ، بما لا يدع مجالاً للشك ، هذا الدور الرائد للكتابات الجاحظية ، بالنسبة لهذه النوعية الأخيرة من المقالات ، ومن ثم ، فلا مجال للقول بأن هذه الكتابات تعتبر من قريبيات الشبه بمادة اليوم ، أو أنها تعتبر من مقدماتها ، فهذا القول ، أو ذاك لا يمثلان حقيقة موقع المقال الكاريكاتيرى عند أبي عثمان ، ولا أهميته التاريخية الأدبية والصحفية معا . بل الصحيح أن يقال أنه « مبتكره » وأنه « رائده » وأنه ينطبق على مثيلاته الآن ، تمام الانطباق ، بل لعل كتابات الرجل في هذا المجال ، تكون أفضل بكثير ، من العديد من تلك الكتابات الكاريكاتورية التي نطالعها اليوم ، وذلك من زاوية الحس الأدبي والصحفي والفكاهي معا ، فضلاً عن خصائص عديدة أخرى ارتبطت بها هذه المقالات ، وكانت علماً على كتابات هذا الرائد •• وحيث يأتي الآن دور التوقف عندها ، عند خصائص المقال الكاريكاتورى الجاحظي ، وذلك قبل أن ننتقل لتقديم إحدى صوره ، أو أجزاء من هذه الكتابات نفسها •

#### خصائص المقال الكاريكاتورى عند الجاحظ :

نعم •• ارتبطت مقالات الجاحظ الكاريكاتورية ، بعدة خصائص مميزة ، وملامح تعرف بها ، قبل أن نتحدث عنها ، نقول ، انطلاقاً مما سبق ، واستكمالاً له أيضاً •• أن هذه الخصائص نفسها ، ولكونها ترتبط بالمقالات الرائدة من هذه النوعية ، فإنها تمثل - حتى الآن - أبرز الأسس والمبادئ ، التي ينبغي أن يراعيها كاتب مثل هذه المقالة ، وكذا ما ينبغي أن تشملها المقالة نفسها من مضمون •• أن أهم هذه الخصائص هي :

١ - حسن اختيار الأشخاص والموضوعات والصور التي تستحق التوقف

عندها وتناولها على هذه الصورة من المقالات ، فلا بد من أن يكون هناك ذلك « الشيء » الذى يستأهل أن يكتب عنه ، وأن يتهم به ، وأن يسخر منه ، وأن تبرز تفاصيله ، وأن يجرى تجسيم عيوبه ، وتضخيم ثغراته فالمقال الفكاهى الكاريكاتورى عنده ، لا يتناول أى شيء ، ولا أى انسان وانما لابد أن يكون هناك السبب والدافع والمؤثر .

٢ - أن الضحك ، ولو أنه ركن أساسى فى المقال ، إلا أنه لم يكن الهدف الوحيد له ، وانما كانت تشابكه معه فى أحيان كثيرة ، وتنقسمه فى أحيان أخرى عدة أهداف رأى الرجل بحصافته وخبرته وحسه ، أنها يمكن أن تتحقق بهذا الأسلوب ، فهو يضمكنا من الأشخاص حتى لا يكثر أمثالهم ، ويضحكنا من الصور والمشاهد حتى تبرز ويضخم جانبها السلبى فيرعى أصحابها ، ويوجه سخريته الى النقائص والعيوب والمثالب ، فالضحك عنده أسلوب وطريقة ووسيلة فهو نوع من « النقد الاجتماعى » لا الأدبى هنا ، وكثيرا ما اتجه الى هذا المعنى ، وفى ذلك يقول أحد الذين اقتربوا من هذا الجانب ، أكثر مما اقتربنا « . . فلم تكن فكاهاته عارية عن الهدف أو فارغة من المضمون بل كثيرا ما كانت تأتى مصحوبة بالتلميح الهادف أو التعريض اللاذع ، مما يجعلها تأخذ طابع المعالجات الفكرية المحبوبة ، والتي تسمو - فى جوهرها - على اللهو الفارغ أو العبث الرخيص » .

٣ - دقة التوجه لما يتناول وبراعة تصويره مجسما : فهو - كرسام الكاريكاتير الماهر - كان يحسن التقاط ذلك الجانب فى صورة الشخص ، أو تلك الزاوية فى الموضوع ، أو هذا الركن من أركان المشكلة أو القضية ، قبل غيرها من الجوانب أو الزوايا أو الأركان الأخرى ، ثم يتوجه إليها بقلمه ، ليصورها فى براعة ، من حيث التجسيم والتكبير والمبالاة ، حتى وأن كانت هذه كلها تتصل بهيئة رجل ، أو تصرف كاتب ، أو سلوك أحد العمال . . ثم إن التصوير هنا يحسن اختيار ما يشبه به هذا العضو ، أو تلك الهيئة ، حتى يبعث على الضحك ، والضحك الكثير أيضا .

٤ - أنه لا يوجد فى الأشخاص من لا يمكن أن يناله قلمه بهذا الأسلوب ، طالما أن به ما يستحق أن يضحك منه القارئ ، وأن يتهم عليه الناس ، فلا فرق هنا بين غنى أو فقير ، أو وزير أو حقير ، فالجميع - إذا صح التعبير - سواسية أمام ذلك القلم الكاريكاتورى ، وعلى هذا فقد وجدنا أن الجاساحظ

قد تناول في مقالاته هذه بعض ذوى المناصب العليا في مجتمعه ، ولم يخش ينسهم ، ولا سطوتهم ، طالما ان قيهم هذه الزاوية التي تستأهل ، تماما كما تناول غيرهم ممن كان يحفل بهم المجتمع البصري ، والمجتمع البغدادي على عهده . . . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فقد قدم في كتابه « البخل » عدة صور لرجال نفهم منه أنهم كانوا في مرتبة الوزراء ، لكن شحهم كان الزاوية التي نفذ منها الى تناولهم ، وبالمثل رسم لنا صورة رائعة لقاضي البصرة - وكان الناس يرتعدون منه خوفا - فكان كسله هو الجانب الذي رآه جديرا بتناوله ، كما كانت أعمال والاعيب وأكاذيب بعض القصاص هي المنفذ اليهم . . . ولا تنسى أن رسالته الرائحة في « الترييح والتدوير » قصد بها اضحاك الناس من « احمد بن عبد الوهاب » وهو كاتب الديوان في عهده ، أي بمنزلة « وزير الثقافة » أو « الاعلام » أو هما معا . . . الآن ، وربما اقترب من منزلة رئيس الوزراء ، أي كان على رأس الجهاز الاداري التنفيذي بالدولة ، في عهد الخليفة العباسي الواثق ، وصحيح أنها لم تكن السخرية فقط ، وانما للرسالة جوانبها الأخرى ذات الفرائد الأدبية والعلمية ، التي جاءت ضمن سطورها ، ولكن ما كان الرجل ليكتبها الا لأنه وجد في هيئته ، ورأى في تصرفاته ما يستأهل هذا التناول الفكاهي . . . بعد أن يمر خلال البوتقة الجاحظية طبعاً ، أو يصهره ، كاريكاتوريا . . .

ومن الغريب هنا ، أن الجاحظ قد تهكم حتى على نفسه أيضاً ، وأكثر من مرة بسبب نقوء سواد عينيه ، وعندما كان يقوم ببعض الأعمال متسرعاً أو مضطراً ، وتكون نتيجتها من النوع السلبي ، أو عند تعرضه لما يستأهل ذلك . . .

٥ - براعة الوصف : فانت تقرا هذه المقالات ، أو حتى أجزاء منها ، فيدهشك حقاً ، أن يكون الرجل - والموضوع فكاهي - على هذه الدرجة الكبيرة من براعة الوصف ، خاصة وهو يركز على هذه الناحية بالذات ، أو هذا الجانب البارز من الصورة ، أو هيئة الرجل ، أو صفاته ، ليتخذ منها مدخله الى الاضحاك والتهكم والسخرية ، ثم تأخذ بك تلك التشبيهات الكثيرة والدقيقة معا ، التي تصاحب هذا التناول . . . مما أسعفته فيه موهبته العجيبة ، ومقدرته الخريبة ، على تقديم هذه الأوصاف كلها . . .

٦ - ثراء المضمون وتنوعه : وإلى جانب ذلك كله ، وعلى الرغم من أن

عنصر الفكاهة كان هو الجانب المسيطر على أمثال هذه الكتابات ، إلا أنه - شأن كل كاتب ماهر - كان يقسم خلال هذه الكتابات الجاحظية بعض ما يعكس ذلك القدر الكبير من الثقافة ، العامة واللغوية والفلسفية والتاريخية .. خلال مسطورها ، بل كان - كطريقته - يخرج أحيانا إلى بعض الجد ، أو يتناول بعض الأمور الجارية ، ممتزجة بهذه الفكاهة نفسها أو يعود إلى إطلاق النكات التي يعرفها أو سمع بها ، أو راح هو يؤلفها مما يتناسب واللحظة التي يصورها ، أو الشخصية التي يتناولها ، بل لقد كانت بعض هذه المقالات ، تحتوي على كثير من الأفكار الجانبية الجادة التي تدهش القارئ ، بل أنه - حتى في هذا الجانب - كان يغلب طريقته بالاستطراد ، والخروج من موضوع إلى موضوع ومن فكرة إلى فكرة - دون اعتداء على الشكل أو الإطار المقالى ، ومن هنا ، فقد عاشت هذه المقالات وسوف تعيش ما أراد لها الله ذلك بينما اختفت كتابات فكاهية أخرى ، ولم يبق منها شيئا ، لأنها لا تستحق البقاء ، ومن هنا أيضا .. فقد قيل عن رسالة « التزييع والتدوير » كثيرا ، حتى وصفها بعض المستشرقين - وهي نموذج للمقالة الكاريكاتورية الطويلة - بأنها « أشبه ما تكون بدائرة معارف » (٣٩) .. هكذا قال عنها البارون « كرايى فو »

٧ - واقعية اللغة وجانبيتها : وإن كنا لا نريد أن نستعمل الآن في ذلك كثيرا ، إلا أننا نشير إلى أن هذه الواقعية التعبيرية ، وإن كانت عنصرا جوهريا من عناصر كتابته كلها وعلمنا عليها خلال جميع مراحلها وأغراضها ، إلا أننا نشير إليها هنا بالذات ، لأنها تمثل جانبا من هذه الجوانب الهامة التي تؤكد عبقرية الرجل ، وزوايا مقدرته الأدبية والصحفية معا ، فأمر عاды أن يكون الرجل واقعا في لغته عندما يكتب مادة إخبارية ، أو تلك التي تقترب من التحقيقات الصحفية ، أو الأحاديث ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، ولكن إن يعود الرجل ليكتب كل هذه الملح والطرائف ، والفكاهات وحتى النكات الممتعة ، لأن المقام هو مقامها والمقال هو مقالها ، والمجال هو مجالها أيضا ، فإن ذلك - ولا ريب - يكون مبعث دهشة وأعجاب معا ، فهل يكون صاحب « الحيوان » و « البيان والتبيين » و « الاعتزال وفصله » و « أي القرآن » و « الرد على اليهود » و « الاستبداد والمشاورة في الحرب » .. وغيرها ، هو نفسه صاحب هذه الواقعية التعبيرية التي جاءت ضمن سطور كتاباته الفكاهية والكاريكاتورية ؟

ولعل ذلك يكون سببا في أنه راح يحشد لها من جوانب الجانبية

والطرافة والمتعة الذهنية الشيء الكثير ، مما أكسب هذه الكتابات شهرة منقطعة النظير ، حتى اعتبرت أفضل ما صور جـوانب عصره السلبية ، والمالجنة ، والفكهة ٠٠ معا ٠٠

٨ — ٠٠٠ وخصائص أخرى عديدة ، ارتبطت بهذه الكتابات المقسالية الكاريكاتورية الجاحظية نفسها ، لا يتسع المجال هنا لذكرها على وجه ميسر ، لكننا نشير إليها في عجالة ٠٠ ان من أبرزها :

— النزوع في بعض الأحيان الى تحدى الخصم الذى يضحك القارئ منه ، ودعوته الى نزاله ٠٠

— تقديم بعض المحاورات الفكهة التى تثرى المضمون ، وتزيد من جرعة الاضحاك ٠٠

— حسن اختيار اللحظة والموقع من المقال الذى يقدم فيه جوانب التجسيم والتهويل ، أو جوانب السخرية المباشرة ، أو جوانب النكتة المؤلفة ، أو التى ترد على ذهنه ٠٠

— الاستعانة دائما بالقصص القصيرة والاقاصيص والمادة الاخبارية التى تتصل بهذه الشخصيات ومواقفها وتصرفاتها ، وحسن صياغتها في أسلوب قصصى وفكه معا ٠

— الوضوح الكامل الذى يعين على الفهم السريع والاستمتاع بجوانب مقالته الكاريكاتورية والتى تدخل الى عقل القارئ من أقصر طريق ٠

— تقديم ما يعكس ظرفه وخفة ظله ، وما يصور طابع المرح الذى يتمتع به الرجل من آن لآخر ، وبطريقة محببة ، يقبل عليها القراء ، دون مبالغة أو ادعاء أو تكرار ممل ٠٠

— الإشارة الى القارئ ببعض جوانب المبالغة المستعصية فى ذلك الذى ينقله عن آخرين الى غير هذه كلها من خصائص ومعالم وأساليب كتابية ٠٠

وقيل ان نقدم مختارات مختصرة من هذه المادة المقالة الكاريكاتورية ،  
نشير الى أنها - موضوعا - تناولت هؤلاء جميعا : ( فى جوانب المسلب  
والاضحاك عندهم ) .

( المعلمون للصناعات المختلفة - البحريون - البخل - الاخباريون -  
القصاص - الوعاظ - الحمقى - الكتاب - الطفيلون - الادعياء - فكاهاات  
بدوية - مقارقات عن الجوارى والعلمان - المتناظرون ) . وذلك كله الى  
جانب شتى الموضوعات الأخرى ، التى امتدت اليها كتاباته .

. . . وقد كان من هذه الكتابات كلها وعلى سبيل المثال لا الحصر  
« مختارات فقط » .

● ● مقال من الجزء الثالث من « الحيوان » . . عن « النبان » أو  
الحاح النباب على « قاضى البصرة » . . جاء فيه قوله :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكما  
قط زمينا ، ولا ركينا ، ولا وقورا حلما ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته  
مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من  
مسجده فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يتكىء . فلا يزال منتصباً لا يتحرك له  
عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حيوته ، ولا يحل رجلا على رجل ، ولا يعتمد على  
أحد شقيه ، حتى كأنه بناء بنى أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى  
يقوم الى صلاة الظهر . ثم يعود الى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم  
الى العصر . ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب . ثم  
ربما عاد الى محله ، بل كثيرا ما كان يكون ذلك ، اذا بقى عليه من قراءة  
العهود والشروط والوثائق . ثم يصلى العشاء ، وينصرف . فالحق يقال :  
لم يقم فى طول تلك المدة والولاية ، مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ،  
ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى  
قصارها وفى صيفها وفى شتائها . وكان مع ذلك ، لا يحرك يده ولا يشسير  
برأسه ، وليس الا أن يتكلم . »

فبينما هو كذلك ، ذات يوم ، وأصحابه حواليه ، وفى السماطين بين  
يديه ، ان سقط على أنفه ذباب . فأطال المكث ، ثم تصول الى مؤق عينه .  
فراى الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاد خرطومه ، كما رام من

الصير على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته ، أو يخفض وجهه ،  
أو يذب بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله ، وأوجعه ، وأحرقه ،  
وقصد الى مكان لا يحتمل التناقل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ،  
فلم يتهض . فدعاه ذلك الى أن يوالى بين الاطباق والفتح . فتنحى ريثما سكن  
جفنه . ثم عاد الى مؤقه بأشد من مرته الأولى ، فغمص خرطومعه فى مكان كان  
قد أوهاه قبل ذلك . فكان احتمالاه أضعف وعجزه عن الصير فى الثانية  
أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد فى شدة الحركة ، والمخ فى فتح العين ، وفى  
تتابع الفتح والاطباق . فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته . ثم عاد الى  
موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صيره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدا  
من أن ينسحب عن عينيه بيده ففعل ، وعيون القوم اليه ، ترمقه ، وكأنهم لا  
يروونه . فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته . ثم عاد الى موضعه .  
ثم الجأ الى أن نذب عن وجهه بطرف كفه . ثم الجأ الى أن تابع بين ذلك ،  
وعلم أن فعله كله يعين من حضره من أمثاله وجلسائه . فلما نظروا اليه  
قال : « أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء ، وأزهى من الغراب . وأستغفر  
الله ! فما أكثر من أعجيبته نفسه فأراد الله ، عز وجل ، أن يعرفه من ضعفه  
ما كان عنه مستورا ! وقد علمت أنى عند نفسى من أضعف الناس ، فقد غلبنى  
وقضدنى أضعف خلقه » . ثم تلا قوله تعالى : « وإن يسلبهم الذباب شيئا  
لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ! » وكان بين اللسان قليل فضول  
الكلام ، وكان مهيبا فى أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه فى نفسه ولا  
فى تعريض أصحابه للمثالة ، ( ٤٠ ) .

● ● وعن الموضوع نفسه ، ومما يتصل بكاتبنا هو شخصيا ، نقرأ  
هذا الجزء من مقاله يصف فيها واقعة حدثت له مع الذباب أيضا :

فأما الذى أصابنى أنا من الذبان ، فأنى خرجت أمشى من عند ابن المبارك  
أريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابة . فمررت فى عشب وثبات ملتف كثير  
الذبان ، فسقط ذباب من ذلك الذبان على أنفى . فطردته ، فتحول الى عيني .  
فزدت فى تحريك يدي . فتنحى عني بقدر شدة حركتي وذبي عن عيني -  
والذبان الكلا والعياض والرياض وقع ليس لغيرها - ثم عاد الى ، فعمست  
عليه . ثم عاد ، فعدت بأشد من ذلك . فلما عاد استعملت كمي . فذبيت به  
عن وجهي . ثم عاد ، وأنا فى ذلك أحث السير ، أومل بسرعتي انقطاعه عني

فلما عاد نزع طيلسانى من عنقى ، فذبيت به عنى بدل كسى . فلما عاود . ولم أجد له حيلة ، استعملت العدى ، فعدوت من شوطا لم تكلف مثله مذ كنت صبييا . فتلقانى الأندلسى فقال لى . « مالك . يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ » فقلت : « نعم ! أريد أن أخرج من موضع للذبان على فيه سلطان » . فضحك حتى جلس . وانقطع عنى . وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تباعد جدا (٤١) .

● ● ... ولا نترك هذا المجال تماما ، دون الإشارة الى جزء قليل ، من كم كبير ، ورد ضمن صفحات كتابه « البخلاء » مما يتصل بهذا المجال أيضا ، ومما أتبع فيه أسلوب « المحاوراة الفكاهية » . انه مقاله عن « تمام ابن جعفر » . أحد البخلاء المعبودين فى عصر الجاحظ :

« كان تمام بن جعفر بخيلا على الطعام ، مفرط البخل ، وكان يقبل على كل من أكل خبزاه بكل علة ، ويطلبه بكل طائفة ، وحتى ربما استخرج عليه انه كان حلال الدم ، وكان ان قال له خديم : ما فى الأرض أحد أمشى منى ، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضر منى ، قال : وما يمنعك من ذلك وانت تأكل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل الا البطن ؟ لا حمد الله من يحمك . »

فان قال : لا والله ان أقدر أن أمشى لأنى اضعف الخلق عنه ، وأنى لا تبهر من مشى ثلاثين خطوة ، قال : وكيف تمشى وقد جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمالا ؟ وهل ينطلق الناس الا مع خفة الأكل ؟ وأى بطين يقدر على على الحركة ، وان الكفيل ليعجز عن الركوع والسجود فكيف بالمشى الكثير ؟ فان شكك ضرسه وقال : ما نمت البارحة مع وجعه وضرباته ، قال : عجبت كيف اشتكيت واحدا ولم تشكك الجميع ؟ وكيف بقيت الى اليوم فى فيك حاكاة ؟ وأى ضرس يقوى على الضرس والطحن ؟ ... فان قال : والله ان أروى من الماء ، وما أظن أن فى الدنيا أحدا أشرب منى للماء . قال : لا بد للتراب من ماء ، ولا بد للطين من ماء يبلله ويرويه ، أو ليست الحاجة على قدر كثرته وقلته . والله لو شربت ماء الفرات ما استكثرتك لك ، مع ما أرى من شدة أكلك وعظم لقمك .

فان قال : ما شربت اليوم ماء البقرة ، وما شربت أمس بمقدار نصف رطل ، وما فى الأرض انسان أقل حنى شربا للماء ، قال : لأنك لا تدع لشرب

الماء موضعاً ، ولأنك تكتنز في جوفك كنزاً لا يجد الماء معه مدخلا فان قال :  
ما أنام الليل كله وقد أهلكني الأرق . قال : وتدعك الكظة والنفخة والقرقرة  
أن تنام ؟

فان قال : ما هو إلا أن أضبع رأسي فانما أنا حجر ملقى الى الصبح .  
قال ، ذلك لأن الطعام يسكر ويخدر ويختل وييل الدماغ وييل العروق ويسترخي  
عليه جميع البدن ، ولو كان في الحق لكان ينبغي أن تنام الليل والنهار ، (٤٢)

● ● ... وأخيراً ، وقبل أن ننقل الى نوعية أخرى من أنواع هذه  
المقالات ، نقدم طرفاً من رسالته « الترييع والتدوير » . ليعود اليها من يشاء  
وحيث تتمثل فيها هذه الخصائص المقالة الكاريكاتورية الجاحظية مجتمعة .  
ومن ثم فمن غير المعقول ألا ننقل عنها هذه السطور القليلة :

« أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك . قد علمت ، حفظك الله ،  
أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة ، وضخم الهامة ، وعلى حور  
العين وجودة القد ، وعلى طيب الأحبوثة والصنيعة المشكورة . وأن هذه  
الأمور هي خصائصك التي بها تكلف ، ومعانيك التي بها تلهج . وبعد ،  
أبقاك الله فأنت في يدك قياس لا يتكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك حد لا يقل ،  
وغرب لا يتخنى ، وهو قياسك الذي اليه تنسب ، ومذهبك الذي اليه تذهب ، أن  
تقول : وما على أن رأي الناس عريضا وأكون في حكمهم غليظا ، وأنا عند  
الله طويل جميل ، وفي الحقيقة مقدود رشيق . وقد علموا ، أبقاك الله ، أن لك  
مع طول الباد راكبا طول الظهر جالسا . ولكن بينهم فيك إذا قمت اختلاف ،  
وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل ، ومن غريب ما أعطيت وبيع ما أوتيت أنا  
لم تر مقدودا واسع الجفيرة غيرك ، ولا رشيقا مستفيض الخاسرة سواك ،  
فأنت المديد . وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب . فيا شعرا جمع  
الأعاريض ، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول ! بل ما يهمك من أقاريلهم  
ويتعاضدك من اختلافهم ، والراسخون في العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن  
استقاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك  
عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا . ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في  
عرضك ، وإذا قد سلموا لك بالرغم شطرا ومنعوك بالظلم شطرا . فقد حصلت  
ما سلموا وأنت على دعواك فيما لم يسلموا . ولعمري أن العيون لتخطيء

وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن • وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل ، اذ كان زماما على الأعضاء وعيارا على الحواس ••

وبعد حديث طويل على هذا النسق يوجه الجاحظ الى خصمه أسند واليك بعضها منها : « وهي من أصل مائة مسألة »

خبرني عن معنى الفرات على حقه وصدق ، وعن نضوب البحر وعن تنقص الأرض • ولم عمل الفلك في هذا العالم وليس بينهما شبه ، وهلا عمل فيه بقدره منه ، وهل يجوز أن يعمل شيء في شيء الا والآخر يعمل فيه؟ وخبرني مذكم كان الناس أمة واحدة ، ولغاتهم متساوية ؟ وبعد كم بطن أسود الزنجي وأبيض الصقلي ؟ ولم صار اللون أسرع تنقضا من الجمود ؟ ولم كان الولد يجيء على شبه ما في أبيه من الأمور الحادثة في بدنه عن غير القديمة في أصل تركيبه ، ومع ذلك لم يولد صبي قط في العرب مجنونا ••

جعلت فداك أيما أطول عمرا الناس ، أم غير العانة ، أم الحية ، أم الضب ، ومتى تستغنى الحية عن الغذاء ، ومتى ينتفع الضب بالتنسيم ! « (٤٢)

● ● حتى نصل الى هذه النوعية الأخيرة من المادة الجاحظية ، تلك التي كان لها وضعها الخاص بالنسبة لمثيلاتها من مقالات اليوم ، فبينما نجد بعضها يبتعد عن إحدى نوعياتها الحديثة ، نجد البعض الآخر وهو يقترب كثيرا من نوعية أخرى ، من هذه النوعيات التي تعرفها صحافة اليوم ••• وهكذا اختلفت أوضاعها قريبا أو بعدا من هذه المادة •• على أن أهم فصائل هذه النوعية هي :

#### ( ١ ) المقال الافتتاحي أو « الافتتاحية » :

لو رحنا نبحث عن « المقال الافتتاحي » •• في كتابات الجاحظ ، فأننا دون شك سوف نجد أنه يتجاذبنا شعوران ، أو يأخذ بنا احساسان ، يقومان على ملاحظة هامة •• تلك هي أنه اذا كنا نقصد المقال الافتتاحي الحسديث، بالصورة التي تعرفها الصحف والمجلات اليوم ، وجميع خصائصه المرتبطة به ، أو أكثرها — على الأقل — فان مطلبنا يكون عسيرا بعض الشيء ، وذلك لاختلاف الظروف والأحوال والطبائع ، ولكن اذا كنا نريد هذه « الفواتح »

أو « المداخل » التي تشبه مقدمات الكتب أو الرسائل ، فسوف نجد الكثير منها  
مما يزخر به التراث الابداعي الكتابي الجاحظي ٠٠

ومن هنا نقول :

( ١ ) أنه إذا كنا نقصد بالمقال الاقتتاحي أنه وكما نعرف : « المقال الذي  
يحمل رأى الصحيفة أو المجلة وموقفها من القضايا والمشكلات والاتجاهات  
الهامة داخلية وخارجية » (٤٤) ٠٠ أو أنه « المادة التحريرية الهامة التي  
تنشر يوميا أو أسبوعيا محددة موقف الصحيفة أو المجلة من القضايا الهامة،  
والمشكلات والمواقف والأفكار التي تتصل بمجتمع ما أو المجتمع الانساني ،  
والتي تنشر تحت عنوان ثابت وغفلا من التوقيع باسم كاتبها وفي مكان بارز  
وثابت في أكثر الأحوال » (٤٥) ٠٠ « ٠٠٠٠٠ » وأنه لا يوقع باسم محرره  
لأنه لسان حال الصحيفة » (٤٦) ٠٠ أو كنا نقصد هذا الذي تطلع به علينا  
الصحف والمجلات مراعية في تحريره ونشره خصائص عديدة من بينها :

- النشر اليومي أو الأسبوعي الدائم تحت عنوان لاقتى ثابت ودال .
- تعدد الكتاب وتنوعهم .

— الارتباط الكامل بسياسة وسيلة النشر وما يتصل بذلك من التعبير  
عن رأى الصحيفة ، ووجهة نظرها ، وما أسفر عنه ذلك من اتجاهات عديدة  
واجراءات مختلفة .

- عدم التوقيع باسم المحرر ، بل الصحيفة ، كوسيلة اتصال .
- الجودة الزمنية الكاملة ، والارتباط بمادة حديثة ساخنة وملتهبة .
- المكان والحجم المحدد تقريبا وفي أغلب الأحوال ٠٠
- التوفيق بين سياسة الصحيفة والصياغة واهتمام القراء وصالح  
الوطن والانسانية .

٠٠ إذا كنا نقصد هذه النوعية ، فأننا نقول أن الكتابات الجاحظية لم  
تعرفها وليس لنا ادعاء ذلك ، أو الزعم بهذه المعرفة ٠٠ وواضح أن أسباب  
هذه الحالة تتصل بالمطابع الصحفي الحديث والكامل ، والذي أسفر عن وجود  
هذه النوعية من المقالات لاسيما هذه الأسباب : « تعقد الحياة وتشابك

المشكلات والتوتر السياسى القائم وحاجة القراء الى الشرح والتفسير والمساعدة على اتخاذ المواقف وايجاد رأى عام فى مواجهة المشكلات الداخلية وخارجية وانتظار رأى الصحيفة المعاون للقارئ فى كل ذلك . . . . الخ . . .

ان رجلنا ، لم يكن يكتب فى صحيفة يومية أو اسبوعية ، ليعبر عنها ، ولم تكن الحياة بكل هذا التعقيد والتشابك والتوتر القائم وصراعات الحدود والحروب الداخلية والأزمات الاقتصادية والسياسية ولم يكن هناك القارئ الفزع الذى ينشد المعرفة الكاملة لما يدور حوله ، أو ينشد الخلاص الى غير ذلك كله ، فضلا عن الاتجاهات الصحفية الجديدة التى لم يعرفها الجاحظ ولا عصره . . ومن ثم لم يعرف ما يرتبط بها من اجراءات وتنظيمات تهدف فى النهاية الى أن تصل هذه المادة قبل غيرها الى القارئ فى سهولة ويسر ، وأن تقع تحت بصره دائما ، حتى تقوم بدورها ، وتحقق الهدف من وجودها . .

#### هذه واحدة . .

( ب ) وأما اذا تجاوزنا عن ذلك كله - خاصة الاتجاهات والمطالب والأساليب العصرية - ونظرنا الى هذه المقالة نفس نظرتنا الى مقدمات الكتب وفواتحها . بل ونظرنا الى بعض أنواع هذه المقالات نفسها لاسيما « المقال الافتتاحى المهين » وبتركيز شديد على بعض أنواع « مقالات المجلة » الافتتاحية ، لوجدنا أننا نقترب أكثر من خطوة واحدة من النتاج الجاحظ فى مثل هذه المجالات . . ولكن كيف ؟

ان أكثر ما كتبه الجاحظ رأيناه يقدم له ، أو يفتتحه بعدة سطور اختلفت أطوالها من مادة لأخرى ، لكنها فى أحوال غير قليلة أيضا كانت « فى مجموعها » .

- ذات صلة وثيقة وأساسية بمضمون المادة التى تفتتح بها .
- تقدم بعض ما يتصل بها من مصادر أو أشخاص .
- تلفت النظر الى أهميتها .

— تتحدث عن بعض الكتابات السابقة في نفس الموضوع له أو لغيره .

— وقد تحيل القارئ الى هذه الكتابات .

— وقد تتحدث عن بعض الجهد الذي بذله في الحصول عليها لاسيما ان كانت تقتل بانتقاله الى أماكن أخرى .

— أو تنبه الى بعض « المثالب » أو « الثغرات » وتقسم بعض « المحاذير » .

— وقد تتضمن ذلك الاهداء الى شخص ما وما يتصل به .

— وكثيرا ما تضمنت السبب الرئيسى لكتابتها .

— وربما الاعتذار عن أى تقصير يبدو خلال سطورها .

الى غير ذلك كله ، من أفكار وقضايا . نعود فنقول بشأنها انها — بصرف النظر عن العنوانات خاصة الاشارية الافتتاحية والثابتة ، وعن التوقيع ، وعن تتابع الصدور ، وما يتصل بعد ذلك بالتعبير عن سياسة المجلة ، أو الصحيفة الأسبوعية نقول انها تقترب أكثر من خطوة من ذلك النوع من أنواع المقالات الافتتاحية التى تعرفها المجلات أولا ، والصحف الأسبوعية ثانيا ثم اليومية فى أحوال قليلة جدا ، والتى تركز على إحدى هذه الأفكار أو الموضوعات : « تجربة مثيرة لحرر — مشكلة مادية أو فنية واجهت صدور العدد — موضوع يتصل بصدور هذا العدد — قصة حصول محرر على سبق صحفى منشور بنقص العدد — خطاب هام من قارئ — خطاب هام من المحرر الى القارئ بشأن مادة ما ، أو تطوير ما أو ما شابه ذلك . . . الخ » .

.. كل ذلك اقتربت « الافتتاحيات الجاحظية » منه .. فإذا علمنا أن الرجل قد قدم للمكتبة العربية ما يزيد على ثلاثمائة مصنف ، بعضها فى أكثر

من كتاب أو جزء أو نسخة وكثير منها ارتفعت فوقه تقدم له مثل هذه الفاتحة ، ٠٠ وبحسبة بسيطة ومن خلال مقالات المجلات الافتتاحية ، أو هذا النوع من أنواعها على وجه التحديد ، لوجدنا أن النتاج الجاحظ في هذا السبيل كان يتسع ليطغى افتتاحيات عدة أعوام كاملة لا تقل بحال عن أربعة أعوام ، من أعداد هذه المجلات ( ٥٢ افتتاحية سنويا ) ٠٠ هذا كله مع علمنا بأن بعض هذه المجلات الحديثة لا تنشر افتتاحية واحدة من هذا النوع في جميع الأحوال ، وإنما تنشر إلى جوارها أحيانا ، افتتاحية عادية كآية افتتاحية أخرى ٠٠ فإذا كانت لمجلة شهرية فإن ما نشره الحاحظ يغطي افتتاحيات أعداد ما يزيد على ٢٥ سنة منها !

وكان من بين هذه المقسمات والفوائج الجاحظية ، التي تقرب من هذه المقالات الافتتاحية للمجلات والصحف الأسبوعية ، خاصة دوريات التخصص العام ، ما يلي :

« ولعل هذا الجزء الذي نبتدىء فيه بذكر مالتا في الحشرات والهمج ، أن يفضل من ورقة شيء ، فرقعته ونتمه بجملته القول في الظباء والذئاب ، فأنهما بابان يقصران عن الطوال ويزيدان عن القصار ٠٠

وقد بقي من الأبواب المتوسطة والمقتصدة المعتدلة ، التي قد أخذت من القصر لمن طلب القصر بحظ ، ومن الطول لمن طلب الطول بحظ ، وهو القول في البقر والقول في الحمير والقول في كيار السباع وأشرافها ورؤسائها وذوى النباهة منها كالأسد والنمر والبير وأشباه ذلك — وسنذكر تسالم المتسالة منها ، وتعادى المتعادية منها — وقد شاهدنا غير هذه الاجناس يكون تعاديا من قبل هذه الأمور التي ذكرناها ، وليس فيما بين هذه السباع بأعيانها تفاوت في الشدة ، فتكون كالأسد الذي يطلب الفهد ليأكله والفهد لا يطمع ولا يأكله ، فوجدنا التكافؤ في القوة والآلة من أسباب التقاسد ٠٠٠ وسنذكر علة التسالم وعلة التعادى ، ولم طبعنا رؤساء السباع على الغفلة. وبعض ما يدخل في باب الكرم — ولم نذكر بحمد الله تعالى شيئا في هذه الغرائب ، وطريقة من هذه الطرائف ، إلا ومعها شاهد من كتاب منزل ، أو حديث مأثور ، أو خبر مستفيض ، أو شعر معروف ، أو مثل مضروب ، أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب ، ومن قد أكثر قراءة الكتب ، أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحارى واستدري بالهضاب ودخل

فى الغياض ومشى فى بطون الأودية — ونحن حفظك الله إذا استنطقنا الشاهد  
وأحلنا على التل ، فالخصومة حيثئذ إنما هى بينهم وبينها ، إذ كنا نحن لم  
نستشهد إلا بما ذكرنا ، وفيما ذكرنا مقنع عند علمائنا ، إلا أن يكون شيء  
يثبت بالقياس ، أو يبطل بالقياس ، فواضع الكتاب ضامن لتخليصه وتلخيصه،  
ولتثبيته وإظهار حجته ، (٤٧) .

### هوامش الفصل الخامس :

- (١) محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحرير الصحفي العام » ص ٧٠ ، ٧١ .
- (٢) أحمد بن علي المقرئ القيومي : « المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي » ص ١٧١ .
- (٣) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : « مختار الصحاح » ص ١٢٥ .
- (٤) أجلال خليفة : « اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي » ج ١ ص ٢٥ .
- (٥) C.H. Brown : "Informing the people" p. 205
- (٦) H.M. Patterson : "Writing and Selling Feature Articles" p. 61.
- (٧) محمود أدهم : « المدخل في فن الحديث الصحفي » ص ٤٠ .
- (٨) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ١ ص ١١٢ .
- (٩) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ٤ ص ١٠٢ .
- (١٠) محمود أدهم : « التحقيق الصحفي » ص ٢٤ .
- (١١) محمود أدهم : « فن تحرير التحقيق الصحفي » ص ٨ ، نقلا عن H.M. Patterson
- (١٢) دافيد بوتر ، ترجمة محمد مصطفى غنيم : « مخبر والصحف » ص ٢٣ .
- (١٣) ف. فريزر بوتند ، ترجمة راجي صهيون : « مدخل إلى الصحافة » ص ٢٠٧ .
- (١٤) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٠ - ١٦١ .
- (١٥) محمود حسين أدهم : « فن التحقيق الصحفي الصور » رسالة ماجستير في الصحافة طبعت بعض أجزاءها ، المجلد الثاني ، ص ١٠٤٠ .
- (١٦ - ١٧) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » ص ٧٥/٧٦ .
- (١٨) حسين سعيد وآخرون : « الموسوعة الثقافية » ص ٩٣٥ .
- (١٩) نبيل راغب : « دليل الناقد الأدبي » ص ١٨٩ .
- (٢٠) تعريف معجم « لاروس » .
- (٢١) تعريف دائرة المعارف البريطانية .
- (٢٢) محمود أدهم : « المقال الصحفي » ص ١٢ نقلا عن « أحمد رسدي صالح » .
- (٢٣) المصدر السابق ، ص ١٤ ، أحد التعريفات الخاصة بالمؤلف .
- (٢٤) المصدر السابق ص ٤٤ .

( الجاحظ )

- (٢٥ - ٢٦) أجلال خليفة : « اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي »  
ص ١١٤ - ١١٨ .
- (٢٧) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ١ صفحات متعددة .
- (٢٨) شوقي ضيف : « النقد » ص ٩ .
- (٢٩) أحمد يوسف محمد خليفة : « نشأة النقد الأدبي حتى نهاية القرن الأول الهجري » ص ٩ .
- (٣٠) شوقي ضيف : « النقد » ص ٥٧ .
- (٣١) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » ص ١٢٠  
نقلا عن « كتاب الحيوان » .
- (٣٢ - ٣٣) عبد اللطيف حمزة : « المدخل في فن التحرير الصحفي »  
ص ٢٥٢ .
- (٣٤ - ٣٥) توفيق الحكيم ، حديث الثلاثاء - في الوقت الضائع -  
جريدة الأهرام ، العدد الصادر في ٢٢ يناير ١٩٨٥ + أنظر له أيضا : « فن  
الأدب » ص ٢٣ .
- (٣٦) محمود أدهم : « المقال الصحفي » ص ١٨٥ .
- (٣٧) محمود أدهم : « التعريف بالمجلة » ص ١٩٧ ، ١٩٩ .
- (٣٨) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » ص ٥ .
- (٣٩) المصدر السابق ص ١١٢ .
- (٤٠ - ٤١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ٣ ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ .
- (٤٢) الجاحظ « البخل » ص ١١٦ .
- (٤٣) الجاحظ : « الترييع والتدوير » تحقيق فوزى عطوى ص ٩  
وما بعدها .
- (٤٤ - ٤٥ - ٤٦) محمود أدهم : « المقال الصحفي » ص ٥٩ .
- (٤٧) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ٦ ، ص ١١ .

**الفصل السادس**

**عن**

**الأسلوب الجاحظي**

**« الجاحظ ولغة الصحافة »**



بعد هذه الرحلة الطويلة ، مع « النتائج الجاحظي » المتعدد الألوان والأشكال ، وعلى أثر تقديمنا لهذه الشواهد العديدة ، على أن للرجل جانبه الصحفي ، أو ذلك الجانب الذي يمكن النظر إليه من زاوية صحفية ، فلا نجد بعيدا عن « صحافة اليوم » بموادها وأعطائها وفتونها التحريرية .. وبعد أن اقمنا الجسور بين هذا النتاج الذي اعتبرنا بعضه ألبا صحفيا ، وبعضه الثاني بمثابة جذور لفنون التحرير ، وبعضه الثالث بمثابة طلائع متقدمة لها ، بينما انطبق بعضها الرابع عليها تمام الانطباق ، لاسيما من زاوية المقال الصحفي .. وهو ما سبق به أدباء عصره ، والعصور السابقة عليه فجاز أن يكون بذلك كله أول الصحفيين الذين عرفتهم لغة العرب .

بعد هذه الرحلة الطويلة ، يكون علينا أن نتوقف مرة أخرى - ولا أقول أنها الأخيرة - عند جانب آخر من تلك الجوانب التي عرف بها الرجل ، وارتبطت به وبأدبه ارتباطا وثيقا .. لنرى ماذا تعنى ملامحها ومعالمها وصورها وشواهدا ، بالنسبة لهذا الجانب الصحفي من جوانب الرجل ، من ناحية ؟ وبالنسبة للصحافة نفسها من ناحية أخرى ؟ قلعلها - بما يمكن أن نتوصل إليه بشأنها - تقدم دليلا جديدا ، مقيدا ، يؤيد هذه الدعوى ، ويقف الى جوار الأدلة السابقة ، في مجموعها ، التي تشير الى « الجاحظ » من زاوية صحفية .. أو - على الجانب الآخر - ترفض هذه الزاوية ، وتقدم دليلا مختلفا ، أو يقلب ما توصلنا إليه حتى الآن ، رأسا على عقب ، ويصير بذلك علينا ، وليس لنا ..

أما هذا الجانب الذي قد يكون عاملا مؤيدا ، بنفس الدرجة التي قد يكون فيها عاملا معارضا ، أو ربما يكون هذا العامل الأخير .. فهو ما نطلق عليه تعبير « الأسلوب » وعن هذا الجانب ، أو العامل ، أو العنصر نقول :

### أولا - الأسلوب : ماذا يعنى ؟

وبطبيعة الحال فأننا لن نقفز الى « الأسلوب الجاحظي » مرة واحدة .. وإنما ومن زاوية تعريفية ، سنعرق طريقنا إليه بعدد من « المحطات » الصغيرة ، التي تعطى للقارئ فكرة سريعة عنه ، تقود بدورها الى الهدف المنشود : الأسلوب الجاحظي بين الأسلوب الأدبي ، والأسلوب الاعلامي الصحفي ..

ولعل « المحطة » الأولى التي ينبغي أن نتوقف عندها ، هي تلك التي تجيب فيها على سؤال يقول : ما الأسلوب ؟ .. وذلك من خلال جولة مع أصحاب هذا الجانب ، وأمله ، ومتخصصيه ..

● .. إن هناك شبه إجماع على أن الأسلوب هو طريقة معينة في التفكير والتعبير حسب مقتضى الحال .

● وإن أحد رواد هذا الفن يقول أن الأسلوب هو : « طريقة التفكير والتصوير والتعبير » (١) .. ويضيف قائلا : « أن أبرز صفاته ترجع إلى ثلاث : أولا الوضوح ، ثانيا القوة بقصد التأثير ، ثالثا الجمال لعقد الامتاع والسرور » (٢) .. ويقول آخرون أن الأسلوب هو الطريق والمذهب ، وهو اللفظ والمعنى والقدرة على تقديمهما في أحسن صورة ..

ويقيني أن الجانب الأول من ذلك التعريف ، يصدق تماما بالنسبة لأي أسلوب كان أو أي مستوى تعبيرى ، ومن بين ما يصدق عليها .. الأسلوب الصحفى ، أو المستوى التعبيري الصحفى ..

لكن بالنسبة لهذا الجانب الثانى ، الذى أورد فيه هذا الرائد خصائص الأسلوب ، فأننى أستطيع أن أزعم أنه كان يقصد الأسلوب الأدبى ، أو بلاغة التعبير الأدبى ، أو المستوى الأدبى من التعبير ، قبل أن يقصد غيره ..

.. ومن هنا ، وإذا صح اتخاذ هذه المحطة « التفسيرية » لعنى الأسلوب ، كمنطلق لنا ، فأننا لابد أن نشير إلى جوانب أخرى هامة ، تتصل بموضوعها عن قرب ، وبموضوعنا أيضا .. الأسلوب الجاحظى .. لعمل فى مقدمتها :

### ● ما يتصل بمستويات التعبير من حيث هي :

فنحن نعرف أن هناك ثلاثة مستويات تعبيرية ، تختلف فى موقفها ونظرتها إلى المادة ، وفى لغتها وأساليبها ، وبلاغتها ، ويلاحظ ذلك .. كل الملاحظة .. هؤلاء الذين يتصدون للكتابة .. أو « يتعاطونها » على حد قول الكاتبين فى عصر الرجل موضوع حديثنا .. وعموما ، فنحن نترك رائدا من رواد الصحافة يتحدث عن هذه المستويات بنفسها .. « عبد اللطيف حمزة .. استمع إليه وهو يقول ، أن هذه المستويات هي :

« المستوى الأدبي : وهو المستوى الذى يقف فيه الأدباء للتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم وتجاربهم الانسانية بوجه عام ، ولهم فى هذا التعبير طرائق تختلف باختلاف الأشخاص ، واختلاف العصور واختلاف البيئات ..

**والمستوى العلمى :** الذى يقف فيه العلماء ليعبروا عن الحقائق العلمية. سواء اكان ذلك فى العلوم الكونية ، أم التاريخية أم الأدبية ، وهم فى هذا التعبير يلتزمون لغة تمتاز بالوضوح واستخدام الألفاظ التى تكون على قدر المعانى ، واصطناع المصطلحات التى اتفق عليها اهل كل علم من هذه العلوم على حدة ، ومعنى ذلك أن العلم مادته الحقائق وحدها فى حين ان الأدب مادته العواطف والصور والأمثلة ..

**والمستوى العملى :** .. وهو المستوى الذى يقف فيه الصحافى لينقل للناس اخبار البيئة التى يعيشون فيها والبيئات التى يتصلون بها وليقوم للناس بتفسير هذه الاخبار فى أثناء نقلها وبعد نقلها وذلك عن طريق التعليق عليها ، والاستتارة بأراء الممتازين من القراء فى بعضها وهو فى سبيل ذلك يستخدم لغة عملية يفهمها القراء ، ولا يشترط فيها ما يشترط فى لغة الأدب من خيال أو جمال أو ما يشترط فى لغة العلم من دقة باللغة فى تحسيد معانى الألفاظ ، (٢) .

.. اقول ، نحن مع هذا الرائد جملة فى تقسيمه هذا ، وإن كنا لمنا معه تماما أو بنفس القدر فى بعض التفاصيل .. خاصة :

— وهو يجعل كل مستوى من هذه المستويات كلا كاملا بحيث تصدق هذه الخصائص على جميع الفنون الأدبية ، أو العلمية أو الصحفية بنفس الدرجة .

— وهو يكاد يجرد النوعين الاخيرين من أن تتمتع بعض انماطها ببعض صور ولسات الفن والجمال ، أو يجعلها بلا بلاغة أو يعثرها الجفاف دائما مع أن لكل منهما بلاغته المرتبطة به .

— وهو يكاد يقصر أو يركز المستوى العلمى على الصحافة وحدها، مع أن له صورته العديدة ، التعاملية ، و ، الوظيفية ، التى يعرفها العاملون فى كل مجال .

— وحتى وهو يقصر المستوى العملى على الجانب الصحفى وحده، فإننا نراه يكاد يركز تركيزا شديدا على ما يتصل بلغة الأخبار أولا والمزاد أو الأتماط الوثيقة الصلة بها ثانيا . .

ذلك كله ، بينما هذا المستوى الأخير ينقسم الى أكثر من مستوى فرعى، أو قسم على النحو الذى سوف توضحه فقرة قادمة باذن الله . .

ولكنه — على الرغم من ذلك — يبقى تقسيما طيبا ومعقولا ، لا يتبقى بالنسبة لنا ، الا أن نعود فنوضح ، أين يقف الأسلوب الجاحظى منه ؟

#### ● ما يتصل بكتابات الرجل ، وهذه المستويات :

نعم : أين يقف الأسلوب الجاحظى ، أو — بطريقة أخرى — المستوى اليبائى التعبيرى الجاحظى — من هذه المستويات السابقة كلها ؟

اننا — والحق يقال — لتعلو وجوهنا الدهشة الكاملة ، وربما « تجحظه عيوننا أيضا . . عندما نتأكد من أنه كان للرجل ذلك الموقع الفريد الذى يقفه — بلغته وأساليب كتابته — من هذه النوعية السابقة فى مجموعها . . والذى أزعج أنه لم يشاركه فيه كاتب آخر فى عصره ، وفى مجتمع العباسيين من جانب ، ومن جانب آخر نجد أن هذا الموقع الفريد من هذه المستويات تقترب به تماما من مواقع « الكتاب الصحفيين » الذين نقرأ لهم الآن . . ولكن كيف؟

● فى البداية نقول أن الرجل قد حطم سبه قاعدة تاريخية أدبية ، أو من قواعد التاريخ الأدبى ، أو تاريخ التحرير ، يعترف بها عدد كبير من الكتاب ، هذه القاعدة هى التى عبر عنها الرائد المسابق نفسه بقوله : « . . ولعلنا حين نتمعن النظر فى تاريخ الكتابة الفنية ، فى أية أمة من الأمم نجد أنها تمر بالمستوى الأدبى أولا ، فالمستوى العلمى ثانيا ، فالمستوى الصحفى فى نهاية الأمر . . . فى الأول تكون الكتابة ذاتية ، لأنها أدبية ، وفى الثانى تكون الكتابة موضوعية لأنها علمية ، وفى الثالث تكون الكتابة عملية لأنها صحفية ، (٤) » .

.. ويضيف الرائد قائلا : « حدث هذا فى أوروبا ، فظهرت الكتابة

الذاتية عند الكاتب الفرنسي مونتاني ١٥٣٢ - ١٥٩٢ ، ثم ظهر عند المقالة الموضوعية عند الكاتب الانجائري يكون ١٥٦١ - ١٦٣٦ ، وأخيرا ظهرت المقالة الصحفية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة على ايدى كتاب كثيرين ، مثل الكاتب الانجليزى « ديمى » و « ستيل » وغيره من كتاب القرن الثامن عشر الذين أدركوا الفرق بين هذه المستويات الثلاثة التى تحدثنا عنها (٥) .

كانت هذه هى المقولات التى تمثل شبه القاعدة التى حطمتها الرجل .. اما عن السبب فى ذلك ، وكيفية وقوعه ، فببساطة شديدة نقول ان كتابات الرجل قد قُصمت هذه المستويات الثلاثة معسا ، الأدبى والعلمى والعملية ، وأنها وسعتها جميعها ، ومرت بها كلها ، والدليل على ذلك ، ما ذكرنا من مثيلات هذه الكتابات ، فهل يعنى ذلك أن الرجل كان « محررا » أو « كاتبا » أو أدبيا ، لكل العصور ؟ أو - على الأقل - لهذه العصور المتسوسعة التى شأهت تلك المراحل الثلاث ، التى مرت بها عدة أعم ، فى تاريخها الأدبى ؟

● وفى ظل هذه المقولة أيضا ، ومن خلال هذه الزاوية الزمنية نفسها ، نجد أن دهشتنا لتزيد أكثر عندما نعرف أن هذا الكاتب العربى ، قد تناول هذه المستويات التعبيرية الأسلوبية الثلاثة خلال بعض كتبه ، بل خلال كتاب واحد من كتبه فقط ، مثل تلك التى أشرنا إليها .. بل انه ليمكثنا القول ، أن بعض رسائله أيضا ، وليست كتبه فقط من تلك التى أشرنا إليها عند حديثنا عن « مقالات التخصص العام » أو « المقالات الموضوعية » ومع ما فيها من اقتراب شديد من بعض التحقيقات الصحفية العامة المتخصصة هذه أيضا - وبعضها لم يتعد الخمسين صفحة أحيانا - كان يجمع بين هذه المستويات ، جمعاً ذكياً لكاتب يستطيع ويقدر وله أقلامه المتعددة ولا أقول قلمه الواحد ، تلك التى يملك ناصيتها كلها ..

● وإذا كان ذلك كله ، يؤكد ما أشرنا إليه سابقا ، من جوانب موسوعية الرجل وشمولية فكره ، الرجل المكون من عدة رجال ، الأديب صاحب الاهتمام الكبير بالتاريخ والعلوم والفلسفة واللغويات والأخبار والمادة الأخرى التى وجدناها تقترب فى أحيان كثيرة من أنماط التحرير الصحفى المعاصرة ، فإنه - بالتالى - يؤكد أن الرجل قد عرف وخبر وكتب بكل هذه المستويات التعبيرية ، وأن تلك المعرفة كانت نتيجة طبيعية ومنطقية لهذه الاهتمامات كلها . ومن ثم ، فقد جمع بينها ، وكان من بين مستويات تعبيره ، هذا

المستوى الذى تقدمه له خلال هذه الفقرة ٠٠ المستوى العملى ، أو الصحفي ٠٠  
كما نقول الآن ٠٠

## ثانيا - عن الأسلوب الصحفي

٠٠ ثم ماذا ؟

كان ذلك عن الأسلوب من حيث هو ، وعن مستويات التعبير الكتابى ،  
فماذا عن الأسلوب الصحفي نفسه ؟ أو عن هذا المستوى الأخير « العملى »  
ذاته ؟ وأين يقف الجاحظ - بكتاباته المتعددة - منه أيضا ؟

إننا نقرب فى هذه الفقرة ، من ذلك كله ، فنترقب فى البداية عن بعض  
الأقوال التى تتصل بهذين الجانبين ، من تلك التى وردت بعدة كتب ، مباشرة  
أو غير مباشرة ثم نحاول - معا - أن نحدد موقع الكتابات الجاحظية منها ٠٠  
ترى ، ما هى أهم هذه الأقوال ؟

● ان عددا من المؤلفين ، قد ذكر قول ابن الصحافة الحسبينة  
- داثيال ديفو - ذلك الذى يقول فيه : « اذا سألنى سائل عن الأسلوب قلت  
انه الذى اذا تحدثت به الى خمسة الاف شخص ممن يختلفون اختلافا عظيما  
فى قدراتهم العقلية - باستثناء البله والجانيين - فانهم جميعا يفهمون  
ما أقول » (٦) .

● وكان الاستاذ الدكتور « محمود عزمى » يردد على طلاب معهد  
الصحافة قوله : « الأسلوب الصحفي هو أكثر أساليب الكتابة تعبيرا وأقربها  
الى عقول الناس كما انه أقصرها وأوضحها كلمات ، ويمكن أن نضيف الى  
ذلك دلالاته المتعددة » .

● ويتحدث أحد الباحثين عن هذا الأسلوب من أكثر من زاوية ننقل  
هنا بعض كلماته عنها : « يسمى بعض أساتذة الأدب العربى الحديث لغة  
الصحافة بالنثر العملى للتمييز بينها وبين النثر الفنى والنثر العادى - ليس  
معنى هذا أن محرر الصحافة يستلزم اتباع أسلوب النثر العملى فحسب ،  
ذلك لأن الصحف والمجلات تتناول موضوعات مختلفة ، ومنها قصص

أخبارية ، ومنها موضوعات أدبية ونقدية وفنية الى غير ذلك فليس معنى أن لغة الصحافة هي النثر العملي أن الصحف لا تهتم إلا بهذا اللون من النثر ، فإذا كان الموضوع موضوعاً أدبياً صرفاً فإن مجال النقد أو التعليق ينبغي أن يكون بلغة أدبية لا صحفية — طبيعة النثر العملي طبيعة سهلة للغاية فتصاب في غير تكليف ولا تعقيد ، ولكنها في الوقت نفسه تسمو على الأسلوب الدارج فهي تتخذ لنفسها طريقاً وسطاً بين الأسلوب الأدبي الرفيع وبين الأسلوب الدارج من الناس ، (٧) .

•• وبعد أن يعدد أسباب ذلك وأهمها سرعة إيقاع العصر وما يترتب عليها ، راح الباحث نفسه يعدد مميزات الأسلوب الصحفي على النحو الذي ذكره كثيرون قبله ، وكانت هي : « السهولة والعذوبة والجمال القصصية والألفاظ المعربة والأكثر استعمالاً من الألفاظ العربية — لنا تحفظ على ذلك — واستخدام الألفاظ المستحدثة والابتعاد عن الجمل الاعتراضية » (٨) .

● •• وقد تناولات باحثة أخرى الموضوع من أكثر من زاوية غلب عليها الطابع غير المباشر ، كما جاء حديثها عن الأسلوب الصحفي عرضاً ، أكثر من مرة ، وكان من بين ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

— ففي تعريفها لفن التحرير الصحفي تقرأ قولها : « أنه فن تحويل الأحداث والأفكار والخبرات والقضايا الإنسانية ومظاهرها الكون والحياة ، الى مادة صحفية مطبوعة ومفهومة سواء عند صاحب الثقافة العالية والذكاء الخارج ، وصاحب الثقافة المتوسطة والذكاء العادي ، وعند رجل الشارع الذي يقرأ ليفهم ويعرف » (٩) .

— وفي مكان آخر ، ولو أن الحديث يتناول الصحافة المدرسية في المرحلة الثانوية ، وقارئها يمثل قطاعاً هاماً من قراء الصحف والمجلات عامة ، تقول الباحثة نفسها : « وإذا أردنا أن نحدد أسلوب التحرير هنا فإنه يكون مباشراً وفي صيغة سهلة وطبيعية بلا ارتكازه على رموز بالمرسة — استخدام الأسلوب الصحفي الذي يتضمن لغة سهلة مفهومة مزاج بين لغة التخاطب بين الجماهير ولغة العلماء والمثقفين ، وتختار الكلمة التي تعبر عن المعنى المقصود بلا ازدواج في المعنى ، والتقليل بقدر الامكان من التورية في المعنى واللفظ » (١٠) .

● ٠٠ وبالمثل يتحدث الباحث وناقده أدبى وصحفى آخر ، بأسلوب مباشر أحيانا. وغير مباشر فى أحيان أخرى ، مما يزيد من اقترابنا من الموضوع نفسه ، انه يقول مثلا ضمن أقوال عديدة بعد ان توفر على دراسة هذا الجانب المهم :

— ٠٠ ٠ وإذا كانت لغة الصحافة تحرص على مراعاة القواعد اللغوية المصطلح عليها ، فانها تحاول كذلك ان تحرص على خصائص أخرى للأسلوب لم ينكرها المجمعين وحراس اللغة من بساطة وإيجاز ووضوح ونفاذ مباشر وتأكيد وأصالة وجلاء واختصار » (١١) ٠

— ٠٠٠ ذلك أن لغة الفن الصحفى لا تهدف الى إفساد حاسة الجمال لدى القراء ، بل العكس من ذلك تتضمن اتصالا ناجحا أساسه الوضوح والسهولة » (١٢) ٠

— ٠٠٠٠ ذلك أن لغة الصحافة هى لغة الوضوح والدقة والبيان والسرعة ، يصطلح عليها العلماء والأدباء والصحفيون فتكون فاسما مشيركا بين لغة العلم ولغة الأدب ، وتكرن عاملا من عوامل التقريب بين مستويات التعبير المختلفة — لم تحرمهم الجامع حق وضع المصطلح ، ولم تعترض سبيلهم وانما ذهبت هذه الجامع الى أن استعمال لغة الصحافة اقرب الى اصول اللغة وأشيعه بين الباحثين ، وأن يتخذ منه لغة موحدة فى العالم العربى بأسره » (١٣) ٠

ويطول بنا المجال ، ويمتد حبل الكلام ، ان نحن استغرقنا فيه لأكثر من ذلك فحسبنا ما ذكرنا ليتبقى من هذه الأقوال وغيرها تلك العناصر العديدة التى يتميز بها الأسلوب الصحفى بصفة عامة ، والتى نجمل أهمها أو أبرزها فقط فى الآتى ٠

#### ١ — صحة اللغة وسلامتها نحوا ٠

٢ — الاثارة الحديثة والفكرية والتفكيرية ( تدعو الى التفكير ) فى أغلب الأحوال دون اغفال كامل وتام للاثارة العاطفية أحيانا لاسيما فى الموضوعات الانسانية وبعض أنواع المقالات والمقدمات والنهايات ٠

- ٣ — الوصف الحي والواقعي واختيار الألفاظ الأكثر تعبيراً عنه .
- ٤ — الألفاظ الواضحة ، السهلة ، المشرقة .
- ٥ — الاهتمام بالمعنى واللفظ معا ، مع عناية خاصة بالمعنى .
- ٦ — استخدام بعض المفردات الشائعة التي يتداولها الناس والتي تجري على الألسن ، مولدة أو مترجمة أو اصطلاحية ، مما يعكس التطور نفسه .
- ٧ — البعد عن الرمز والألفاظ الوجدانية والغريبة .
- ٨ — الموضوعية أولاً ، وبعض أنماطه تجمع بين الموضوعية والذاتية .
- ٩ — اهتمام قليل جداً بالمحسنات البديعية واللفظية ، وإنما جوانب الجمال هنا تأتي من البساطة والوضوح وبقة وصدق وواقعية التعبير .
- ١٠ — الجمل والعبارات والفقر القصيرة المتناسكة بشكل عام وفي أغلب الأحوال .
- ١١ — البعد عن التكرار والإطالة واستخدام المترادفات ، إلا لضرورة ، ومع اختلاف في الألفاظ .
- ١٢ — الترجمة الصادقة للمضمون الثري بالوقائع والتفصيلات والمعلومات والعمل على توصيله للجمهور كاملاً ومفهوماً .
- ١٣ — دعم الرؤية الموضوعية للواقع وصناعه وإبطاله وصوره ونتائجه ، باستثناء القليل الذي يدخل ضمن دائرة « الأسب الصحفي » .
- ١٤ — عدم تضمينه الشعر بأنواعه أو الحكم أو الأمثال ، إلا لضرورة ، أو بالنسبة لبعض القنون — بعض المقالات هنا — ودون إسراف في ذلك .
- ١٥ — استخدام التراكييب الحديثة المستصاغة للجمهور القاري ، والتي أضيفت إلى القاموس الصحفي .

١٦ — استخدام اللغة المناسبة والأسلوب المناسب ، للمادة المناسبة ،  
التي تتوجه بدورها الى القارئ المناسب ، ومن هنا اختلفت الأساليب من  
صحيفة الى مجلة ومن صحيفة الى صحيفة ، ومن صفحة الى صفحة ، ومن  
محرر الى محرر ، بل قد يختلف الأسلوب بالنسبة لصفحة واحدة من ركن  
الى آخر ، بل وبالنسبة للمحرر الواحد عندما يتعرض — مثل بعضهم —  
لكتابة أكثر من موضوع أو مادة مختلفة ، على الرغم من أنها — جميعها —  
تعتبر من الأنماط الصحفية .

١٧ — الشخصيات التي يتناولها لا يمكن أن تكون خيالا ، الا في القليل  
النادر من مادة مقالية ، وليست كل المقالات أيضا .

١٨ — لا يهدف الى تأثير جمالي أو معنوي ، وانما الى الفهم  
والاستيعاب وتوصيل ما يريد المحرر ، والتأثير هنا يكون في الرأي العام ،  
من أجل التعريف والتثقيف والتعليم والتنمية والقيادة نحو صالح الفرد  
والمجتمع والانسانية .

١٩ — التوصيل الى جميع الأفراد والأعمار والأجناس والمستويات  
القارئة وغير القارئة أحيانا .

٢٠ — الأمانة في تسجيل الواقع ، والدقة في نقل مشاهدته وصوره ،  
والمسئولية الاجتماعية الكاملة في تفسيره وتحليله والخروج من ذلك بالنتائج  
المهمة .

### ثالثا : الجاحظ والأسلوب الصحفي

كانت هذه هي بعض المعالم البارزة ، والعناصر المهمة ، في هذا النوع  
من أنواع الأساليب التعبيرية العربية ، ولا أقول أنها كلها أو جميعها .  
لننتقي بعد ذلك ، هذه الوقفة من جانبنا ، لنرى أين يقف الجاحظ من هذه  
المعالم والعناصر وغيرها وما هو موقع « الأسلوب الجاحظي » ، بل والبلاغة  
الجاحظية بصفة عامة ، من هذا الذي نعتبره جزءا أساسيا من معالم  
الصحافة الحديثة ؟

لننا قبل الحديث عن ذلك كله ، إنما ننبه الى عدد من الأمور الأساسية المتصلة بهذا الجانب — جانب الأسلوب الصحفي — من ناحية ، وبالرجل نفسه من ناحية أخرى ، ومن هنا نقول :

**الأمر الأول :** أن هناك كما شهدنا خلال هذه القائمة ، وكذا خلال بعض التناولات السابقة أيضا ، أن هذا الأسلوب الصحفي يأخذ كثيرا من معالم المستوى الأدبي نفسه ، فليس معنى فصلنا — نحن وغيرنا — بينهما ، أن هذا الفصل يكون تاما وكاملا ودقيقا وأن الصحفي يقف في جزيرة معزولة ، وبعدة كل البعد عن جميع معالم ومواطن الجمال في الأول ، أن المستوى الأدبي هو الأصل والأساس ، وأن المستوى الصحفي قد تولد عنه ، وتقرع منه ، ومن ثم فقد تربي بحجره ونشا بين أحضانته حتى انفصل على صفحات بعض ألوان النتاج الفكري في طريق النتاج الصحفي ، ولكن حتى هذا الانفصال لم يكن مرة واحدة ، ولا كان كاملا ، بل انتهى أرى أنه لم يكتمل تماما حتى اليوم .. ومثل ذلك يقال عن « بلاغة الاعلام » وصلتها بالبلاغة بمعناها الشامل .

وإذا كان من حق الرجل القول بأن صفحات كتبه ورسائله ، كانت هي من أول ما شهد هذا الامتزاج العضوي بين الأسلوبين ، على الرغم من عدم معرفة الصحافة بمعناها الحديث أو المطبوعة فإنا نقول أن بعض المصاحف والعناصر ، ما تزال شاهدة على هذا التوالد ، وعلى هذا الشسبه القائم بين الأسلوبين ، خاصة عند بعض كتاب عدد من أنواع المقالات ( الخواطر والتأملات — الأعمدة الانسانية — المقالات الوصفية والنقدية — اليوميات — المقالات الكاريكاتيرية ) .. وكذا بالنسبة لبعض الوجهات التحريرية للتحقيقات والتقارير والقصص والمآجريات . خاصة العنوانات والمقدمات والنهايات .. حتى الصور المصاحبة لهذه ، فقد قيل عنها أيضا أنها « آتب بصرى » ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، وفي عدد من مؤلفاتنا السابقة .

**الأمر الثاني :** ويستتبع ذلك — بالضرورة — أن تكون هناك بعض المعالم والعناصر المشتركة بين المستويين والأسلوبين معا ، وهي تتصل أولا بعدد من معالم الواقعية ، ومواطن الجمال الملائمة واستخدام التعبير المناسب للمادة المناسبة وهو « المثلث » الذي اعتقد أن « الجاحظ » قد نفذ من بينه بكتابه ، الى الاقتراب من جانب الأسلوب الصحفي ، وكانت هذه العناصر

الثلاثة ، وما يتصل بها أو يتفرع عنها هي المجال الذي شهد وقوع هذه العلاقة بين لغة الرجل وبين أسلوبه ، وبين ما نطالعه اليوم على الصفحات ، خاصة صفحات المجلات والمادة ، المجلاتية ، قبل غيرها ، وذلك التي جانب خصائص أخرى عديدة شهدت اقترابا من نوع آخر ٠٠ بين الأسلوبين الصحفي العام ، وأسلوب الجاحظ .

الامر الثالث : أنه حتى بالنسبة للمستوى الصحفي أو العلي ، فإن هناك الجديد الذي قلناه بشئفه ، إذ ليس من المعقول وقد تعددت الفنون والاطر والأساليب بل وتعددت الوسائل الصحفية نفسها والقراء أيضا ، أن يكون هناك ذلك المستوى التعبيري الصحفي الواحد ٠٠ وإنما اتضح لنا من خلال دراسة سابقة ، تعتمد النظرية والتطبيق فوق الصفحات المطبوعة ، أن هذا الأسلوب الصحفي نفسه يتفرع الى :

● المستوى الصحفي الاخباري البحث : للاخبار الصغيرة والمتوسطة والكبيرة .

● المستوى الصحفي التسجيلي : بكل دقته وموضوعيته وكون ألفاظه على قدر معانيه - مثل المستوى السابق - وذلك للقصص والموضوعات والتقارير الاخبارية وما يتفرع عنها .

● المستوى الصحفي التفسيري : لبعض أساليب تحرير بعض المقالات والتقارير الحديثة والمقالات الافتتاحية ومقالات التعليق والتفسيرية والقائدة الموقعة .

● المستوى الصحفي الوصفي : لاسيما في بعض القصص والتقارير والتحقيقات والمقالات وهو يأخذ كثيرا من جانب المستوى الأدبي .

● المستوى الصحفي التأديب : للفنون والأنماط والوحدات التحريرية التي تحتاج الى قدر من الجمال والذوق الأدبي ، وقد اشرنا اليها أكثر من مرة .

● المستوى الصحفي العلمي : لبعض جوانب التخصص العام ، بمقالاته ودراساته .

● المستوى الصحفي العام : وهو يجمع بين أكثر من معلم من المعالم

السابقة ونراه في ألوان الكتابات القياسية كبيرة الحجم في الغالب كالتحقيقات والدراسات والحماسات والمقالات العامة والموضوعية والتحليلية (١٤) ٠٠٠

تري ٠٠ أين يقف الرجل من هذه المستويات الفرعية كلها ؟ وقبلها ، وأكثر منها : أين يقف من هذه الطائفة من خصائص الأسلوب الصحفي نفسه ؟ اننا نتناول ذلك كله ، من خلال النقاط التالية ، ومن أكثر من زاوية أيضا :

١ - فبدية نقول ، أنه لم يكن من المعقول أن تأخذ كتابات الرجل كلها هذا الطابع ، وأن تتصف بمثل هذا الأسلوب ، ولا نستطيع أن نزعج ذلك ، لأننا - على الأقل - لم نحصرها وندرسها كلها ، ولأنها أيضا تقع ضمن الدائرة الأدبية وتتضح صلاتها الكبيرة بها من جميع الزوايا ، وباستخدام مختلف المقاييس ٠٠ انما الذي نستطيع أن نقوله ، أنه وكما توجد هذه الكتابات ذات المستوى والأسلوب الأدبي البحث أو الكامل ، توجد أيضا هذه التي تقف - بلغتها وأسلوب كتابتها - بالقرب من لغة وأساليب الصحافة الحديثة ، وبعضها يقترب منها اقترابا شديدا ، لغة وأسلوبا أيضا .

٢ - ولسنا هنا في مجال تصنيف وفهرسة وتقسيم لكتابات الرجل ، لكننا نقول ، من واقع مادته الموجودة فوق الصفحات نفسها أن الاقتراب من لغة الصحافة عند الجاحظ ، وأن الابتعاد عنها ، كان يفرضه الموضوع نفسه - ككل كاتب صحفي آخر - وكان هو الذي يوجه نحو تلك العناصر والملاح التي عدت أدبية كاملة أحيانا ، ولكنها في أحيان أخرى مما يمكن اعتباره ضربا من الكتابة الصحفية ٠٠ وعموما - وقد كان الرجل موسوعيا ويملك أن يكتب ويغير ويجدد وينوع - فنحن نستطيع أن نقول ، مما تظهره الصفحات نفسها أن أكثر ألوان كتاباته التي شهدت مثل هذا الأسلوب القريب من الأسلوب الصحفي كانت هي الكتابات الاخبارية والاجتماعية الواقعية والفكاهية والنقدية أولا ، وكانت هي الكتابات التاريخية ثانيا ، وكانت هي الكتابات السياسية ثالثا ، وكانت هي الكتابات العلمية في المحل الرابع ٠٠ بحيث نستطيع توزيع هذه كلها على مختلف ألوان الأسلوب الصحفي أو نوعياته التي أشرنا إليها في السطور القليلة السابقة .

٣ - فإذا نظرنا إلى القائمة السابقة نفسها ، وحاولنا التقريب بينها ( الجاحظ )

وبين جوانب الأسلوب الجاحظي التي كانت تسيج هذه الموضوعات ،  
وانكشابات لوجدنا أن أكثر ما تأخذ من هذه الخصائص ، أو تكون أقربها  
اليها :

● صحة اللغة وسلامتها نحواً ، ومن الذي يمكنه أن يقول بغير  
ذلك ؟ بل لعل مثلى ، وغيرى ممن هم أكثر منى قدرة ومعرفة بهذا الجانب ،  
لا يستطيع - أيهم - أن يقول بغيره ، ومن ثم فهذا الجانب قد يكون مجال  
أخذ ورد عند كبار علماء اللغة ، ولكن - على الأقل - ليس عندي ، أو ليس  
بالنسبة لتوجهات وامكانيات هذا البحث نفسه ، بل انه ليعتبر من قبيل  
البيدييات .

● الوصف الحي الواقعي لا شئده أو سمعه أو قيل أو روى له  
خاصة عندما كان يصف أحوال الناس والفئات والطبقات الاجتماعية الموجودة  
فى مجتمعه ، وما يتصل بها من صور ومشاهد بعضها ايجابى ، وبعضها  
الآخر سلبى . جميعها واقعية لا خيالية وليست كذلك من بنات أفكاره .

● الاختيار الصحيح والكامل لنوعية اللغة ومستوى الأسلوب  
وما يتصل بهما من الفاظ ومفردات ، تصلح قبل غيرها للتعبير عن مادة معينة  
أو مضمون دون آخر وكأنه بذلك كله كان يعرف أو يتوقع أو يستشف من هم  
الذين سيقبلون على قراءة المادة ، أو الأخرى ، أو الثالثة .

● وقد ترتب على ذلك أن يكون لكل كتابة ما يتصل بها اتصالاً  
وثيقاً ، ولكل موضوع ما يرتبط به قبل ارتباطه بغيره ، وفى سبيل ذلك ، فإن  
الرجل قد توصل الى نوع من المعرفة والادراك ليس لمستويات التعبير الأدبى  
فقط ، وإنما لمستويات التعبير الموضوعى ، أو الاجتماعى ، أو العملى تلك  
التي تساوى عندنا وتعبّر عن مستويات التعبير الصحفى نفسها ، والسابقة  
الإشارة اليها .

ان كتاباته الاخبارية ، غير اللغوية ، غير التاريخية ، غير الفكاهية ،  
لكل منها ملامحها المتصلة بمانتها ، دون أن تترك تماماً « الساحة الجاحظية »  
وإنما كانت ترتبط بالخصائص الجاحظية عامة ، أو يشدها الرجل اليها بحبل  
متين من هذه الخصائص نفسها .

أى أننا - فى واقع الأمر - نجد أن للرجل طريقتين لا طريقة واحدة ، وأسلوبين لا أسلوبا واحدا ، فهناك الخصائص العامة الشائعة للكتابات الجاحظية فى مجموعها ، تلك التى تتناولها الآن ، وهناك أيضا تلك التى تتفرع عنها ، والتى تتصل برؤيته لكل فن من الفنون على حدة ، والتى ترتبط بهذا الفن ارتباطا شديدا وقد ألمحنا إلى هذه الخصائص وتوقفنا عندها خلال الصفحات السابقة .

● أن تكون كتابته محلاة أو مزدانة بذلك القدر البسيط والسهل ، غير المبالغ فيه . أو المعقد من أساليب الجمال ، أو ما يطلق عليه رجال البلاغة . من « الصنعة الزخرفية » ، فهو لم يسرف فى تقديم المحسنات الابداعية أو اللفظية ، ولم يحاول - مثل من سبقه - أن يجهد نفسه من ورائها ، أو أن يكون الشكل هنا فى المحل الأول تماما . شأنه فى ذلك شأن كل كاتب ومحرر يحرص على أن يقدم ما يفهم ، وما هو سهل الوصول إلى فكر القارئ

● الحرص على جوانب الاثارة الحديثة والفكرية ، وذلك انطلاقا من أنه كان رجل الاعتزال والفكر والجدل ، ومن هنا فإن القارئ لبعض كتاباته الدينية والفلسفية والجدلية ليلمح فيها تلك الملامح العسيدة التى يعرفها كتاب المقالات التحليلية ، من تلك التى تثير قضايا ومناقشات عديدة وهامة . أن أسلوبه هو أسلوب ذلك الرجل الباحث عن الحقيقة ، الساعى وراء الفكر وله .

● وكثير من كتابات الرجل - ولا أقول كلها - يمكن لتلميذ الثانوى من المستوى العادى أن يطالعها ، وباستثناء بعض الكتابات الفلسفية والجدلية ، فإنه تسهل قراءة ومتابعة وتفهم معظم هذه الكتابات ، وما ذلك إلا لأنه أحسن اختيار اللفظ السهل والمفرد الواضح ، وبعد - قدر الطاقة - عن الغريب الوحش ، وهاجمه وتندربه ، ومن العجيب أن يثير ذلك حفيظة نقاده وضغينة حاسديه ، حيث عدوا ذلك عليه لاله ، وما علموا أن الرجل قد سبقهم بعدة مراحل ، حيث توصل إلى معرفة ما يقبل عليه الناس ، ويظل هكذا حتى اليوم . ليكون الأقرب إلى لغة الصحافة ، ونثرها .

● وبالمثل ، وفى أكثر الأحوال ، فإن الرجل راح يعد عن الرمز ،

ولم يستبد به الاغراق فيه قدر طاقته ، فمادته كتاب مفتوح ، ويبدو أنه فهم أن خير الأساليب هو ما يوصل الى المعنى من اقصر الطرق واسهلها أيضا ، وأقربها الى الألفاظ والأسماع ، فكان له ما أراد . . . وليس ذلك كله، من معالم أسلوب صحافة اليوم ؟

● مساعدة القارئ على المتابعة ، وتسهيل عملية القراءة عليه .  
فعندما يحسن أن مادته من النوع الجاف يعتمد الى تبسيطها ، أو يعرج على بعض الطرائف المتصلة بها ، وعندما يحسن أن الموضوع بات طويلا دلف الى جانب آخر وحاول اللجوء الى فكرة مماثلة ، أو قدم بعض ما يعتبر محطات للقارئ ، أو عمد الى خفة الظل . . . أو الى غير ذلك مما يمكن أن يعيبه عليه المؤلفون ، أو الباحثون ، لكن ذلك كان لهدف عنده ، وكان الهدف هو الترويج عن القارئ ليدفعه الى مزيد من القراءة . . . والا فلماذا كان يكتب ؟

٤ - وأما عن هذه المستويات الفرعية للأسلوب الصحفي نفسه ، والتي أشرنا اليها ، فإتينا نقول أن الرجل فهمها تماما ، ضمن فهمه أن لكل مقام مقال ، ولكل موضوع تفكيره الخاص وتعبيره الخاص أيضا ، ومن هنا كان بعض الاختلاف الوارد في كتابته ، من موضوع الى موضوع ، ومن مادة الى مادة ، ومن فكرة الى فكرة . . . حتى أنه راح يعتمد أحيانا الى بعض الألفاظ غير العربية ، من تلك التي ترجمت وبدأ الناس استخدامها وأصبحت شائعة تجرى على ألسنتهم ، كما استخدم أحيانا بعض الألفاظ العامية . . . وإذا كان رجال اللغة والأدب يقولون عن ذلك أنه استخدمها لأنها «بنت لحظاتها» أو «مراعاة للحال» فإتينا نقول هنا ، أن ذلك مما يساعد على الاقتراب بين أسلوبه من جانب ، وبين الأسلوب الصحفي من جانب آخر . . .

٥ - وإذا كنا في مجال ودروس فن التحرير الصحفي ، نركز ضمن ما نركز عليه على أربعة جوانب أو عناصر أساسية ، نفصل القول فيها تفصيلا ، ونعتمد الى الاهتمام بزواياها ، وأبعادها المختلفة . . . عند دراستنا التطبيقية لها كما تبدو خلال أسلوب تحريرى لفن من الفنون ، أو نمط من الأنماط ، أو لحرر هذا الفن أو كاتبه ، فإتينا نفعل الطريقة نفسها مع هذه العناصر عند الرجل ومن هنا نقول . . .

● أما عن العنصر الأول فهو : الحرف : وباستقراء عدد من كتابات

الجاحظ مما قدمنا خلال السطور السابقة أو لم نقدم ، فانتنا نجد أن الطابع الغالب على حروف كلمات الجاحظ والفاظه ، كثيرا ما يقترب به من هذا الأسلوب الصحفي ، ومن بينها على سبيل المثال :

— أن حروفه كانت في كثير من الأحوال تتميز بتعبيرها الصادق عن المعنى الذي تشير اليه الكلمة التي تتكون منها .

— أن أثرها النفسي كان يعمل عمله ، وكان من السهل على القارئ الفاهم والمتمكن أن يضع يمه عليه .

— أن مجمل حروف كلماته في معظمها كان يقع بين الثلاثة حروف والخمسة حروف ، وهي النسبة الأنثونجية لعدد حروف الكلمة ، الاتصالية، السليمة التي تتصل الى الأسماع والأفهام في سهولة ويسر ، بل وكلما كان عدد حروفها أقل — وهو ما رأيناه عنده — كان ذلك أقرب الى قراءتها وفهمها

— أنه لم يشق على الأذان والافهام بتلك الحروف الفخمة الضخمة التي تكررت عند آخرين من الكتاب — الا لغرض واضح — وحتى في حالة ذلك فقد كان الرجل يبتعد عنها قدر الطاقة .

— أنه كان يحافظ على الجرس الموسيقى للحرف ، دون اسراف في ذلك ، ودون تعمد له ، وكانت الموسيقى هذه من النوع الهادئ لا الصاخب، من النوع الذي يذكر بالقطع المتميزة من السيمفونيات التي تحكي مسرى التسميم وخرير المياه وتغريد اللابل ، وليست موسيقى « الجاز » الصاخبة ذات الجلبة والضجيج . . . وقد ظهر ذلك واضحا في مقالاته ذات الصلة الوثيقة بالأدب الصحفي . . . وقد يسأل سائل هنا . . . هل يدخل هذا الجرس ضمن الأسلوب الصحفي ، وأقول في أحوال قليلة ، عندما يوجد من يقدر عليه ، خاصة في مجالات الأعمدة الانسانية واليوميات ، وعنوانات ومقدمات ونهايات بعض فنون التحرير . . . أقول في أحوال قليلة ، وبالنسبة لبعض الفنون ، وبعض الوحدات التحريرية . . .

ثم ان هذه الجرس هنا لم يك « صناعيا » أو « مفتعلا » بحيث يحرص

الرجل عليه كل الحرص ، وإنما كانت موسيقى حروفه ومن ثم كلماته تأتي من فورها ، وبدون افتعال أو « فبركة » كما نقول نحن أرباب مهنة الصحافة

— أن حروفه المكونة لكلماته كانت في كثير من الأحوال خالية من التكرار على مستوى الكلمة الواحدة ، والعبارة ، والفقرة أيضا ، فالحروف لا تتكرر الا قليلا ، وبالمثل كان الحال بالنسبة للحروف القريبة منها ، أو الشبيهة بها باستثناء ما يتكرر لغرض من الأغراض .

— وبالمثل فقد خلت الكلمات والجمل كثيرا من الحروف المتضادة ، التي تشق على القارئ والمستمع ، والتي نحذر طلاب التحرير الصحفي منها ، خاصة عند كتابة العناوانات والمقدمات بأنواعها .

● **وأما عن العنصر الثاني وتمثله هنا « الكلمات » أو « الألفاظ »** ، تلك التي تبني على العنصر السابق — الحروف — بحيث تمثل كل كلمة « مركبا » من عدد من الحروف ، فإننا نلاحظ على « اللفظ الجاحظي » اقترابه من « اللفظ الصحفي » في وجوه كثيرة ، تضاف الى ما سبق أن أشرنا اليه منها ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر : « بدون ترتيب » .

« الوضوح والبساطة — حسن اختيار اللفظ المعبر عن المسادة أو الموضوع — وضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب — عدم تكرار حرف واحد ، أو حروف متشابهة أو متضادة في الكلمة الواحدة ومن ثم في العبارة الواحدة — الثراء الكبير والمتعدد للمعجم اللفظي الجاحظي والذي يندر أن تجد مثله عند كاتب آخر — التفاعل والتجاوب الكامل بين الكلمة وغيرها من الكلمات المكونة للجملة — دقة اللفظ المنتقى بعناية للتعبير عن المعنى المقصود — عدم الحاجة الى الاستعانة بالقواميس والمعاجم من أجل التعرف على معنى لفظ أو آخر — القدرة على التمييز بين المترادفات — الاهتمام بدلالة اللفظ أولا — عدم استخدام الكلمات القلقة أو غير محددة المعنى تماما — استخدام الكلمات الشائعة على الألسن وعلى الصفحات أولا — استخدام بعض الألفاظ الأعجمية أو المترجمة أو العامية في أحوال قليلة ، اذا كانت متداولة بين الناس — البعد عن الكلمات غير المحددة المعنى تماما أو تلك التي تمثل رموزا غير محددة المعنى أو تختلف معانيها من شخص لآخر — استخدام الألفاظ صحيحة الاشتقاق » .

الى غير ذلك كله ، واذا كان البعض قد أخذ عليه عسدا من هذه الخصائص وعدّها دخیلة على الطابع السائد فى عصره ، وبعيدة عما اصطلح عليه الفصحاء فى كتبهم ومؤلفاتهم ، بل ومما أنكره عرب البادية أحيانا ، وذلك على الرغم من اعتراف البعض بقدرته . . . انظر مثلا الى قول أحدهم : « قال أبو حيان ، قلت لأبي محمد الأندلسي ، يعنى عبد الله بن حمود الزيدى ، ما قولك فى الجاحظ والدينورى . . قال : أبو حنيفة الدينورى أكثر ذمارة وأبو عثمان أكثر حلاوة ، ومعانى أبي عثمان لائقة بالنفس سهلة فى السمع ولفظ أبي حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب » (١٥) .

اذا كان ذلك هو ما يتصل بالفاظ كلمات الرجل ، فإنه هو نفسه كان له رايه فى ذلك ، نعرضه فى نهاية هذا الفصل وعلى أثر تقديم عدد من الأقوال التى تتصل بهذا الموضوع نفسه . . . لقدماء معاصرين له ، أو لحاليين من الأساتذة :

— ان أحد من تناولوه يذكر قول بديع الزمان الهمذانى فى وصف كلامه : « بديع الاشارات ، قريب العبارات قليل الاستعارات منقاد لعريان الكلام — يقصد واضحه — يستعمله ، نفور من معقاصه — يقصد غامضه وغريبه — يهمله فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ، أو لفظة غير مصنوعة » (١٦) . . ويضيف المؤلف قائلا ومما يقترب به أكثر من الأسلوب الصحفى : « كان همه أن يعبر بوضوح وعفوية بلغة مرنة غنية بالمفردات والمرادفات ، وكان يعنى عناية خاصة باختيار الكلمة التى تستوفى التعبير عن المعنى المقصود ، ولا يستكف عن استكمال التعابير الواقعية واللهجات العامية وخصوصا فى سرد الحوار ، وما قصده الا احياء صورة تامة عن موصوفاته فى أجوائها المختلفة » (١٧) . .

— ومثل ذلك يقول أحد رواد الدراسات الأدبية : « . . . تدقيقه فى ألفاظه وانتخابها بحيث تلائم ما يصنعه أو يصوره حتى أنه ليخسكى كلام المولدين والعوام بما فيه من لحن وخطأ لينقل اليك الواقع بكل ما فيه ، فهو يحكى دائما أخباره وحوادثه بلغتها الدقيقة ، والكبر الظن أن هذه النزعة فيه هى التى حملته على أن يلهج فى كتبه ورسائله بفكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال » (١٨) .

٠٠ وماذا يفعل المحررون غير ذلك ؟

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن « اللفظ الجاحظي » وننتقل الى عنصر آخر هو :

● **العنصر الثالث وتمثله هنا « العبارة »** تلك التي تمثل هذا المركب العضوي من عدة كلمات ، او تمثل تلك المجموعة من الكلمات المترابطة ، الموجودة الى جوار بعضها ، والتي يكتمل بها التعبير المفيد ، المؤدى الى الفهم ، والتي يطلق عليها أيضا : « الجملة » ٠٠ ترى ، ما الذي يمكن أن نقوله عن « العبارة الجاحظية » ؟ وعن الصلة بينها وبين الأسلوب الصحفي ؟

اننا في الصحافة — وكما قلت في مؤلفات عديدة — نكتب لنقرأ ، ليطالعنا الناس. ليفهم هؤلاء ، لكي نصل اليهم ، ويتم التواصل — بدرجاته — بيننا وبين القراء ، وحتى تتم القراءة ، والمتابعة ، ويتم التواصل وتؤدي دورنا فاننا نصل الى هؤلاء على جسور الحروف المكونة لكلمات ، والكلمات المكونة للعبارات ، والعبارات المكونة للفقرات والفقرات المكونة للنصوص التحريرية الصحفية ، أو للرسائل الاتصالية الصحفية التي تأتي في شكل خبر أو موضوع أو قصة أو تحقيق أو حديث أو مقال ٠٠ حتى نصل الى القراء ، وبالتركيز هنا على العبارة فانها لا بد وأن تكون :

— واضحة تماما .

— قصيرة يقدر الامكان .

— ذات نسيج قوي ومتماسك من الكلمات والحروف .

— تنتهي اليها العبارة السابقة عليها ، وتؤدي هي الى العبارة

التالية لها في سهولة ويسر .

— لا تتكرر فيها الكلمات والحروف بدون داع .

— كل كلمة من كلماتها تقع في مكانها الصحيح .

— لا تكون محسوبة بالمترايفات .

— ولا الروابط الكثيرة .

— ولا الجمل الاعتراضية ٠٠٠

— التي تقدم معنى مفيدا ، محددا ، وغير قلق .

- الصادقة والدقيقة التعبير عن المعنى المقصود وتصوير المشهد أو الموقف أو الشخصية .
- القوة التأثير وحدها ، والتي يزداد تأثيرها قوة مع اخواتها من العبارات الأرى .
- غير المقطعة ، أو الممزقة الأوصال .
- ذات الجرس البسيط والمعنوى .
- الخالية من الزخرف ، إلا ما ورد عفو خاطر .
- الى غير ذلك كله .

.. تلك هي عباراتنا الصحفية عامة أو التي تصلح للاستخدام على مستوى التحرير الصحفي .. فهل للعبارات الجاحظية صلة بها ؟ وما هو نوعها ؟

الحق أن استقراء التراث الجاحظي . ليضع يدنا على حقيقة تقول ، أن عباراته أو جملة ، قد تميزت بعدد كبير من هذه الخصائص الصحفية وكان من أبرزها — ونحن نتحدث هنا عن بلاغة صحفية إذا صح التعبير — أقول كان أبرزها خمسا على وجه التحديد ألا وهي :

١ — قصر العبارة وإيجازها خاصة بالنسبة لمساته التي اقتربت من الصحافة ، والتي أشرنا إليها من قبل ، وليس في جميع الأحوال انطلاقا من أنه « لكل مقام مقال » .

٢ — وقد ترقب على ذلك ، وبمراعاة ثروته اللغوية ومعجم مفرداته الكبير أن جاءت العبارة « قوية الحبك شديدة التماسك » (١٩) .. لا يسهل اختراقها ، ولا تسقط منها كلمة ما .

٣ — الوضوح الكامل للكلمات أو الحروف ومن ثم للتركيب العباري كله .

٤ — الخلو من الزخرف الصناعي قدر الاستطاعة . وعدم الحرص عليه وتركه يأتي عفو خاطر .. ولعل ذلك هو ما عناه د . شوقي ضيف بقوله .  
« .. فالكتابة عنده ليست زخرفا خالصا يراد به الوش والحلي ، وما ينتمج في ذلك من صور وتشبيهات واستعارات ، بل هي معان تؤدي في دقة تفسر الوقائع والأحداث تفسيراً لا تسترهُ أسجاف الاستعارات والأخيلة » (٢٠) .

٥ — العناية بأن تكون كل عبارة وحدة واحدة تقدم معنى مفيدا يثير القارئ ويشجعه على المتابعة والانطلاق نحو العبارات الأخرى التي تتكون منها الفقرة .

٠٠ وليست هذه فقط هي ما تميزت به العبارة الجاحظية من خصائص فقد كانت هناك المعالم الأخرى التي تأخذ بنصيب من البلاغة بمعناها الأدبي، ومعناها الصحفي معا ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

• حسن الربط بين العبارة والعبارة الأخرى — الترتيب المنطقي الجيد للعبارات في مجموعها — التقديم والتأخير للاسماء والأفعال بما يعمل على تقوية العبارة — عدم التكلف أو التعقيد — طرافة التعبير واستخدامها الذكي لكسر حدة جفاف عبارة أو أخرى ٠٠٠ وغيرها ٠٠ وهي مالا تقتصر معرفته على الأدباء فقط وإنما الأديب والصحفي معا ، وبالنسبة لأكثر فنون وأنماط التحرير الصحفي .

● وأما عن العنصر الرابع الذي تمثلته « الفقرة » ٠٠ فمن الطبيعي، وقد جاءت كل هذه المقدمات ، دقيقة ، وصائقة ، ومختصرة ، ومتماسكة ، وصحيحة ، أن تكون النتيجة من جنس هذه الخصائص كلها ، وإذا كانت النتيجة النهائية تتمثل في « النص » كله ، أو المادة أو الموضوع من أوله إلى آخره ، فإن النتيجة الأولية تظهر ضمن إطار الفقرة ، تلك التي ينتهي إليها نسيج العبارات ، وتجمع هي بين أكثر من عبارة ٠٠ وحيث يمكننا أن نضع أيدينا على أكثر من خصيصة واحدة للفقر الجاحظية ، تقترب كثيرا من تلك التي تشترط في « الفقر الصحفي » ٠٠ ومن بينها ، أو من أهمها :

— الطول المناسب للفقرة المناسبة للمادة المناسبة ، فهي تختلف من مادة خبرية إلى قصصية إلى مقالية مثلا ، مع غلبة طابع الفقرات القصيرة .

— كون كل فقرة عبارة عن وحدة واحدة متماسكة وقائمة بذاتها .

— كون كل فقرة مما تتضمن فكرة واحدة رئيسية ، أو فرعية ، تتناول من زاوية جديدة أو مختلفة .

— كون فقرات البداية عنده أشد قصرا وتماسكا من فقرات الوسط  
في أغلب الأحوال . .

— وضوح الفقرة في مجموعها ، وبساطتها وسهولة توجيهها الى  
الأذهان .

— أن يكون ارتباطها بالفقرة السابقة عليها أو انفصالها عنها يعود  
الى الفكرة ذاتها ، والى المادة نفسها وطبيعتها ، فهي على المستوى الاختياري ،  
غيرها على مستوى القصص والتحقيقات غيرها على مستوى المقالات . كما  
أن ذلك راجع الى أهمية المادة نفسها ، وضرورة هذه الفقرة بالنسبة للنص  
كـله .

— كذلك فقد حفلت هذه الفقر الجاحظية بفضيلة أخرى ، تلك هي  
عدم التردد بين الجمل القصيرة جدا والطويلة جدا ، داخل أطوار الفقرة  
الواحدة . بحيث يحدث نوع من الاقتراب والتماثل والتشابه بين طول  
العبارات المكونة للفقرة .

— وهي لم تزخر بالروابط ، والجمل الاعتراضية والاسماء الكثيرة  
والطويلة والمركبة . .

— وجود نوع من التسلسل المنطقي للأفكار الرئيسية والفرعية ،  
بحيث تقود هذه الى تلك ، والى الثانية والثالثة ، حتى الفقرة  
الآخيرة . . وهكذا .

لا نترك ذلك كله . دون الإشارة الى عدد من الأمثلة الدالة عليه ، من  
المعين الجاحظي الكبير ، ومما سبق أن قمنا عدة سطور منه ، أو من سطور  
جديدة لم نقدمها خلال الصفحات السابقة .

فالحاحظ كان يعنى بانتخاب العاظه التي تؤدي الغرض وتوصل الى  
المعنى وتكون أكثر ملاءمة له . واتفاقا مع الفهم والذوق ، ومع صدق التعبير  
ورأعيته ودقته ، في نفس الوقت الذي يكرن فيه اللفظ عاديا سهلا بسيطاً ،  
وليس ضخماً غريباً وحشياً حتى أنه استخدم أحيانا بعض الألفاظ العامية .

والترجمة القريبة من الأذهان ، كما كان عدد حروفها قليلا ، وكانت هي غير متنافرة ، ولم يحدث الصراع أو التناقض بينها حرفا ولفظا .

● ● انظر مثلا الى هذه الألفاظ كلها التي لم يستخدمها غيره إلا قليلا ، أو كان يخاف استخدامها أو لا يقدر عليه بينما تبدو عادية جدا في ثنائيا بيانه .

« الدماغ — الخيشوم — الشحمه — الاقتصاد — المسلمات — البشم —  
التخمة — الرعاء — النشرة — التشنيع — الاخبار — المعاش — الكرة  
المحامي — المزاح — الدمائه — الضاحك — المضحك — التركيب — المسادة —  
العله — الآلة — الفلاحة — المعارضة — السلامة — النمو — قط — النزهة —  
العدة — الخفي — الشاهد — الوافر — الرئاسة — النتاح — التقويم — الآثار —  
الخطر — الفرقة — المسلوب — المالح — السمن — الشواء — التعسارف —  
الدليل — الوقاح — المناضلة — الحيارى — الانذاعة — الجمار — الأفلاك » .

● ● وانظر كذلك الى هذه الطائفة من الكلمات والتعابير الشعبية وروح الفكاهة التي تسرى في هذه الاوصاف :

« سقط على أنفه الذباب — من غير أن يحرك أرنبته — مفرط القصر  
ويدعى أنه مفرط الطول — عدوت منه شوطا لم أتكلف مثله منذ كنت صبيا —  
وكان مربعا — وعليك لهم اذا اضطجعت مسائل — وتحسبه مدورا — ان شئت  
فأكله وموتة وان شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة — اللهم العن هذه  
الصلعة ١ — كان اماما في البخل — ينهشها طولا وعرضا ورفعا وخفضا —  
كان أسخى الناس على طعام غيره وأبخل الناس على طعام نفسه — يأكل  
بعشرة — الكظيف — شق قميصه من الطرب — النشال — اللكام — النباش —  
النشاف — المصاص — النهاش » .

الى غير ذلك من الكلمات والتعابير الشعبية والعامية والفكاهة .

● ● وانظر كذلك الى هذه التراكيب العجيبة والسهلة التي وردت ضمن كتابات الرجل مما يذكرنا بتعابير وتراكيب كبار كتاب المقال في صحف اليوم :

« كاد الشاعر يخرج من جلده - شهاد عيان - الحميد المركب -  
أعجزتهم الحيلة - دارت بهم الحال - أرباب الوبيلة - أخبر الخلق - تعظيم  
البيان - صاحب الخير - صاحب الشر - نوات الاقتصاد - وقعت بين نابي  
أسد ... الخ » ..

● ● كذلك ، فقد كان من معالم أسلوبه - كما ذكرنا - الذي يقترب  
من الأسلوب الصحفي كثيرا أن عباراته كانت قصيرة متماسكة ، بحيث لم  
يزد طولها عن عشر كلمات إلا في القليل النادر ، بينما دارت معظمها حول  
نصف هذا العدد من الكلمات ، وفي أحيان كانت تقل عن خمس أيضا ، بل  
وكانت عنده المقدرة على أن يقدم لنا عبارات عديدة تدور حول كلمتين أو  
ثلاث فقط ، اقرأ معنا على سبيل المثال لا الحصر .. هذه الفقرة من بيانه :

« .. ومن لك بطبيب أعرابي ، ومن لك برومي هندي ، ويقارسي يوناني !  
ويقدم مولد ويميت ممتع ! ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر ، والناقص  
والواقر ، والخفي والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرقيع والوضيع ، والفث  
والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ، (الحيوان جأ) من المقدمة) ..

إلى غير ذلك كله ، من هذه الكلمات السهلة ، السلسلة المنسابة ، ومن  
العبارات القصيرة والفقرات أيضا .

والخلاصة ، أن الجاحظ في هذا الجانب الصحفي من جوانبه ، عرف  
ككل صحفي آخر ، كيف يبحث عما يريد أن يقول ، وكيف يختاره من بين  
ما تجمع لديه من محموله ؟ ثم كيف يعبر عن ذلك ، بالطريقة التي يفهمها  
أكثر القراء ؟ لقد عرف ماذا يقول ؟ وكيف يقول ؟ وبأي أسلوب أيضا ؟

وكما قلنا .. لا تترك هذا المجال ، دون إشارة إلى أقوال الرجل نفسها  
التي تتصل بهذه الأمور من ألفاظ وتعابير وأساليب أزعج عن يقين أنها تصلح  
تماما ، لتعطى في قاعات الدرس الصحفي ، وفي معامل التحرير على وجه  
الخصوص .. أن من بينها على سبيل المثال ، هذه الأقوال :

● « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني

نوع من الأسماء ، فالمسخيف للمسخيف والتخفيف للتخفيف والجزل للجزل والافصاح في موضع الافصاح والكناية في موضع الكناية والامترسال في موضع الامترسال » (٢١) .

● « ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت بعد امتحان سواها — ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل » (٢٢) .

● « ... وانما الألفاظ على اقدار المعاني فكثيرها لكثيرها ، وقليلها لقليلها وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها ... » (٢٣) .

● « ... واحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه » (٢٤) .

● « ... ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه ، متخيلا في جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئا من التعقيد ، حبيب اليه النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول وهشت اليه الأسماع وارتاحت القلوب » (٢٥) .

... ويعسد ..

فهذا رجل أخذ من كل بستان زهرة .

وروى الأخبار التي كانت حالية ساخنة وقت روايتها .

وسعى وانتقل من مكان لكان ورجل طلبا لها وللعلم والثقافة .

وكانت له مصادر عديدة المسموعة والمقروءة معا .

وصور عصره أبلغ تصوير بما فيه ومن فيه .

بدقة ، وموضوعية ، وفي اختصار .

ولم يهتم كثيرا بالمصنعة أو الزخرف أو الوسائل البيانية .

ولم يهتم كثيرا بالخيال ... بل هو الواقع .

وهو المعنى قبل اللفظ ...

فضلا عن انه قرأ كل فن معروف ، ومارس كل علم معروف ، وسعى

وراء كل فكر معروف ...

واقترح كل الآفاق الجديدة التي أنتجها عصره ، وسبق غيره باقتحامها ، بل كان من المبشرين بها ..

وكان بكل ذلك ، أكثر الكاتبيين في عصره الذين أقبل القراء عليهم بكل شغف وعجب أيضا .

وما يزال أكثر كتاب عصره الذين يقبل عليهم القارئ .. حتى اليوم ، بعد أن نجحت كتاباته بكل هذا الذي توافر لها من أن تعبر القرون ، وتصل إلينا وبعضها كأنه كتب بالأمس القريب فقط ، وبعضها الآخر كأنه كتب اليوم ..

ولو عاش الرجل بين ظهرانينا ، لكان أحد الأقدان من كتاب عصرنا أيضا ولسعت من ورائه نوعيات كثيرة من الصحف والمجلات ، ولاحتل بين محرريها مكانا بارزا ومرموقا ، وما كان أجبره بذلك .. وهو الأسيب الصحفي .. معا .. أو هكذا أردت أن أقول .

---

### هوامش هذا الفصل :

- (١ — ٢) أحمد الشايب : « الأسلوب » ص ٤٥ .
- (٣) عبد اللطيف حمزة : « المدخل في فن التحرير الصحفي » ص ٢٢٢
- (٤ — ٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .
- (٦) من بينهم الأساتذة الدكاترة المرحوم عبد اللطيف حمزة ، والمرحوم حسنين عبد القادر ، و د<sup>٠</sup> إبراهيم امام ، وغيرهم .
- (٧ — ٨) محمود فهمي : « فن تحرير الصحف الكبرى » ص ٦٠ ، وما بعدها .
- (٩) اجلال خليفة : « اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي » ص ١٢
- (١١ — ١٢ — ١٣) عبد العزيز شرف : « اللغة الاعلامية » ص ١٩٧ ، ١٩٩
- (١٤) محمود أدهم : « المقال الصحفي » ص ٢٤٢ وما بعدها .
- (١٥) الجاحظ : « البخل » ص ٤٥٢ نقلا عن د<sup>٠</sup> طه الحاجري .
- (١٦ — ١٧) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » ص ١٤٩ ، ١٤٥ .
- (١٨) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٢ .
- (١٩) الأب فيكتور شلحت اليسوعي : « النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ » ص ٥٥ .
- (٢٠) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٤ .
- (٢١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ٢ ص ٢٩ .
- (٢٢) المصدر السابق ص ٣٦٨ .
- (٢٣) المصدر السابق ، ج ٧ ص ٧ ، ٨ .
- (٢٤) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ٢ ص ٧٣ .
- (٢٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٨ .

## أهم مراجع الكتاب ومصادره

### أولا - معاجم وقواميس

- ١ - إبراهيم أنيس وآخرون : « المعجم الوسيط » مجمع اللغة العربية ، القاهرة .
- ٢ - أحمد محمد علي المقرئ الفيومي : « المصباح المنير في غريب الشرح الكبير » المطبعة الأميرية ، مصر .
- ٢ - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : « مختار الصحاح » وزارة المعارف ، مصر .
- ٤ - ياقوت الحموي : « معجم الألباء » دار المأمون .

### ثانيا - مصادر جاهلية

- ٤ - البخلاء : تحقيق طه الحاجري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ١٩٤٨
- البخلاء ٤ ضبط وشرح أحمد المومني وعلي الجسارم ، وزارة المعارف ، القاهرة ١٩٣٩ .
- ٦ - الحيوان : تحقيق عبد السلام هارون ، م الحلبي ، القاهرة ١٩٢٨ .
- ٧ - البيان والتبيين : تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٨ - رسائل الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون ، م الخانجي ، القاهرة ١٩٤٣ .
- ٩ - الترييع والتدوير : تحقيق فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية ، بيروت .
- ١٠ - البرصان والعرجان ... الخ : تحقيق محمد مرسى الخولي ، د . الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٢ .

### ثالثا - كتب مختلفة

- ١١ - أبو الحسن علي بن اسماعيل بن سيدة : « المخصص » وزارة المعارف القاهرة .
- ١٢ - أجلال خليفة : « اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ٧٢/٧٣ .
- ١٢ - أجلال خليفة : « الصحافة » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- ١٤ - أجلال خليفة . « علم التحرير الصحفي » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ .

( الجاحظ )

- ١٥ - أحمد الاسكندري وزميله : « الوسيط في الأدب العربي وقاريحه، المطبعة  
الرحمانية ، القاهرة .
- ١٦ - أحمد الشايب : « الأسلوب » م . النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ،  
١٩٧٦ .
- ١٧ - أحمد فريد الرفاعي : « عصر المأمون » دار الكتب ، القاهرة .
- ١٨ - أحمد كمال زكي : « الجاحظ » هيئة الكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- ١٩ - أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٢٠ - أحمد يوسف محمد خليفة : « نشأة النقد الأدبي حتى نهاية القرن  
الأول الهجري » م . الثقافة القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٢١ - السباعي بيومي : « تاريخ الأدب العربي » مطبعة الرسالة ، القاهرة  
١٩٥٨ .
- ٢٢ - بدوي طبانة : « البيان العربي » م . الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، القاهرة .
- ٢٣ - بدوي طبانة : « علم البيان » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٢٤ - توفيق الحكيم : « فن الأدب » مكتبة الآداب ، القاهرة .
- ٢٥ - جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » م . الكتاب اللبناني ،  
بيروت .
- ٢٦ - حسن السندوي : « أدب الجاحظ » المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٢١ .
- ٢٧ - حمدين غنيم القادر : « الصحافة كمصدر للتاريخ » م . الأنجلو  
المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٢٨ - حنا الفاخوري : « الجاحظ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .
- ٢٩ - خليل صايات : « الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم » دار المعارف ،  
القاهرة ١٩٦٨ .
- ٣٠ - خليل صايات : « وسائل الاتصال : نشأتها وتطورها » م . الأنجلو ،  
المصرية القاهرة ١٩٨٤ .
- ٣١ - راجي صهيون : « مدخل إلى علم الصحافة » مترجم عن ف . فريزر  
بوند ، مؤسسة أ . بدران ، بيروت .
- ٣٢ - زكي مبارك : « أدب القرن الرابع » دار الكتب المصرية ، القاهرة  
١٩٣٤ .
- ٣٣ - شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ط ٦ دار المعارف ،  
القاهرة .
- ٣٤ - شوقي ضيف : « النقد » دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٣٥ - طه الحارجي : « الجاحظ : حياته وأثاره » دار المعارف ، القاهرة .
- ٣٦ - طه حسين : « حديث الأربعاء » م . التجارية ، القاهرة ١٩٤٨ .
- ٣٧ - طه ندا : « الأدب المقارن » دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

- ٣٨ - عبد العزيز الغنم : « مدخل الى علم الصحافة » ج ١ . م . الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٣٩ - عبد العزيز شرف : « فن المقال الصحفي » دار المعارف . القاهرة ١٩٨١ .
- ٤٠ - عبد العزيز شرف : « اللغة الاعلامية » المركز الثقافى الجامعى . القاهرة ١٩٨٠ .
- ٤١ - عبد اللطيف حمزة : « مستقبل الصحافة في مصر » دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٥٧ .
- ٤٢ - عبد اللطيف حمزة : « المدخل فى فن التحرير الصحفي » دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٤٣ - محمد أحمد خلف الله : « دراسات فى الأدب الإسلامى » لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٧٤ .
- ٤٤ - محمد زغلول سلام : « دراسات فى الأدب العربى » منشأة المعارف . الاسكندرية .
- ٤٥ - محمد غنيمى هلال : « الأدب المقارن » دار النهضة مصر ، القاهرة .
- ٤٦ - محمد مصطفى غنيم : « مخبرو الصحف » مترجم عن د . بوتر . دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ٤٧ - محمود أدهم : « فن الخير » دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٤٨ - محمود أدهم : « فن تحرير التحقيق الصحفي » دار الشعب . القاهرة ١٩٧٩ .
- ٤٩ - محمود أدهم : « الفكرة الاعلامية » دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٣ .
- ٥٠ - محمود أدهم : « المقال الصحفي » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٤ .
- ٥١ - محمود أدهم : « التعريف بالمجلة » م . الثقافة . القاهرة ١٩٨٥ .
- ٥٢ - محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحرير الصحفي العام » القاهرة ١٩٨٥ .
- ٥٣ - محمود فهمى : « فن تحرير الصحف الكبرى » هيئة الكتاب . القاهرة
- ٥٤ - نبيل راغب : « دليل الناقد الأدبى » م . غريب . القاهرة ١٩٨١ .



## محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة
● تقديم	٥
● الفصل الأول : عن الصحافة والصحافيين والأدب الصحفي	٩ - ١٠ - ١١
عن الأدب وعن الصحافة	١٤
عن الأدب الصحفي	٢٢
هوامش	٢١
● الفصل الثاني : معالم جاحظية	٢٢ - ٢٤ - ٢٥
نتائج عصره	٢٥
مكوناته	٤٢
التثقيف الذاتى	٥١
هوامش	٥٨
● الفصل الثالث : شواهد صحفية	٥٩ - ٦٠
الرجل ومصادره	٦١
معايشة .. وحضور	٦٦
( ١ ) فى المجال الدينى العقائدى	٦٩
( ب ) فى المجال الفكرى والعلمى والثقافى	٦٩
( جـ ) فى المجال اللغوى والأدبى	٧٠
( د ) فى المجال الاجتماعى	٧١
( هـ ) فى مجال الامتاع الفكاهى	٧٢
شاهد على العصر	٧٤
... وأكثر من حاسة	٨٠
( ١ ) الحاسة الاخبارية	٨١
( ٢ ) الحاسة السياسية	٨٢
( ٣ ) الحاسة الاتصالية	٨٥
( ٤ ) الحاسة الجماهيرية	٨٨
( ٥ ) الحاسة الفكاهية	٩٠
هوامش	٩٢

الموضوع	الصفحة
● الفصل الرابع : الحاسة الصحفية عند الجاحظ	٩٥ — ٩٦
«أولا : اشارات ودلالات سريعة . . . . .»	١٠٢
ثانيا : شواهد صحفية مختلفة . . . . .	١٠٤
( ١ ) الأفكار الصحفية الجديدة . . . . .	١٠٥
( ٢ ) حول الأخبار الجاحظية . . . . .	١١١
( ٣ ) « . . . وشواهد أخرى » . . . . .	١٦
( ٤ ) يؤلف فقط ٠٠ أم يجمع أيضا ؟ . . . . .	١٢٥
هوامش . . . . .	١٣١
● الفصل الخامس : جذور الفنون الصحفية في	
أدب الجاحظ . . . . .	١٢٢ — ١٢٤
( أ ) كتاباته وجذور الحديث الصحفي . . . . .	١٢٨
( ب ) كتاباته وفن التحقيق الصحفي . . . . .	١٥١
( ج ) كتاباته وفن المقال الصحفي . . . . .	١٥١
المقال المختصر . . . . .	١٥٧
مقال المناسبات . . . . .	١٥٨
المقال الاعلاني . . . . .	١٥٩
المقال الصحفي العام . . . . .	١٥٩
المقال العرضي . . . . .	١٦١
المقال التحليلي . . . . .	١٦٢
المقال النقدي . . . . .	١٦٦
مقال التخصص العام . . . . .	
المقال الفكاهي الكاريكاتيري . . . . .	١٧٦
المقال الافتتاحي . . . . .	١٨٧
هوامش . . . . .	١٩٣
● الفصل السادس : عن الأسلوب الجاحظي	
« الجاحظ والأسلوب الصحفي » . . . . .	١٩٥ — ١٩٦
أولا — الأسلوب : ماذا يعني ؟ . . . . .	١٩٧
ثانيا — عن الأسلوب الصحفي . . . . .	٢٠٢
ثالثا — الجاحظ والأسلوب الصحفي . . . . .	٢٠٦
الجاحظ ومستويات التعبير . . . . .	٢٠٩

الموضوع	الصفحة
حول الحروف التي استخدمها . . . . .	٢١٢
الكلمات الجاحظية . . . . .	٢١٤
العبارات الجاحظية . . . . .	٢١٦
الفقرة عند الجاحظ . . . . .	٢١٨
مواش . . . . .	٢٢٤
أهم مراجع الكتاب . . . . .	٢٢٥



**تم بحمد الله**  
**ويليه يعونه تعالى كتاب جديد**  
**فى سلسلة**  
**فنون التحرير الصحفى**  
**بين الأصالة والمعاصرة**

( الجاحظ )



## هذا الكتاب وغيره من الآثار العلمية للمؤلف

### الدكتور محمود أدهم تطلب من :

- ❶ وكالة الأهرام للتوزيع . شارع الجلاء بالقاهرة .
- ❷ مكتبة الأنجلو المصرية : ١٦٥ ش محمد فريد بالقاهرة .
- ❸ دار الفكر العربى : ٩٦ ، ١١ ش جواد حسنى بالقاهرة .
- ❹ دار الشعب : ش قصر العيني بالقاهرة .
- ❺ دار الثقافة للطباعة والنشر : ش كامل صدقى بالفجالة بالقاهرة
- ❻ المركز العربى للصحافة : ٢٢ ش قصر النيل بالقاهرة .
- ❼ عالم الكتب : ٢٨ ش عبد الخالق ثروت بالقاهرة .
- ❽ دار الفكر الحديث : ١٥ ش شريف بالقاهرة .
- ❾ دار النهضة المصرية : شارع عدلى بالقاهرة .

### ❶❷ ومن المؤلف :

- ص ب ٥٠٤٦ هليوموليس غرب / القاهرة
- أو ٢٥ ش محمد فريد / مصر الجديدة / شقة ٤١ .
- ب ٢٤٢٢٤٢٨

رقم الايداع ٢٤٦٦ / ٨٦



## ● ● مؤلفات الدكتور : محمود أدهم في الإعلام الصحفي

- ١ - في الخبر .
- ٢ - التحقيق الصحفي .
- ٣ - مقدمة في التحرير الاخباري .
- ٤ - هم والصحافة .
- ٥ - فن تحرير التحقيق الصحفي .
- ٦ - المدخل في فن الحديث الصحفي
- ٧ - دراسات في التحرير الاخباري .
- ٨ - الفكرة الاعلامية .
- ٩ - ماجريات الصحف .
- ١٠ - دراسات في فن الحديث الصحفي .
- ١١ - المقال الصحفي .
- ١٢ - الأسس الفنية للتحرير الصحفي العام .
- ١٣ - المقابلات الاعلامية .
- ١٤ - التحقيق الأنموذجي وصحافة الغد .
- ١٥ - التعريف بالمجلة .
- ١٦ - جريدة الأهرام وفن التحقيق الصحفي .
- ١٧ - في عالم المجلة .
- ١٨ - دراسات في صحافة المجلة .
- ١٩ - أدب الجاحظ . . من زاوية صحفية .

## ● ● تحت الطبع للمؤلف :

- ١ - دراسات في فن التحقيق الصحفي .
- ٢ - عروش وأقلام .

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)